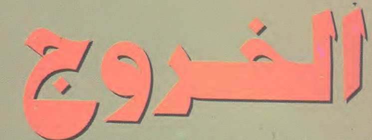
الأعمال الخاصة

مكتبة الأسرة 2000

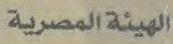
مهرجان القراءة للجميع 2000

د. فتحي عبد الفتاح

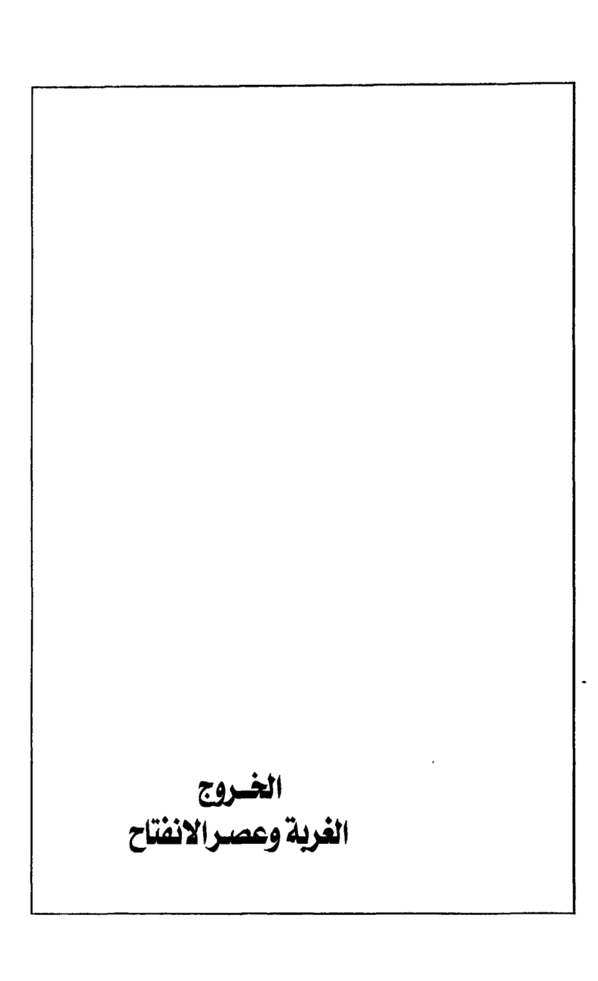


الخروج

الغربة وعصر الانفتاح



الهيئة المصرية العامة للكتاب



الخــروج
الغربة وعصر الانفتاح

لوحة الغلاف

راغب عياد (١٨٩٢ - ١٩٨٢)

رائد من رواد الموجة الأولى فى الفن المصرى المعاصر للقرن العشرين. رسام فذ فى مجال التصوير الدينى الكنسى، وفى الجسد العارى فى العشرينات، وواحد من أولئك الذين أكسبوا الفن المصرى واحدة من أهم صياغاته المتحررة من القوالب فى الثلاثينيات، ولعله كان الملهم الأول للتوليفات التى اشتغل بها جماعة الفن المعاصر مع حسين يوسف أمين فى منتصف الأربعينات، عندما أنجز رائعته «مقهى فى أسوان» سنة ١٩٣٣ وضمَّنها عناصر حوشية غجرية شديدة الغلظة لإمرأة فى مقهى تدخن النرجيله وقد تشققت يداها من قسوة الدنيا، بينما بدا فى البعد المنظورى جانب من تخت الموسيقى البلدية.

وتعد مجمل لوحاته التى أنجزها منذ الثلاثينات وحتى الستينات قصائد فى الجمال الجليل مليئة بمزيج مصرى رائق الرؤية لموضوعات من الريف المصرى وقد أسردها بصريا من أعلى إلى أسفل والعكس كمثل المدونات الفرعونية ـ إنما هو اللون الذى أكسب عياد دائما ذلك الطقس الملىء بالشفافية الصوفيه، بحيث يدعنا نرى الصورة وكأنها تتنفس.

أحمد فؤاد سليم

الخـــروج
الغربة وعصر الانفتاح

د. فتحـى عبـد الفتـــاح



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الخاصة)

الخروج

الغربة وعصر الانفتاح

د. فتحى عبد الفتاح

الغلاف

والإشراف الفنى:

الفنان : محمود الهندى

المشرف العام :

د . سمير سرحان

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم

«كتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة» تلك الصيحة التى أطلقتها المواطنة المصرية النبيلة «سوزان مبارك» فى مشروعها الرائع «مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة» والذى فجر ينابيع الرغبة الجارفة للثقافة والمعرفة لشعب مصر الذى كانت الثقافة والابداع محور حياته منذ فجر التاريخ.

وفى مناسبة مرور عشر سنوات على انطلاق المشروع الثقافى الكبير وسبع سنوات من بدء مكتبة الأسرة التى أصدرت فى سنواتها الست السابقة «١٧٠٠» عنواناً فى حوالى «٣٠» مليون نسخة لاقت نجاحاً واقبالاً جماهيرياً منقطع النظير بمعدلات وصلت إلى «٣٠٠» ألف نسخة من بعض إصداراتها.

وتنطلق مكتبة الأسرة هذا العام إلى آفاق الموسوعات الكبرى فتبدأ بإصدار موسوعة «مصر القديمة» للعلامة الاثرى الكبير «سليم حسن» فى «١٦» جزءاً إلى جانب السلاسل الراسخة «الابداعية والفكرية والعلمية والروائع وامهات الكتب والدينية والشباب» لتحاول أن تحقق ذلك الحلم النبيل الذى تقوده السيدة: سوزان مبارك نحو مصر الأعظم والأجمل.

د. سمير سرحان

مقدمـــــة

إن هذه المذكرات لاتزعم لنفسها أنها تقدم تاريخا ..

بل إنها لاتدعى أنها تقدم تقيمها لمرحلة تاريخية..

فهذه مهمة لا أقدر عليها حتى لو توافرت لدى الرغبة ..

ولكنها بالتأكيد تقدم شهاده واقعية أو فلنقل لونا من ألوان السيرة الذاتية لإنسان عاش تلك الأحداث وعايشها ... ليس كمراقب من بعيد؛ بل كجزء من الحركة نفسها ..

لقد احتفل النقاد كثيرا؛ إختلفوا وتباينوا بشكل أكثر حول كتاب «شيوعيون وناصريون» الذى صدر فى السبعينات ...

فبينما اعتبره البعض وثيقة سياسية وإستخدم بالفعل كأحد المراجع الضرورية فى تقييم المرحلة الناصرية سواء فى المحاكم أم فى دراسات الجامعة لنيل الماجستير والدكتوراة..

فإن بعض الآخر نظر إليه «كرواية تاريخية» تحكى بشكل فنى أحداثا واقعية .. امتزج فيها البعد الذاتى بالبعد الموضوعى بينما رأى كاتب كبير مثل نجيب محفوظ أنه يجسد جنسا خاصا من أجناس الابداع الأدبى والفنى يقف على قدم المساواة إن لم يفق أعمالا شبيهة صدرت فى الغرب مثل «عريان بين الذئاب» للكاتب الألمانى برونو آبيتز ومثل «النفى فى سيبريا» للكاتب الروسى سولجستاين التى حاز عليها جائزة نوبل ..

والحقيقة أننى لم أفكر كثيرا فيما ذهب إليه النقاد والكتاب فقد كان «شيوعيون وناصريون» تجربة عميقة عشتها وحاولت أن أقدمها للقارئ بنفس درجة الصدق والمعاناه التى خضت بها التجربة ..

والأمر كذلك بالنسبة «للخروج» والتى هى فى الواقع امتداد لنفس التجربة فى ظروف ومرحلة جديدة ..

ويقال دائما ان لحظات الصدق الكلى مع الذات تتحقق بشكل خاص فـــ « السجن والحرب

والغربة .. ففى هذه الظروف الخاصة يتعرى الإنسان أمام نفسه تماما، وتسقط كل عوامل الزيف والخداع ..

فهى تجارب طاحنه فاصلة، إما أن تدمرك تماما وإما أن تصقلك تماما .. وليس هناك خداع أو حل وسط ..

لقد كان الأمر كذلك فى تجربة الاعتقال والسجن فى «شيوعيون وناصريون» مثلما هو فى تجربة الغربة فى «الخروج».

مع كل الحب.

فتحى عبد الفتاح

القاهرة ١٩٩٠

- ١ -

هذا زمن لاتبكى فيه العيون ورغم مافيه من معاناة وحزن فستسميه الأجيال القادمة الزمن الذى لاتدمع فيه العيون

جونترجراس - الطبل الصفيح

١٢ فبراير سنة ١٩٧٦

صالة الترانزيت فى مطار القاهرة، بعد ساعتين من منتصف الليل وقبل ساعتين من بزوغ الفجر ، تغرق فى فيض من الأضواء الصامتة تملأ فراغها الكبير الموحش الذى خلا إلا من عدة أفراد تناثروا فى المقاعد وتاهوا بينها... وأخذت ركنا قريبا من الكافتيريا.. ورميت بجسدى فوق الكرسى فى انهداد واضح بينما وجد ولداى عمرو (٨سنوات)وياسر (٥سنوات)فرصة مثالية للانطلاق والمرح فى الصالة الخالية فراحا يتسابقان فى الجرى والزحلقة على الأرض فى احتجاج طفولى واضح على السكون المنعقد، وفى إزعاج واضح للبعض الذى كان قد غفا أو شطح بعيدا مخترقا الزمان والمكان..

كان يوما من الإرهاق المكثف ، من الصباح وحتى بعد منتصف الليل، زائرون ومودعون من الأهل والأصدقاء ، وإجراءات أخرى لاتتذكرها عادة إلاساعات قليلة قبل السفر لابد وأن تنجز.

ويضيع اليوم، وينتصف الليل ويصل الذهن فيها إلى حالة مطلقة من الشرود أو انعدام الوزن ، إضافة إلى فيض من المشاعر المبهمة الغامضة التى تجتاحنى أحاول تغطيتها بابتسامة هادئة أودع بها الأخت والأخوة والأصدقاء الذين أصروا على توديعى حتى باب المطار...

كان ذلك السكون البارد المضئ فى صالة الترانزيت ، ورغم عبث الطفلين الذى لم ينقطع، فرصة لتجميع شتات الذهن أو على الأقل للخروج من تفاصيل اللحظة الراهنة.

كم مرة جلست فى هذه الصالة فى ألسنوات العشر الماضية متجها إلى باريس أو روما أو موسكو أو وارسو ودمشق وعدن وبغداد وتونس أو حتى برلين فى رحلات عمل صحفية أو فى مؤتمرات دولية ، منفردا أو ضمن وفد من الوفود، وأنا سعيد بجولة تمتد أسبوعين أو ثلاثة أو حتى شهرا أزور فيها بلاد الله الواسعة وأتعرف عن قرب على ملامح حضارتها وثقافتها. فلقد

كان السفر وركوب الهواء بشكل خاص يمثل لى حالة انتعاش وجدانى تعمقه تلك السنوات الخمس الطويلة التى قضيتها فى المعتقل فى أوائل الستينيات حبيس جدران صماء.

ولكن السفر هذه المرة يختلف...

فهى ليست مجرد قفزة منفردة محدودة فوق البحر المتوسط تعود بعدها بأسبوعين أو ثلاثة مشحونا بفيض من المعلومات والذكريات والخبرات...

وحتى تذكرة السفر تخلو من تلك الدائرة التى كانت دائما تبدأ بالقاهرة رحيلا وتنتهى بالقاهرة وصولا .. فالتذكرة هذه المرة تحمل طريقا واحدا .. القاهرة - برلين.

أما العودة فقد تكون بعد شهور ، وقد تكون بعد عام.. وقد تكون بعد عامين أو قد لا.. لا.. لايمكن أن تمتد إلى أكثر من ذلك بأى حال من الأحوال.

لماذا هذا الطيف من المشاعر الحزينة الذى يغمرنى فى موجات هادئة نعم ولكنها متلاحقة تبحر فى أعماق محيط ساكن غامض؛ ربما كان إجهاد اليوم وإرهاقه المكثف.. لايمكن أن يكون ذلك صحيحا فكثير من الأصدقاء لاحظوا فى الأسبوعين الماضيين أن هناك ثمة بريق حزين يعكسه الوجه والعينان. وكان الصديق عبد العزيز عبد الله مدير تحرير الجمهورية ووكيل نقابة الصحفيين فى ذلك الوقت يفاجئنى بلهجتة الصعيدية المحببة.

«مالك ياجدع انت.. بالذمة دا شكل واحد مسافر لأوروبا..

كان عبد العزيز عبد الله أحد الذين اقترحوا علىّ السفر إلى الخارج بعد أن لمس بنفسه الظروف الصعبة التى أمر بها فى الجريدة ، فمقالاتى تشطب أو يشطب الجزء الأكبر منها، وقال لى يوما، وقد كان فى موقع يسمح له بمعرفة خبايا الأمور فى عالم الصحافة أن هناك توجيها بإلغاء قسم الأبحاث والدراسات الذى أشرف عليه.

إننى أعرف تماما لماذا أنا مسافر وإلى أين. ومع ذلك يبقى هناك شىء ما يمر بالخاطر ، لمحة سريعة غامضة التفاصيل مبهمة الملامح محملة بجو اسطورى حزين.

فأنا مسافر إلى برلين عاصمة ألمانيا الديموقراطية لأعمل فيها مراسلا لجريدة الجمهورية أو على حسب نص قرار رئيس التحرير ورئيس مجلس الإدارة فى ذلك الوقت الأستاذ/ عبد المنعم الصاوى «مدير مكتب جريدة الجمهورية فى برلين» وكان قد سبقنى إلى ذلك العمل أو ذلك المكتب ثلاثة زملاء منذ إنشائه سنة ١٩٦٦.. ولكنى فى نفس الوقت لم يدر بخلدى فى يوم من الأيام أن أعمل مراسلا وفى هذا المكتب الذى شاركت فى إنشائه ، لقد كان ذلك أخر ما أتصوره.. أن أعمل خارج مصر..

ففى سنة ١٩٧٠ ، وبعد عودة الزميل عدلى برسوم من برلين عرض على الأستاذ الصديق مصطفى بهجت بدوى رئيس التحرير ورئيس مجلس الإدارة ذلك وكان ردى الاعتذار الحاسم .

وحتى فى سنة ١٩٧٣ حينما فصلت أو بشكل أدق حينما أحالتنى لجنة النظام فى الاتحاد

الاشتراكى إلى المعاش ضمن ٣٦ صحفيا وكاتبا منهم أحمد بهاء الدين ولطفى الخولى وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ ويوسف إدريس ومكرم محمد أحمد وميشيل كامل ثم لحقهم سبعون أخرون نقلوا إلى مصلحة الاستعلامات تحت دعوى أننا جزء من القلة الحاقدة التى تعمل على إثارة القاعدة الطلابية السليمة فى ذلك الوقت، حتى فى ذلك الوقت العصيب الحرج، لم أفكر فى السفر والعمل فى الخارج خارج مصر.

وذهب الكثير من الأصدقاء والزملاء الذين فصلوا أو نقلوا إلى بغداد وبيروت وطرابلس وإلى عواصم عربية أخرى، وبقيت فى القاهرة مع مجموعة أخرى من الزملاء نلتقى يوميا فى نقابة الصحفيين ونضع الخطط والبرامج لمقابلة المسئولين وغير المسئولين لفضح هذا القرار الجائر وغير المسبوق فى تاريخ الصحافة المصرية.

بل إننى اعتذرت عن عرض محدد من الصديق عبد الفتاح إسماعيل الذى كان فى ذلك الوقت السكرتير العام للجبهة القومية وهى الحزب الحاكم فى اليمن الديموقراطية لأن أتولى مسئولية مؤسسة ١٤ أكتوبر الصحفية فى عدن ، وشكرت للصديق حسن ثقته وقلت له بعد ذلك فى لقاء فى منزله على الربوة العالية المطلة على باب المندب «لقد أحسست بالاعتزاز والتقدير بعرضك الغالى فى تلك الظروف والتى كنت فيها مفصولا ومطاردا وأنت تدرك مدى ارتباطى الوجدانى بالثورة فى اليمن الديموقراطى ودورك القائد فيه ، فلقد كانت هى أول شرارة أمل تتقد فى جو الظلام الحالك الذى فرض نفسه على مصر والأمة العربية بعد هزيمة سنة ١٩٦٧ الثقيلة.. ولكنى لم أستطع أن أقبل عرضك الكريم ، ببساطة لأنى لايمكن أن أتصور لى أرضا أقيم فيها غير مصر.

ويضحك هو يومها قائلا «أعرفكم أيها المصريون .. مغروسون فى الأرض مثل شجر الجميز».

وتكرر نفس الشىء فى عرض عراقى للعمل فى جريدة الثورة العراقية ، حتى إن أحد الأصدقاء وقد أثاره ذلك الموقف «الفلاحى الغبى» على حد تعبيره أرسل لى رسالة حامية يستثيرنى للخروج ويعدد الأسباب الدافعة إلى ذلك ، ويبدى استغرابه لإصرارى على البقاء فى مصر رغم أنى مفصول وممنوع من دخول الجريدة أو الكتابة والعمل وقال فى النهاية «ماذا تنتظر بالله.. هل تنتظر حتى يقبضوا عليك ويرسلوك مرة أخرى إلى معتقل الواحات فى أعماق الصحراء.. ربما تكون قد اشتقت إليه..» وقد انتهى هذا الموقف بعد صدور قرار عودتنا إلى العمل فى الأسبوع السابق لحرب أكتوبر العظيم نتيجة لظروف موضوعية كانت تؤكد أننا لم نكن قلة حاقدة تعمل على تأليب الجماهير وإثارة القواعد الطلابية السليمة ، بل إننا كنا نعبر عن نبض وحس الجماهير المصرية والعربية حينما كنا نطالب بالدخول فى معركة تحرير الأرض والعرض من المغتصب الصهيونى الجائر.

عندما التقيت بهذا الصديق فى رحلة بعد ذلك إلى البلد الذى يعمل فيه ، انفرد بى ليلة

كاملة يشكو متاعب العمل وضيقه ببعض التصرفات التى لاتتدخل فقط فيما يكتب بل وفيما يفكر على حد تعبيره.

قلت له فى تلك الليلة الربيعية المقمرة فى حديقة البيت الذى يقيم فيه ضاحكا هازلا : .. يعنى الواحات بقى أفضل؟!

وقال فى كلمات قاطعة فاجأتنى شخصيا وأخرست الضحكة فى فمى: ألف ألف مرة..!!

فما الذى جعلنى أقبل بل وأسعى إلى ماكنت أرفضه منذ وقت قريب ما الذى دفعنى لأن أحزم أمتعتى وأولادى مثل بعض من سبقونى خارج حدود الأرض الطيبة فى رحلة عمل قد تستغرق سنوات. وأيقظنى ياسر الصغير من شتات أفكارى البعيدة إلى صالة الترانزيت مرة أخرى حينما جاء يشكو لى أخاه وداعبته مهدئا ونظرت إلى عينه اليسرى المكسورة وكتمت تيارا مريرا من الألم اجتاحنى ويجتاحنى دائما وأنا أنظر إلى عين الصغير اللاهى..

كانت عين ياسر قد أصيبت فجأة منذ عامين بمرض غريب وصفه الدكتور نبيل الجندى أستاذ جراحة العيون فى طب القصر العينى بأنها «حساسية خاصة..».

ومنذ تلك الليلة التى اكتشفت فيها احمرار اقانيا فى عينه اليسرى أعقبته فى ساعات قليلة سحابة بيضاء تغطى العين، وأنا أعيش فى دوامة لاتنتهى من الهموم والحزن ، ضاعفت منها تجربتى الخاصة والمريرة بالنسبة لعينى اليسرى التى فقدتها فى المعتقل. وبالرغم من تأكيدات الدكتور بأن هذه الحساسية ليست وراثية إلا أننى ظللت أحمل دائما إحساسا بالذنب إزاء هذا الطفل البرئ المهدد بفقد عينيه. كنت أحيانا أفزع بالليل فى غرفة المكتب وأصيح مخاطبا نفسى أو مخاطبا الله.. لقد كنت أتحمل قدرى حينما أصيبت عُينى فى المعتقل ، ولكن ماذنب هذا الصغير ليولد موصوما بهذه الكارثة.. خمس مرات فى أقل من عامين تكررت الحالة، وخمس مرات رقد فيها الصغير على سرير العمليات مستسلما ليد الطبيب الذى أحسست أنه هو الآخر يشاركنا تلك المعركة المريرة فى محاولة لإنقاذ عين ياسر الصغير.. كنا نتخذ كل الإجراءات والاحتياطات التى ينصح بها الطبيب.. فمن المفروض ألا يتعرض الطفل لبرد أو زكام وألا يتعرض كثيرا لأشعة الشمس أو الحرارة أو البرودة أو الأتربة.. وتعليمات أخرى كثيرة كان من الصعب طبعا تنفيذها لأنها شبه مستحيلة فكيف يمكن أن تبقى طفلا فى غرفة زجاجية مغلقة.

وتمتد فترات سكون الفيروس شهرين أو ثلاثة فيزداد الأمل فى أن تكون العملية الأخيرة قد استأصلته ، ولكن يعاود الهجوم مرة أخرى وبشراسة أكثر.. وفى العملية الخامسة، وكان ذلك فى منتصف ليلة من ليالى نوفمبر الباردة ، لاحظ الطبيب بعد إجراء العملية حالة الحزن المكثف الشامل الذى اجتاحنى ومشروع دمعة تحجرت فى العينين وأنا أرقب جسد الصغير المخدر النائم وصحبنى إلى مكتبه، وقال وهو يخلع ملابس العملية ويعيد ترتيب هندامه: إننا مازلنا قادرين على التحكم فى الفيروس من خلال العمليات الجراحية..

نحن فى سباق مع الزمن .. فكلما كبر الطفل ازدادت قدرة الجسد والعين على مقاومة ذلك الفيروس ، وقد يزول الخطر نهائيا حينما يبلغ الطفل العاشرة أو الثانية عشرة من عمره ، فقد ثبت بشكل عملى أن سن البلوغ عند الأطفال يقضى على كثير من الفيروسات التى تسبب الحساسية...

ثم التفت إلىّ يوجه كلمات محددة متفرسا فى الوجه:

- المشكلة أنه مازال أمامنا خمس سنوات طوال فى تلك المعركة ولايمكن أن نجرى عملية كل ثلاثة أو أربعة أشهر ، فالعملية فى حد ذاتها تضعف مقاومة العين أكثر فتجعلها أكثر استعدادا للهجوم القادم.

لابد من البحث عن حلول أخرى

- .. وكيف يادكتور.. إننى على استعداد لأى شئ لانقاذ عين الصغير.

- .. بصراحة .. إنه فى حاجة إلى مكان تقل فيه حدة أشعة الشمس، كما تقل فيه كمية الغبار والأتربة .. وهذا لايتوافر إلا فى أوروبا.. أو على الأقل فى مدن ساحلية مثل الاسكندرية أو بورسعيد . ولم أعلق ، فلم يكن هناك أيضا ما يمكن التعليق به.. سامحك الله أيها الطبيب العزيز.. هل تعرف أننى حصلت على شقتى التى أقيم بها فى نفس المكان الذى أوانى وأنا طالب بالجامعة.. فكيف لإنسان مثلى لايملك إلا راتبه أن يدبر شقة أخرى فى الأسكندرية أو بورسعيد فما بالك بأوروبا..

ونسيت أو تناسيت ماقاله الطبيب ، واقتنع هو الآخر فيما يبدو بعدم جدوى تكرار ماقاله..

على أن هذا الظرف الخاص كان جزءا من ظروف عامة أشمل وأعمق تلعب دورها فى ذلك الوقت وتدفعنى دفعا إلى الحائط..

كانت حرب أكتوبر التحريرية والمنظر الخالد الذى لاينسى ولايجب أن ينساه أى مصرى لجنودنا البواسل وهم يعبرون قناة السويس ويحطمون خط بارليف قد بعث الآمال عظيمة حية فى النفوس وغسلها من ادران اليأس والعجز الذى كاد أن يقضى عليها بعد هزيمة سنة ١٩٦٧.

ووقفت مثلما وقف ملايين المصريين فى شارع رمسيس يوم ١٦ أكتوبر سنة ١٩٧٣ أصفق بعقلى وقلبى وعواطفى للرئيس السادات الذى جسد فى تلك اللحظة لى وللملايين غيرى المغزى العظيم للعبور .. لقد كانت الآمال فتيه متفتحة على آفاق رحبة واسعة لتغيير الوضع فى مصر وفى العالم العربى كله للعبور إلى المستقبل.. استرداد الأرض واسترداد النفس والثقة والعبور إلى مجتمع الديموقراطية والرخاء والتنمية والتفوق.. كانت فرصة عبقرية لاتتكرر ليس فقط لإعادة بناء كل شىء بل وللوثوب بالبناء إلى آفاق عالية رحبة،.. فمثلما لعب المارسيليز

دوره التاريخى منذ أكثر من مائتى عام وهزم جيش الثورة الفرنسية جيوش قياصرة وأباطرة أوروبا وأعطى فرنسا الدفعة الخالدة التى مازالت تعيش بها حتى الآن ومثلما لعب نشيد الأمميه دوره الخالد فى تمكين جيش الثورة الروسية المحاصر الضعيف فى أن يهزم جيوش ١٨ بلدا أسرعت للتدخل لإجهاض الثورة ولتنتقل روسيا أو الاتحاد السوفيتى من مصاف الدول الضعيفة الفقيرة إلى واحدة من أغنى وأقوى وأكبر دول العالم.. تلك اللحظة العبقرية الخالدة التى تعطى دفعة العمر، وحققها الجنود والضباط المصريون ومن خلفهم الشعب المصرى كله فى العبور..

ولم يكن أحد يتصور أو يمكن أن يتصور أن هناك أية قوة فى الأرض تستطيع أن تجهض هذه اللحظة العبقرية التى توحدت فيها القدرة والمعاناة والألم والتاريخ..

ولكن الذى حدث بعد ذلك جاء فى البداية غير متوافق ثم متناقضا تماما لكل المقدمات الموضوعية التى أتاحها العبور.

ويجمد العبور عند حدود معنية، بل وتبذل قوى عديدة معادية فى الأساس للشعب المصرى ودوره التاريخى ، جهودا شيطانية لتجريد العبور من مغزاه وتفرض علينا أمورا كانت ترفض من قبل وكأن شيئا لم يكن ، وكأن معجزة عبد العاطى وزملائه فى الجيش الأول والثانى والثالث لم تكن إلا حلما جميلا طاف فى المخيلة.. ويأتى هنرى كيسنجر وزير خارجية أمريكا فى ذلك الوقت ليحقق كما أكد هو فى مذكراته بعد ذلك نصرا لإسرائيل لم تستطع أن تحققه فى ميادين القتال..

واكبت ذلك على الصعيد الداخلى قائمة مفصلة من القوانين الغريبه تحت دعاوى سياسة الانفتاح والتى تفتح فى الواقع أبواب مصر على مصراعيها لكل وافد أو عابث ، حتى التاريخ، وفرضت قوانين لم تكن تفرض إلا فى بلدان مستعمرة مستباحة تعطى لرأس المال الأجنبى وللصناعة الأجنبية الحماية والأولوية على حساب الصناعة المصرية ورأس المال المصرى.

وطرحت أفكار ونظريات غريبة ، وحقيقة فجة وسوقية عن السوق المفتوحة والكوزمبولتانية وعن تحويل مصر كلها إلى منطقة حرة مثل طنجة وهونج كونج ، تلك الأفكار التى كانت الوطنية المصرية منذ عرابى حتى مصطفى النحاس وجمال عبد الناصر قد تمرست فى محاربتها والقضاء عليها..

وكان أغرب مافى الأمر تلك المفاجأة المذهلة ، أن يتم كل هذا بعد أقل من عام واحد من لحظة العبور الخالدة.. وهو مالم يكن يتوقعه ومالم يكن من الممكن أن يتوقعه أو يتحسبه إلا من أسقط من حساباته العقل والمنطق والوطنية وراح يعبث فى مقدرات البلد والتاريخ . والتراث وبلا حدود.

كانت الأحداث تتوالى أو تداعى بلا منطق على الإطلاق

وما كان يقال فى البداية خفية أو على خجل أصبح يقال جهرا بل ويوضع بعضه فى التطبيق..،

وأحسست مثلما أحس غيرى بالخطر..

لم تكن القضية هى الخوف على الاشتراكية ، فلم أكن من المؤمنين فى يوم من الأيام بأن هناك اشتراكية حقيقية قد طبقت فى مصر...

ولم تكن القضية الدفاع عن القطاع العام وعن إعادة تمليك أرض مصر للأجانب ولم تكن القضية أيضا أن تجعل من العدو الذى قتل أبناءنا ودمر منشآتنا بقنابله وطائراته صديقا وأن تحول الصديق الذى ساعدنا فى بناء السد العالى وبناء صناعة مصرية حديثة وأعطانا السلاح الذى ندافع به عن أنفسنا إلى عدو..

كل ذلك قابل للنقاش وقابل للإصلاح والترميم..

ولكن الخطر الذى أحسست به أن دور مصر التقليدى ، دورها الذى وهبته لها عوامل جغرافية وتاريخية وبشرية وحضارية عديدة ، وجعلتها دائما وعلى امتداد التاريخ البشرى هى مفتاح المنطقة الاستراتيجى.

ذلك الدور الذى أكده مينا ورمسيس ودافعت عنه كليوباترا وفهمه واستوعبه صلاح الدين والظاهر بيبرس ومحمد على وعمر مكرم وأبرزه مصطفى النحاس وفجره جمال عبد الناصر.. هذا الدور بدأ وكأنه يباع فى المزاد..

ولم أسكت.. ولم يسكت غيرى، وكتبت فى الجمهورية مع المجموعة الممتازة من الزملاء فى قسم الأبحاث الذى كنت أشرف عليه ، صلاح عيسى ، واسامه الغزالى ، عبد القادر شهيب ، عبد العال الباقورى ، أحمد شرف، محمد أبو الحديد ورياض سيف النصر وفى مجلة الطليعة واشتركت فى عدد واسع من الندوات التى نظمتها الجامعة أو النقابة أو بعض الإتحادات أحذر من نتائج هذه السياسة العابثة التى تتشعب كالأخطبوط تتخذ لها ألف رأس وألف شكل.

بل إننى فكرت ومعى الصديق العظيم البسيط قبارى عبد الله عضو مجلس الشعب فى إصدار صحيفة خاصة لفضح هذه المخاطر واستشعارا منا بأهمية تعبئة كل الطاقات والامكانات حتى لاتتحقق ، واستطعنا بعد جهود ومحاولات عديدة استثمرنا فيها كل علاقاتنا فى الحصول على ترخيص بإصدار مجلة «الحرية».

ووضعنا كل مانملك من جهد ومال وأصدرنا العدد الأول فى ٨ أبريل سنة ١٩٧٥.. والذى صودر فور طباعته..

كان المانشيت يحتوى على تقرير أمريكى خاص وخطير عن الاستراتيجية الأمريكية الجديدة فى مصر والشرق الأوسط فى أعقاب حرب أكتوبر ، وكنا قد حصلنا على نسخة من هذا التقرير السرى الخطير من خلال علاقة خاصة بين قبارى عبد الله وأحد كبار المسئولين فى ذلك الوقت.

كان التقرير عبارة عن نتائج جلسات استماع طويلة نظمتها لجنة خاصة فى الكونجرس الأمريكى وباشتراك مع أجهزة اتخاذ القرار الأخرى مثل المخابرات المركزية والمباحث الفيدرالية واشترك فيها تقريبا كل من له إهتمام أو اختصاص فى قضايا الشرق الأوسط.. أساتذة جامعات ، وزراء خارجية سابقون ، وزراء دفاع ، أعضاء الكونجرس ، مستشارو الأمن القومى.

وكان الجميع يردون على سؤال واحد.. هو.. كيف يمكن رسم استراتيجية أمريكية جديدة بعدما أسفرت عنه حرب أكتوبر وخاصة بعد استخدام البترول كأداة سياسية..؟!

وكان أهم النتائج التى وصل إليها التقرير هى محاولة استيعاب الموقف الجديد فى الشرق الأوسط من خلال ثلاثة محاور:

١ - عزل أكبر دولة عربية وأكثرها خطورة (مصر) وذلك بالاستفادة من اتجاهات الرئيس السادات مع دراسة إمكانية الاستفادة من عدة عوامل مثل الأقباط والمسلمين ، والتيارات الدينية والسلفية والأوضاع الاقتصادية الحادة.

٢ - الحيلولة دون أى شكل من أشكال الوحدة أو الاتحاد أو التنسيق بين الدول العربية وتعميق الخلافات الموجودة حاليا بين الشرق العربى والمغرب العربى..

وبين الدول البترولية وغير البترولية ، ووضع لبنان الخاص ووجود المارونيين المسيحيين المتميز.، والخلافات بين البعث فى سوريا والعراق، والانقسامات الدينية والطائفية والعائلية.

٣ - الإسراع فى الأبحاث والدراسات الخاصة بخلق وترشيد استخدام الطاقة وخاصة البترول وبخلق بدائل على المدى القصير والبعيد.

وخرجنا نفضح المؤامرة.. وصودر العدد الأول فور طباعته..

وقال ممدوح سالم وزير الداخلية ونائب رئيس الوزراء فى لقاء معه فى ساعة متأخرة من مساء ذلك اليوم الذى صودرت فيه المجلة ، بعد أن بحثت عنه أنا وقبارى فى كل مكان

- : ايه اللى عملتوه ده.. انتم مش عايشين فى البلد ، مش عارفين الريح راحة فين.. كان من الواضح أن الرياح القادمة عبر الأطلنطى قد أصبحت عاصفة لاقبل لأحد بمواجهتها وكان من يمسك الدفة فى مصر ويملك القرار ، وفى ظل غياب طويل امتد لأكثر من ثلاثين عاما لأى شكل من أشكال التنظيمات السياسية والجماهيرية المستقلة، يتخذ لمساره بوصلة أخرى ومعايير أخرى...

وتوالت القوانين فى الصدور ، وتوالت الأحداث..

وكانت البداية فقط.. فى الانفتاح..

وانتبهت على ضجة هائلة تغرق صالة الترانزيت فجأة وتضع حدا لتلك الخواطر التى توافدت على ذهنى المكدود..

وتأملت الصالة التى كانت تشكو الفراغ والسكون فى تلك الساعة من الليل وقد امتلأت بعدد كبير من الفلاحين وعمال الزراعة بعضهم يحمل حتى الفأس والغلق التقليدى على كتفه.. وافترش غالبيتهم أرض الصالة فى حلقات دائرية وراحوا يتبادلون النداءات والحوار العالى الصوت ، ويحولون فى لحظات برد الصالة الموحش إلى سامر أو مولد أو مقهى بلدى..

وجرى عمرو الصغير نحوى ليقول فى براءة الطفولة.

- : بابا .. بابا.. الفلاحين بتوع بلدنا جم هنا علشان يودعوك مش كده..

وكتمت ابتسامة مريرة.

- : لا ياصغيرى إن الأمر ليس كذلك.. فالفلاحون فى بلدنا يرحلون هم الأخرون..!!

ولم يكن هناك وقت فلقد نادى الصوت الرخيم النائم فى المطار..

نرجو من السادة المسافرين إلى براين على الطائرة الألمانية. انترفلوخ فى الرحلة رقم.. أن يتوجهوا إلى باب الخروج رقم ٦..»

وجمعت أولادى من صالة الترانزيت واتجهت إلى باب الخروج.

- ٢ -

ن الذى يبحث عن اللآلئ يجب أن يغوص
ى الأعماق

جون درايدن - شاعر انجليزى

١٣ فبراير سنة ١٩٧٦

العربة تنطلق مقتربة من المدينة .. الهر أو السيد هوفمان الذى استقبلنى فى المطار باسم إدارة الصحافة فى وزارة الخارجية فى الأمام بجوار السائق وغارقا معه فى حديث جاد أو هكذا يبدو وبالألمانية التى لا أفهم فيها شيئا، وبين الحين والآخر يلتفت إلى الخلف حيث أقبع أنا والأطفال ليقول فى عربية متآكلة .. أهلا وسهلا فى برلين.. والسماء مازالت ملتحفة باللون الداكن الأقرب إلى الظلمة ، والطريق وعلى مدى الشوف يكتسى باللون الأبيض القطنى الزاهى حيث تتراكم الثلوج فى كل مكان.. والمداخن الألمانية التقليدية العالية فى أطراف المدينة تنفث دخانها الكثيف الذى سرعان مايلتحق بالسحب الداكنة المنخفضة والتى تكاد تحتضن المدينه وغابات الصنوبر العملاقة على جانبى الطريق تذكرك بأشباح الغابة المتحركة فى ماكبث مسرحية شكسبير الخالد أو بملايين الجنود الروس والألمان الذين وقفوا وجها لوجه ولمدة ثلاثة شهور فى معركة برلين فى الحرب العالمية الثانية.. والساعة تقترب من التاسعة صباحا ولكن النهار لم يستطع أن يفرض وجوده بعد.

والهر هوفمان يقطع حديثه مع السائق فجأة ليلتفت إلى الخلف

- : انتبه ياسيد فتاح.. لقد تركنا الأن حى جريناو والذى كان مدينة مستقلة بذاتها منذ سنوات ولكنه الآن أصبح حيا من أحياء برلين.. ثم ينطلق فى جدية تامة ليعطى معلومات تفصيلية عن الحى وتاريخه .. ويصمت فترة ثم يعاود التفاته إلى الخلف.

- : انتبه ياسيد فتاح.. نحن الآن فى تريبتو الحى الشهير الذى دارت فيه ولمدة شهرين المعركة الفاصلة بين الجيش الأحمر الذى حرر ألمانيا وبين القوات النازية البربرية.. و.. وهذه هى محطة «أوست بانهنوف» الشهيرة وهى المعبر الوحيد لكل القطارات الأوروبية نحو الشرق، وقد دمرت تماما فى الحرب ولكننا أعدنا بناءها.. و.. وعندما توقفت العربة فى النهاية أمام إحدى العمارات العالية وسط المدينة قال الهرهوفمان

- : انتبه ياسيد فتاح.. لقد وصلنا الآن إلى المنزل الذى ستسكن فيه مع أسرتك..

ولقد ظل ابنى عمرو ولفترة طويلة يطلق على الهرهوفمان «السيد أنتبه» من كثرة استخدامه للكلمة فى ذلك الصباح ولاحظت بعد ذلك أن الكلمات الألمانية مثل «انتبه» «خدبالك» و«حاسب» تتكرر كثيرا فى الأحاديث الأمر الذى قادنى بعد ذلك إلى التعرف على أحد الملامح العريضة للشخصية الألمانية ، الحرص الشديد والدقة المتناهية فى كل شىء فى العمل فى الشارع فى الاجازة وفى أماكن اللهو.. كل شىء محسوب ومبرمج ومنظم.. ويحتاج الانتباه.

كانت الشقة التى تقع فى شارع «هولز ماركت» فى عمارة حديثة ترتفع عشرين دورا، وفى كل دور ثمان شقق تقع فى وسط المدينة وعلى مقربة من «الكسندر بلاتز» أكبر وأشهر ميادين برلين .. ومع ذلك فلم نلتق فيها سوى بحارس المنزل «البواب» الذى جلس فى مكتب أنيق فى المدخل وحيا بابتسامة محايدة مع إزاحة القبعة قليلا إلى الوراء.. ثم سكون مطبق وكأنك تدخل مغارة منعزلة فى بطن جبل عالٍ وليس إلى عمارة من عشرين طابقا وتحتوى على ١٦٠ شقة ويسكنها حوالى أربع مائة إنسان.

والواقع إن هذا الإحساس لم يتولد فقط من العمارة الخالية ، بل إن الشوارع الواسعة والممتدة والعمارات الشاهقة وسط المدينة تكاد تكون خالية إلا من نفر قليل تائه على أرصفتها العريضة أو بعض العربات المارقة بسرعة.. وهو إحساس يصيبك بصدمة هادئة ملؤها الوحشة والرهبة ، ويعمق الشعور بالغربة ويمثل تناقضا حادا مع ماتعودنا عليه فى القاهرة.

لقد كان الهدوء والصمت الذى يلف كل شىء يعمق إحساسا داخليا غامضا بدائيا يكاد يدفعنى لأن أصرخ بأعلى صوتى ، على الأقل لألقى بحجر فى هذا الصمت الراكد.. وربما لاحظ الهرهوفمان مايموج على وجهى وهو الذى عمل لأربع سنوات ملحقا صحفيا فى إحدى البلاد العربية . وقال بنفس الطريقة الجادة وكأنه يشرح نظرية اقتصادية مهمة:

- العمارة تبدو خالية، فالجميع ذهبوا إلى العمل ، والأولاد فى المدارس، والأطفال فى الحضانة، ثم انفرجت شفتاه عن ابتسامة موناليزية غير مفهومة.

وأدرت المفتاح فى باب الشقة رقم ٨ فى الدور التاسع.. ودخلت من ورائى الأولاد والهرهوفمان والسائق ، كل يحمل فى يده شيئا من المتاع المحدود الذى جئت به من القاهرة..

برلين..

برلين . أورشليم الجديدة ، هنا صلب المسيح مرتين عندما انطلقت شرارة حربين عالميتين مدمرتين..

ومن هنا ، ومن هنا فقط، يمكن أن تندلع شرارة حرب عالمية ثالثة.. وهنا، من برلين ، تخرج صيحات السلام على الجانبين ، وأمامى وعلى مرمى البصر صورة كبيرة بعرض الشارع لامرأة تحمل طفلها وترفع يدها فى وجه القنابل والطائرات المدمرة صارخة «كفاية».

وعلى مرمى البصر أيضا ذلك السور الأبيض الممتد فى تعرجات أحيانا غير مفهومة لتقسيم المدينة إلى شرقية وغربية ومع السور ومحاذيا له يمضى نهر شبراى الصغير الذى دخل التاريخ من أوسع أبوابه، ليس لأنه نهر عظيم أو كبير مثل النيل والمسيسبى والراين والدانوب، فهو أصغر منها جميعا ولايكاد طوله يمتد لأكثر من ٥٠ كيلو مترا، يبدأ من أطراف برلين الجنوبية وينتهى عند أطرافها الشمالية.. ولكن شبراى الصغير أصبح يمثل للعالم كله خط الأمان. المنطقة المحرمة التى تفصل ليس فقط بين حدود برلين الغربية والشرقية، وليس فقط بين دولتين بل يمثل الحد الفاصل بين نظامين عالميين وخلفهما أكبر حلفين عسكريين، الأطلنطى على جانب ووارسو على الجانب الأخر والويل للعالم كله لو حاول أحد الطرفين أن يعبر النهر الصغير إلى الضفة الأخرى.

فمنذ انتهاء الحرب العالمية الثانية، شهد العالم الكثير من الأزمات الساخنة والحادة والتدخلات العسكرية والمعارك الحربية ، ولكنها كلها تجرى خارج أوروبا وبالتحديد بعيدا عن منطقة الحساسية الكبرى..

فلقد كان ومازالت هناك معارك وحروب الشرق الأوسط والشرق الأقصى وأمريكا اللاتينية وإفريقيا وآسيا بل وحتى فى انجلترا نفسها وفى ايرلندا الشمالية ، ولكن كل هذه الحروب الساخنة والباردة محكومة ومحددة مثلما يعبر العسكريون والمخططون الاستراتيجيون.

ولكن العالم كله يكتم أنفاسه ولديه كل الحق إذا بدت بوادر أزمة حتى ولو صغيرة فى برلين، هنا يكون خطر الحرب ماثلا بالفعل حيث يتلامس ويتواجه الحلفان العسكريان على ضفاف شبراى وعلى امتداد الحدود بين ألمانيا الديموقراطية وألمانيا الاتحادية ولقد حدث ذلك مرتين..

مرة عندما قرر ستالين فى أواخر الأربعينيات فرض الحصار على برلين الغربية وأعلنت الدول الغربية رفضها لهذا القرار.

ومرة أخرى فى أوائل الستينيات حينما قررت ألمانيا الديموقراطية أن تقيم سورا حول حدودها مع برلين الغربية.

ويومها كانت هناك مخاطر حقيقية لاندلاع حرب عالمية ثالثة..

برلين، برلين.. سرة العالم كله ، قاتلة الأنبياء وباعثة رسل السلام.. برلين التى أبدع لها بتهوفن موسيقاه الخالدة وفاجنر وشتراوس وهايدن قمم الموسيقى العالمية. برلين التى احتضنت الأعمال الخالدة لجوته وشيللر وعشرات المبدعين من الكتاب والفنانين الألمان.

برلين التى بشر فيها ماركس وانجلز بالاشتراكية ومن قبلهما هيجل بالجدليه. وصرخ فى ميادينها هتلر وجوبلز بالنازية..

برلين التى تسببت فى مقتل ثلاثين مليونا من البشر فى أقل من ثلاثين عاما على يد

فردريش ويلهام أو غليوم امبراطور ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى أو على يد أودولف هتلر فى الحرب العالمية الثانية.

وهى التى قدمت للعالم أيضا قمما فى الفن والثقافة والأدب والموسيقى.. المدينة المقسمة ذات الألف وجه..

إنها تحمل الآن وجهين فقط ، وجه يتجه إلى الاشتراكية شرقا ووجه يتجه إلى الرأسمالية غربا.. يفصلهما أصغر وأخطر نهر فى العالم.. ولكن كم من الوجوه الأخرى تحمل برلين؟!

كان الأولاد قد ناموا بعد ساعات من العبث والاستطلاع الطفولى فى أرجاء الشقة الجديدة، أستلقى الأصغر على بساط الصالة بينما تكور الأكبر على سريره الصغير بعد أن كان الاجهاد قد نال منهما بعد أكثر من ٢٤ ساعة دون نوم. أما الهرهوفمان فقد قضى معى بضع الوقت يشرح لى بعض التفاصيل عن سير العمل بالنسبة لى كمراسل، ولم أكن حقيقة فى وضع أو ظرف يعيننى على الاستيعاب . كل مافهمته أن هذه الشقة ستكون بمثابة سكن ومكتب، وأن اتصالى سيكون بإدارة الصحافة الأجنبية فى وزارة الخارجية ثم قائمة بالمواعيد ابتداء من الغد للالتقاء بالمسئولين عن «مركز الصحافة الأجنبى» الخاص بالمراسلين الأجانب وحديث أخر عن الأولاد وكيفية التحاقهم بالمدارس ثم حديث طويل عن علاقات الصداقة التقليدية التى تجمع بين الشعب المصرى وشعب ألمانيا الديموقراطية وخاصة وأن مصر كانت أول دولة خارج المعسكر الاشتراكى تقيم علاقات مع ألمانيا الديموقراطية.

وتمنيات بالنجاح فى عملى الجديد كمراسل لجريدة الجمهورية القاهرية فى صالح البلدين والشعبين..

وعندما ودعته على الباب التفت إلىّ قائلا فى تحذير

– انتبه ياهر فتاح.. إن العمل اليومى يبدأ عندنا من السابعة صباحا

وجلست وحدى فى الشقة ، أحاول أن أستعيد نفسى وانتقل ببصرى وقدمى من الصالة إلى غرفة المكتب إلى غرفة النوم وغرفة الأولاد والمطبخ والحمام ، ثم حجرة الكرار أو المخزن؛ الأثاث بسيط ولكنه عملى ووظائفى.

وقمت باعداد فنجال من القهوة ، وتمنيت لو استطعت أن أشرب هذا الفنجال بالذات فى بالكون شقتى فى العجوزة.. ولكن الشقة الألمانية خالية من هذا الترف الشرقى وحتى لو كان هناك بالكون ، فمن العبث أن يخترق الإنسان هذا الزجاج الكثيف الذى تترامى خلفه مدينة داكنة غارقة فى الثلوج، ندف الثلج المتساقطة تستهوينى وتشدنى بعض الشىء ، وأسفل على إمتداد الشارع العريض المتجه إلى ميدان «الكسندر بلاتز» تمضى العربات والناس وسط أكوام الجليد المتراكم ، ولم ينس الهرهوفمان أن ينبهنى أن الشتاء هذا العام جاء قاسيا لم تشهده ألمانيا منذ أكثر من عشرين عاما وأن درجة الحرارة تصل إلى ٢٠ تحت الصفر.. لقد تركت

القاهرة ودرجة الحرارة تصل إلى قرابة العشرين درجة ، فوق الصفر طبعا ، أى أننى عبرت فى الساعات الخمس من القاهرة إلى برلين أكثر من ٤٠ درجة ، وإذا كان الجسد قادرا على تحمل هذه الساونا المكثفة بمزيد من الملابس الصوفية ، فهل يستطيع العقل نفسه أن يتكيف ، وكيف يتكيف وعلى أية صورة..

إن الخروج من باب الشقة المكيفة إلى الخارج يعنى أيضا عبور ٤٠ درجة مئوية ولكن الحياة تمضى فى حركة دائبة فى الشارع وفى الميدان القريب ولاتستطيع أن تقطع إذا كنت مازلت فى النهار أم أن الليل قد قدم فالأضواء الكهربائية تغرق الشوارع فى فيض من النور المثلج..

ومع ذلك فقد شدنى عاشقان أو زوجان جلسا على مقعد أسفل العمارة يتبادلان الحب والقبلات ويشعان دفئا محسوسا فى هذا الفضاء المثلج..

هل هناك علاقة حقا بين الجغرافيا والبشر، إن كثيرا من المفكرين الإوروبين ركزوا فى السنوات الأخيرة على ذلك العامل، والغالبية منهم بالغت فى أهميته حتى جعلوا منه ربما العامل الرئيسى للتفرقة بين شعب وشعب وبالتالى بين الشعوب الأوروبية وشعوب العالم الثالث، فالبيئة والجو والمناخ لم يلعبوا دورا فقط فى تلوين الشعوب إلى أبيض وأسمر وأسود، بل لعبوا دورا كذلك فى تكييف عقلية وعادات هذه الشعوب.

ورغم أننى كنت أتحفظ دائما على هذه الأفكار وخاصة الجانب العنصرى الخطير والمتخفى وراءها، إلا إنه لابد للإنسان وأن يعترف بأن للجغرافيا بمعناها البيئى والمناخى دورا ولاشك فى صياغة شخصية كل شعب..

ولقد كان أمرا طبيعيا أن تبدأ الرحلة الحضارية للإنسان من مصر فجغرافيتها كانت مهيأة للإنسان الأول بأن يتطور ويخلق ويبدع ، شمس مشرقة طول العام ومناخ ملائم للحياة والعمل ليلا ونهارا وأرض منبسطة ونهر كبير يجري وسطها.. ولقد كان من الطبيعى أن يظل تاريخ الحضارة البشرية وحتى خمسمائة عام فقط متركزا فى منطقة البحر المتوسط ، فالظروف الجغرافية الأوروبية ، الجو والثلوج المتراكمة أغلب العام، والطبيعة الجبلية كل ذلك فرض على الإنسان الأوروبى أن يمكث طويلا فى كهوفه وملاجئه لقرون طويلة وذلك قبل أن يخرج إلى هذه الطبيعة القاسية ليتحداها ويصارعها. لقد انعكس ذلك حتى فى الأساطير والملاحم فسنوحى البحار المصرى القديم الذى ركب البحار بحثا عن العلم والمعرفة وعاد إلى أحضان النيل يتغنى بانسيابه ووداعته والخضرة والسماء التى ينشرها على ضفافه كذلك أوزوريس البطل الأسطورى المصرى الذى علم شعب مصر كيف يبذر البذور ويرعاها ويرويها حتى تصير أشجارا يافعة، وكيف يشق الترع والقنوات ويرفع مياهها لتروى الحقول العطشى ..

إن أوزوريس وسنوحى النموذجين المجسدين لصورة البطل فى التراث المصرى يختلفان بشكل حاد مع سيجفريد البطل الجرمانى الأسطورى الذى تنحصر قدراته فى قوته الجسمانية

الهائلة التى استطاع بها أن يواجه الطبيعة القاسية والتنين ذى الألف ذراع.. ولاشك أن اكتشاف الفحم يمثل فى واقع الأمر الطاقة التى دفعت الحضارة الأوروبية للخروج من جيتو الطبيعة القاسية المفروضة عليها.. وتصورت حياة الإنسان فى برلين بدون طاقة وحرارة وتكييف مثلما كان الحال فى عصور مضت .. وأحسست برعدة داخلية؛ منذ خمسمائة عام فقط خرج رجال الثلوج والغابات الصنوبرية بحثا عن الشواطىء الدافئة ، بعد أن تمرسوا على صراع طويل مرير مع الطبيعة القاسية.

وكانت البداية مع الانجليز فى أقصى الشمال ثم الفرنسيين ثم الروس والألمان.. وتوارت شيئا فشيئا حضارات الشرق الأوسط وسيادته المطلقة لأكثر من سبعة آلاف عام من تاريخ البشرية .. هل يمكن أن تكون الجغرافيا هى صانعة التاريخ؟!

وأين دور الإنسان نفسه..

ووجدتنى استرجع فى ذهنى ماكتبه آرنولد توينبى وتشايلدز وكارل ماركس وجوته ونيتشه وغيرهم عن التاريخ.

وقطع ياسر طفلى الصغير ، تلك الجولة الطويلة التى امتزج فيها الحاضر بالماضى وتاه فيها الزمان والمكان ، بصرخة مفاجئة..

وجريت إليه استطلع الأمر.. وأشار الصغير إلى الشارع قائلا فى ذعر

- الحق يا بابا.. فيه مظاهرات ، والعساكر زمانها جاية وهتضرب نار..

ونظرت إلى الشارع ، كان ممتلئا بالفعل بحركة دائبة على الجانبين بعضها يتجه إلى محطة المترو القريبة والبعض الأخر يخرج منها، والشارع نفسه يموج بالعربات، والليل مازال مسيطرا.. ونظرت إلى الساعة، كانت حوالى السادسة صباحا..

وأخذت أتأمل تلك الحركة المكثفة التى دبت فجأة فى المدينة وأحالتها إلى خلية نحل حقيقية ، إنها ساعة الذهاب إلى العمل والمترو والأتوبيسات تقذف بالآلاف وتلتهم الآلاف على ضوء المصابيح الكهربائية ، فأول شعاع لضوء النهار لايبدأ إلا بعد التاسعة صباحا..

وعاد ياسر يتكلم فى ذعر عن المظاهرات والعساكر واحتضنته مهدئا ومحاولا أن أشرح له أنها ليست مظاهرات وليس هناك عساكر ستأتى لتضربهم بالبنادق..

ولكنهم ذاهبون إلى عملهم لأن الشمس تتأخر هنا فى الظهور..

وأخذته إلى سريره محاولا أن أبعد به عن ذلك المنظر الذى رآه منذ ثلاث سنوات حين كان عائدا من الحضانة عندما فتح البوليس النيران على مظاهرة طلابية كانت تطالب بالخبز والحرية..

ومن يومها حفر هذا الحادث فى ذهنه الصغير..

ولم ينساه حتى الآن.

- ٣ -

أفتح نوافذى، لتهب علىّ الرياح من كل جانب وأستنشقها ، ولكنها أبدا لم تستطع أن تقتلع جذورى

المهاتما غاندى

إبريل سنة ١٩٧٦

فرق كبير أن تزور أوروبا لمدة أسبوع أو أسبوعين أو حتى شهر للعمل أو السياحة ، وبين أن تعيش وتعايش المجتمع نفسه وأنت تقيم داخله .. إن الفرق بين الأثنين لايقل عن كونك تجلس فى الصالة تتفرج على مسرحية ، وبين أن تكون أنت شخصيا تلعب دورا فى هذه المسرحية ولقد أدركت بعد فترة الخطأ الفادح الذى وقع فيه كثيرون ممن زاروا أوروبا زيارات عابرة وعاشوا على السطح وعادوا ينقلون إلينا انطباعات خاطئة وأحيانا متناقضة تماما مع الواقع الحقيقى، إن أغلبهم يزورون العواصم وبتحديد أكثر يزورون سره المدينة أو «السنتر» ويقيمون فى الفنادق العالمية ويختلطون بمن يسمح لهم بمخالطتهم أو بمن يفترض طبيعة عملهم أن يلتقوا به.

والعواصم ومراكز المدن الكبرى والفنادق ، وحتى المسارح ودور اللهو لها طبيعتها الكوزموبوليتانية المتكررة المتشابهة فى غالبية البلدان...

كذلك فرق كبير أن تذهب إلى بلد أوروبى للدراسة أو العمل فتبحث عن مجموعات الأجانب أو بنى وطنك لتعايشهم طوال فترة الدراسة أو العمل ولتعيش ، مثلما يفعل كثيرون، فى جيتو شبه عائلى أو قبلى داخل المجتمع الأوروبى.. وبين أن تذهب إلى تلك البلد وفى أعماقك رغبة داخلية فاوستية واستعداد فطرى لأن تعيش المجتمع الذى وفدت عليه وتعاشره وتجرى حوارا حقيقيا مع الشعب الذى يستضيفك فى محاولة منك لفهمه ليس فقط فى الصورة التى تراه عليها، بل وتتمثل تاريخه وتراثه الثقافى والحضارى والفكرى..

ولعل ذلك كان أحد الأسباب المفسرة، لظاهرة عانينا ومازلنا نعانيها كثيرا ، ممن يعودون إلينا من الخارج وخاصة فى أوروبا وأمريكا بعد غربة دامت بعض السنوات.. بعضهم جاء مفتونا مبهورا وأكاد أقول منسحقا أمام مظاهر الحضارة والتقدم والتى رأها، وبعضهم عاد كارها معاديا لتلك المجتمعات على طول الخط ولاسلوبها فى الحياة متهما إياها بالانحلال والضياع..

وكلاهما سواء من جاءوا مبهورين مسحوقين ، أو من جاءوا كارهين معادين لم يعايشوا هذه المجتمعات معايشة حقيقية بل اكتفوا بالحياة على السطح والحكم على المظاهر وقضوا أغلب وقتهم في الغربة في حارات مسدودة أو جيتو عائلي وعادوا وكأنك يا أبو زيد ماغزيت غير قابلين للتفاعل مثل العامل المساعد في الكيمياء ، أو ذابت معادنهم وأيضا معالمهم تماما في مظاهر المجتمعات التي تواجدوا فيها.. دون محاولة منهم للوصول إلى الأعماق .. ولعلي في هذا لا أستثنى طوال تاريخنا الحديث ، ممن مروا بتجربة التعايش مع المجتمعات الأوروبية سوى حفنة معدودة محدودة ، بشرت بالجديد المستحدث دون أن تفقد أصالتها ومعدنها المصرى وأثرت الحياة العلمية والفكرية كما أزالت الكثير والكثير من التراكمات العتيقة والبالية حول التراث..

رجال من أمثال رفاعة رافع الطهطاوى وطه حسين.. ومحمد مندور ولويس عوض حملوا لواء التجديد والتنوير بعد عودتهم دون انسحاق أوافتتان ، وبشروا بالحرية وحب العمل والوطن دون تعصب أو كراهية للمجتمعات التى عاشوها واحبوها.. لقد تمكن الشيخان طه والطهطاوى من الوصول إلى الجوهر والتعايش والتفاعل معه دون انبهار يؤدى إلى الانسحاق.. ودون عداء بدائى نابع من عقدة النقص ويعمق انفصام الشخصية ويرى فى الحرية انحلالا وفى التقدم وتقديس العمل مادية ممقوتة ويرفع رايات التخلف الرثة تحت دعاوى عنصرية أو قبلية أحيانا باسم التراث وأحيانا باسم الدين.. والتراث والدين منهم برىء.

ومن حسن الحظ أو سوئه أننى استوعبت هذا الدرس جيدا ومنذ سنوات طويلة قبل مجيئى إلى ألمانيا ، وكان ذلك فى أوائل الستينات فى أول قفزة لى عبر المتوسط فى روما ، عندما ذهبت لأشارك فى مؤتمر ثقافى لدول البحر الأبيض المتوسط ، وفى أول يوم ركبت مترو الأنفاق للذهاب إلى المؤتمر، وجدت نفسى فى عربة نصف ممتلئة وأمامى فتى وفتاة عاشقان أو صديقان أو زوجان وقد جلسا فى وضع غرامى حار متعانقين ومتلاصقين يمارسان الحب، وأحسست لحظتها بالدم يجرى فى عروقى ثم بالعرق يتصبب والخجل ينتابنى وأنا أرى ذلك علنا ولأول مرة وحاولت أن أغمض عينى لكى لا أرى ، والركاب كل مهموم بأمره لا أحد يتدخل ولا أحد يلتفت هذا يقرأ فى كتاب وتلك تنظر عبر النافذة وأمرأة بدينة تنهر طفلها الصغير الشقى..

وقفزت من العربة فى أول محطة توقف فيها المترو..

ووقفت على المحطة الخالية تماما أحاول أن ألملم نفسى عندما زلزلها مارأيت، وأحاول أن أقنع نفسى أيضا بأن ذلك أمر طبيعى وأننى فى أوروبا وليش فى مصر حيث الحب مباح مستباح كالماء والهواء..

وفجأة أقبلت فتاة جميلة جذابة أو هكذا خيل لى ، وظلت تمر بجانبى جيئة وذهابا فى انتظار المترو، وتشجعت وابتسمت لها فابتسمت ثم أخذت أغازلها وأطرى جمالها بالانجليزية

التى بدأ أنها تفهمها بالقطع وزادت ابتسامتها، ثم تجرأت وأمسكت بيدها، فسحبت يدها من يدى فى رقة ، قلت فى نفسى. إن من الواضح أن الحب مباح مستباح هنا فلأمارسه ولامانع من الجرأة والاقتحام . ووثبت نحوها فجأة وأمسكت بذراعها وحاولت أن أقبلها، فتخلصت منى بسرعة ولطمتنى لطمة لن أنساها وهى تسب وتلعن وترطن بالايطالية التى لاأفهمها. وذهبت إلى المؤتمر ولطمة الفتاة قد تحولت وتفاعلت فى داخلى إلى رفض حاد للمرأة الأوروبية وحكم عليها بالانحلال والعنصرية ومعاداة الأجانب، لقد كان لابد أن أبحث عن تفسير يريحنى على الأقل..

ونسيت الأمر كله وغرقت فى المؤتمر الذى استمر أربعة أيام ولكنى لاحظت أن فتاة كانت تحاول دائما أن تقترب منى وتسألنى عن بلدى وتطرى إعجابها بالشعب المصرى وحضارته العريقة ، بينما كنت أنا أحاول دائما البعد عنها وعن غيرها متخذا موقف التعالى والتسامى ومخفيا فى الأعماق جرح الإهانة الذى تلقيته من فتاة أوروبية متعصبة!! بالرغم من إعجابى بالفتاة وخاصة بعد مداخلاتها الذكية فى المناقشات التى كانت تجرى فى المؤتمر..

وانطلاقتها وبساطتها فى التعامل مع الجميع ، وابتعادها عن استخدام سلاح الأنثى مع الرجال رغم جمالها وفتنتها الجذابة دون رتوش.

وعندما ألقيت كلمة باسم المثقفين المصريين ، جاءت تشد على يدى وتطرى الأفكار الجديدة والجريئة التى عبرت عنها.

وفي اليوم الأخير للمؤتمر وبعد انتهاء الجلسات جرت نحوى تدعونى للعشاء معا، ولم تترك لى فرصة للرفض، ومرت علىّ فى الفندق مساء وأخذتنى إلى مطعم جميل فى فيللابورحيزى وهى منطقة ساحرة وسط روما تتخللها الغابات والبحيرات وكان موسيلليني يخطط لأن تكون أجمل منطقة فى العالم.

وسهرنا ليلتها حتي الصباح نسمع الموسيقى ، ونرقص ونتناقش فى الثقافة والفكر والسياسة والفن.. والحب.

وكانت مفاجأة عندما اكتشفت أنها نفس الفتاة التى لطمتنى فى محطة المترو منذ أيام.. وأحسست أننى أمام وردة حلوة متفتحة مبهجة لاتغريك بأن تقطفها بل تدفعك لأن تحميها وترويها لتظل هكذا تبعث الأمل والدفء والحياة..

قالت وهى تودعنى ، لاتنس أن أية شرارة يمكن أن تنطفىء وتصبح بقعة سوداء بغيضة ويمكن أيضا أن تتحول إلى شعلة لاتنطفىء لو استطعنا أن نحميها ونغذيها بالهواء النقى.. وتعلمت من إيفا ابنة الطليان، الدرس الأول فى التعرف على المجتمعات الأوروبية.

***

وانطلقت بنا العربة الفولجا مرة أخرى خارج برلين بعد وصولى إلى العاصمة الألمانية بأقل

من أسبوعين، .. وفى المقدمة سائق بدين مرح لايكف عن إلقاء النكت والتعليقات الساخرة باللغة الألمانية مع رجاء فى كل مرة للمرافقة التى تجلس بجانبى فى المقعد الخلفى بأن تقوم بالترجمة..

كانت المهمة رحلة لمدة عشرة أيام فى ربوع ألمانيا الديموقراطية، تقررت منذ اليوم الأول للقائى مع مسئول الصحافة الأجنبية فى وزارة الخارجية الألمانية حين أخذ يشرح لى ظروف العمل التى تحكم المراسلين الأجانب ووسيلة الاتصال بمصادر المعلومات والأخبار وحاجتى إلى مترجمة أثناء حضورى المؤتمرات الصحفية لجهلى التام باللغة الألمانية، وقطعت عليه الحديث قائلا:

– قبل الدخول في كل هذه التفصيلات الضرورية وقبل أن أمارس عملى ، فإننى أطمع فى جولة لمدة أسبوع أو أسبوعين استكشف فيها بلادكم الجميلة..

ورحب الرجل بالفكرة بل واعتبرها لمحة جديدة من مراسل أجنبى يريد التعرف على ميدان المعركة قبل أن يبدأ الإطلاق على حد قوله..

وهكذا انطلق ثلاثتنا صباح ذلك اليوم.. السائق البدين المرح والمرافقة الشقراء ذات الملامح الجرمانية الصارمة وأنا على طريق الأوتوستوراد . وجلست فى استرخاء أتأمل على الجانبيين غابات الصنوبر العملاقة التى يكسوها الجليد وأشعة شمس الشتاء الباهتة من خلف زجاج العربة المكيفة تنمى لدى إحساسا بالخدر الممتع، وفى بعض الأحيان أضطر أن أضحك، مجاملة لتعليقات أو نكت السائق، أو أختلس بعض النظرات إلى وجه المرافقة التى لاتنفرج شفتاها الجميلتان إلا على ابتسامة باهتة مع إصرار على ارتداء مسوح الجد وربما التعالى رغم انفراج الساقين الجميلين وبروز النهدين الناهدين.. وانقلاب الشفة السفلى بشكل جذاب ومثير.

وكانت محطتنا الأولى مدينة درسدن على بعد ١٧٠ كيلو مترا فى الجنوب من برلين. ووصلنا المدينة بعد ساعتين وعلى الفور أخرجت المرافقة ورقة فى يدها وأخذت تتلو علىّ برنامج الزيارة كما لو كانت جنراله تلقى بأوامرها إلى الجندى المسكين المتبقى من الفرقة.

– من العاشرة صباحا حتى الثانية عشره والنصف زيارة متحف الجاليرى
– الثانية عشرة والنصف حتى الثانية غذاء فى مطعم جاليرى
– من الثانية حتى الخامسة زيارة لمنطقة باستاى والقلعة خارج المدينة
– من الخامسة حتى السابعة عودة إلى المدينة وزيارة الكنيسة المهدمة وبعض معالم المدينة
– فى السابعة عشاء فى فندق انتر أوتيل «نيفيا»
– فى التاسعة النوم فى الفندق..
– الاستيقاظ فى السابعة صباح الغد، تناول الفطور فى الفندق، ثم السفر إلى مدينة ليبزج..

ثم تعطفت والتفتت إلىّ قائلة فى لهجة آمرة ناهرة

- هر فتاح .. هل لديك ملاحظات ..

وقبل أن أنطق بكلمة مضت تقول بنفس اللهجة الحاسمة..

- إذن فلنبدأ بزيارة الجاليرى..

وتحملت ، فقد كنت حتى الآن مقدرا لجمالها الشامخ بأنفه وليس لدى رغبة فى بدء معركة ونحن فى اليوم الأول لجولتنا الممتدة ، كما أن زيارة الجاليرى كانت رغبة أصيلة لدى ، فهو واحد من أهم ثلاثة متاحف فى العالم هى اللوفر فى باريس والأرميتاج فى لينجراد، ويضم مجموعة نادرة وتاريخية للأساتذة الرسامين الكلاسيكيين ابتداء من ليونارد دافنشى ورفائيل ورميرانت وروبنز حتى سلفادور دالى وبوكاسو، وعندما كانت الطائرات الأمريكية تدك مدينة درسدن فى نهاية الحرب العالمية الثانية عبرت الملايين فى جميع أنحاء العالم عن إدانتها لهذا الهجوم الذى لم يكن له ما يبرره وخاصة أن ألمانيا النازية كانت قد استسلمت بالفعل وخوفا من تعرض الجاليرى لأية مخاطر باعتباره تراثا فنيا للإنسانية كلها..

ومن الطبيعى أن الجالبرى يحتاج إلى أيام وأسابيع لكى يستطيع الإنسان أن يتذوق ويستوعب مئات اللوحات الشهيرة التى يحفل بها.. ولكن لابأس من أخذ جولة سريعة مختصرة فى ساعتين .. وتوقفت بشكل خاص أمام بعض لوحات رامبرانت وروبنز اللذين استكملا رحلة الفن التشكيلى والرسم بشكل خاص فى التحرر من الأجواء الكنسية والخروج إلى الحياة الطبيعية والإنسان ، تلك الرحلة التى بدأت مع رسامى عصر النهضة العظام رفائيل ودافنشى..

وطوال الجولة لم تكف المرافقة عن إعطاء بعض المعلومات عن بعض اللوحات وبعض الفنانين وبالرغم من أننى كنت أعرف عن المتحف ورساميه وتاريخه أكثر بكثير مما قالته إلا أننى لم أشأ أن أحطم لديها الدور الذى تقمصته ومارسته دور المدرسة أو الأستاذة وهى تلقى بدروسها على تلميذ من دول العالم الثالث الغلبان..

وأخذنا ننفذ البرنامج المرسوم وفى المواعيد المحددة بدقة متناهية ، ووقفنا أمام الكنيسة الفرنسية وبعض المبانى التاريخية التى دكتها الطائرات الأمريكية فى غارتها البربرية وغير المبررة على المدينة والتى تركتها السلطات على نفس حالتها كنوع من الذكرى والتذكر بهذا العمل المشين..

وذهبنا إلى مرتفعات وقلعة باستاى ذات الطبيعة الساحرة الخلابة وكم كان مثيرا أن تنظر من فوق قمة هذه المرتفعات الجبلية العالية والتى ترتفع فى شكل مخروطى حاد كالمآذن لترى نهر الالبه يتلوى أسفل الوادى ويبدو كثعبان متعرج من هذا العلو الشاهق.. وذهبنا إلى الأحياء الجديدة والقديمة بما فى ذلك الصناعات التى اشتهرت بها المدينة، وعلى العشاء لم

تتوان المرافقة عن سرد المعلومات والاحصاءات عن التطور الذى جرى فى الثلاثين عاما الماضية، وحل مشاكل الإسكان والصحة والتعليم ، وكأنما تتلو علىّ التراتيل الدينية قبل النوم..

ثم وقفت فجأة بعد انتهاء العشاء وقالت بنفس اللهجة الآمرة.

– والآن ياهر فتاح انتهى برنامج اليوم ، وعليك أن تذهب إلى غرفتك لتنام فأمامنا صباح الغد برنامج حافل

قلت لها متلطفا ومتجنبا أية محاولة للصدام

– فراوباربارا.. تستطعين أن تذهبى إلى غرفتك ، ولكنى سأبقى هنا بعض الوقت فليس لى رغبة فى النوم.

ونظرت لى كتلميذ خرج عن الصف

– ماذا ستفعل إذن

قلت فى هدوء

– سأخرج الى الشارع وأتمشى قليلا..

قالت فى انزعاج شديد

– وحدك..

– نعم وحدى تماما.. حتى السائق لا أريده..

قلت ذلك وأنا أؤكد الكلمات الأخيرة ، ويبدو أنها فوجئت بموقفى أو بعنادى فهزت كتفها وتحدثت إلى السائق بالألمانية ثم قالت لى وهى تمضى إلى غرفتها.

– سنلتقى هنا فى السابعة فى صباح الغد.. طبت مساء..

وخرجت من الفندق إلى الشارع البارد الذى تكسوه الثلوج .. الساعة لم تتجاوز التاسعة مساء، والشوارع خالية تماما إلامن نفر قليل على الجانبين بالرغم من أن الفندق الذى أقمنا به يقع فى وسط المدينة، وأسرعت بخطواتى بعض الشىء بحثا عن الدفء وتلمسا لمكان أجلس فيه بعيدا عن هذا البرد الذى يصل إلى العظام.. وعند إحدى المنحيات سمعت موسيقى واتجهت على الفور ناحية المرقص.. ودخلت..

المراقص فى ألمانيا وأوروبا بشكل عام تختلف تماما ، شكلا ومضمونا عما نسميه عندنا بالمراقص أو الكباريهات ، فالمراقص هنا شكل من أشكال الساحات الشعبية أو مثلما يطلق عليها البعض الرياضة المسائية ، يذهب إليها الجميع فى عطلة نهاية الأسبوع أو فى بعض الليالى مثلما يبحث الإنسان منا عن مقهى أو كافيتيريا على النيل ، بل لعل الكثيرين مواظبون على زيارة المراقص أكثر من زيارة الكنائس فهى تراث شعبى متأصل عندهم، يذهب إليها الرجال والنساء من مختلف الأعمار من العشرينيات حتى السبعينيات ، ومن مختلف

الطبقات والفئات من أستاذ الجامعة حتى البائعة وعاملة النظافة . ولاتدهش بعد ذلك عندما تقرأ فى خطط التنمية الثقافية فى تلك البلدان فترى برامج للتوسع فى بناء مسارح ومكتبات ودور عرض ومراقص جديدة.. أى أن المراقص ينظر إليها باعتبارها مراكز للتنمية الثقافية والفنية تماما مثل المسارح والمكتبات، وجلست إلى ركن فى البار وأخذت أتأمل على أضواء المرقص الخافتة الرواد من الرجال والنساء المنتشرين حول المناضد بعضهم يجلس وحيدا والبعض الأخر فى ثنائيات أو رباعيات من الجنسين ، وحينما تبدأ الجولة الموسيقية تدب حركة تنقلات بين المقاعد .. الرجل يتقدم من السيدة وينحنى فى أدب ، وتنهض الفتاة معه، وسرعان ماامتلأت ساحة الرقص «البست» بالثنائيات الراقصة أحيانا على أنغام التانجو الهادىء وأحيانا على أنغام الفالس الحالم وكثيرا على أنغام الجاز السريعة المرحة.. وتنتهى الجولة الموسيقية ويسارع الرجال إلى اصطحاب السيدات إلى مقاعدهن ويمسك الرجل ، بالمقعد من الخلف حتى تجلس السيدة ثم ينحنى مرة أخرى وفى أدب شديد وينسحب إلى مقعده.

طقوس غريبة يحوطها جو من الاحترام والتبجيل، تدفعك على الفور لأن تعود بالرقص والموسيقى إلى جذورها الأصيلة عند قدماء المصريين والأغريق عندما نشأت هذه الفنون العظيمة فى أحضان المعابد تعبيرا عن تقديس الإنسان للحياة وخالقها.

ومرت فى ذهنى مفارقات ومقارنات بين هذه الممارسة الإنسانية الفنية للرقص وبين تحول الرقص عندنا ومحاصرته فى خانة ضيقة وارتباطه بالابتذال والجنس... بالرغم من أن جداتنا من راقصات المعابد فى مصر القديمة كن يمارسن هذا الفن بما يستحقه من التقديس! ولا أحسب إلا أن المسؤولية عن تدنى نظرتنا للرقص إنما تعود إلى تراث عصر التخلف والانحطاط الثقافى والفكرى أيام المماليك والأتراك العثمانيين الذين قامت دولتهم وحضارتهم على السيف والقهر والقتل والغزو دون أى أبعاد انسانية أو حضارية أو فنية.. وفقدت الفنون عندهم أهدافها الإنسانية والثقافية، وتحول كل شىء إلى إشباع الغرائز البدائية للامتاع والترفيه.

وتركت المرقص فى ساعة متأخرة من الليل بعد أن مارست الرقص أكثر من مرة ومع أكثر من سيدة وتعرفت على طبيب وصديقته وتبادلنا العناوين.

وفى الصباح كانت «الفولجا » تنطلق بنا مرة أخرى الى ليبزج.. كنت متعبا بالطبع فلم أنم سوى ساعات قليلة، وعقدت العزم على أن أعوض ذلك بالنوم فى العربة ولابد وأن باربارا المرافقة قد أدركت ذلك، فكثيرا ماكانت تلهينى بنظراتها الحادة وملامح التساؤل الساخر على شفتيها.. أين قضيت الليلة..

ولكنها بالطبع لم تسل، ولم أكن من ناحيتى متحمسا أو مهتما لأن أحكى، وأشاحت عنى وأنشغلت مع السائق فى حديث بالألمانية أحسست أننى موضوعه.. وبعد ساعتين من النوم

المتقطع داخل العربة الدافئة وصلنا إلى ليبزج ، أو باريس الصغيرة كما أطلق عليها شاعر ألمانيا العملاق ولفجانج فون جوته.

وليبزج هى واحدة من أعرق المدن الأوروبية على الإطلاق ، وعرفت بمدينة الطباعة عندما اكتشف وطور أحد الألمان فى بداية عصر النهضة آلة بسيطة للطباعة كانت تمثل فى ذلك الوقت انقلابا بل ثورة جديدة فى عالم الكتب. والمطبوعات وكانت بمقاييس العصر أكثر خطورة من ثورة التكنولوجيا والأقمار الصناعية فى مجال الاعلام المعاصر.

ويقولون إن الحضارة الأوروبية الحديثة قامت على اختراعين أو قدمين أساسيين هما الطباعة والبارود الذى كان بمثابة القدر القادر الذى ألحق العاجز بالقادر فالطباعة حققت للحضارة والفكر الأوروبى الانتشار الواسع والبندقية مكنت لهذا الفكر من السيادة والسيطرة.

وعلى مر القرون تحولت ليبزج إلى أكبر مركز صناعى وثقافى فى أوروبا وبدأ فيها أول معرض عالمى للاختراعات والاكتشافات الجديدة فى جميع الميادين منذ أكثر من ٢٠٠ عام وأطلق عليها اسم مدينة المعارض ومازالت تحتفظ بهذا اللقب حتى الأن إذ يقام فيها معرضان عالميان كبيران أحدهما فى الربيع والأخر فى الخريف.

وكان أودلف هتلر يعتبر أن هناك جوهرتان تزينان عرش الرايخ الثالث الذى أنشأه وهما ڤينا وليبزج..

ولقد تعرضت ليبزج بالطبع مثل الكثير من المدن الألمانية لغارات مكثفة من جانب الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية دمرت جانبا مهما من المدينة ولكنها ولحسن الحظ لم تدمر المدينة كلها أو الجانب الأكبر منها مثلما حدث فى برلين ، بل بقى جزء مهم من المدينة القديمة التاريخية بما فى ذلك مبنى البلدية والسوق القديم والمكتبة القديمة التى تعتبر واحدة من أعرق المكتبات العالمية وأهمها من زاوية الوثائق والمخطوطات التاريخية. وحالما دخلت العربة كردون المدينة بدأت باربارا تفرد أوراقها لتتلو علىّ البرنامج الدقيق والمحدد بالساعة والدقيقة لتفاصيل الزيارة.

الساعة العاشرة وحتى الثانية عشرة زيارة لأرض المعارض

الساعة الثانية عشرة والنصف عذاء فى فندق استوريا – الخ.

قلت لها بعد أن انتهت من تلاوتها المباركة الآمرة

– سيدتى العظيمة ، إننى لست فى زيارة سياحية أو زيارة عابرة ، لقد جئت إلى هنا لأقيم ولسنوات كمراسل صحفى، وسآتى ولاشك إلى ليبزج والمدن الأخرى عشرات المرات أثناء إقامتى وهناك فرصة لأرى كل شىء ولكننى أريد هذه المرة أن أرى الناس وأعايشهم.

ولا أدرى هل كانت أنجليزيتى مفهومة أم مضغومة، أم أن صوتى جاء عاليا وحادا أم أن تفاعلات الإحساس بالقهر والتسلط قد انعكست فى نبرتى وألفاظى.

فقد اكتسى وجهها الجامد ولأول مرة بتموجات عنيفة ومتلاحقة وخلعت النظارة تمسحها فى ارتباك وبدا وجهها بسيطا جذابا ، ولكنها سرعان ما استردت قناعها التقليدى والتفتت إلى فى حدة وتحد قائلة.

- ماذا تعنى هر فتاح

- أعنى أن لدى بعض الأصدقاء هنا فى جامعة ليبزج وحبذا لو استطعت أن ألتقى بهم. قالت وقد تصاعدت لديها نبرة التحدى

- ولكن البرنامج حافل ولايسمح

قلت فى انفلاتة تلقائية

- ليس هناك لكن.. والبرنامج ليس أمرا مقدسا.. لقد وضع لى وأنا أملك تغييره ، لايمكن أن أكون فى ليبزج ولا أرى الأستاذ الدكتور لوثر راتمان والأستاذ الدكتور آرمين بيبرنر..

قالت فى اندهاش أدهشتنى أنا شخصيا.

- هل تعرف حقا بروفسور راتمان ، إنه مدير الجامعه..!!

وكانت نظرتها والطريقة التى ألقت بها الكلمات تعنى باللغة غير المنطوقة

.. أنَّا لك أيها الصحفى الوافد من إحدى بلدان العالم الثالث أن تعرف استاذا ألمانيا كبيرا كهذا.. ولكنها وازاء الإصرار الذى لمسته فى كلماتى أعطت أوامرها للسائق بالتوجه إلى مبنى الجامعة ذلك المبنى الحديث الذى يتكون من حوالى ثلاثين دورا وصمم على صورة كتاب مفتوح بعد أن تهدمت المبانى القديمة للجامعة التاريخية أثناء الحرب.

ولقد كانت مفاجأة لى حقا ان أعرف أن بروفسور راتمان قد أصبح مدير أقدم وأكبر جامعة فى المانيا بل ومن أقدم الجامعات الاوروبية ومن حسن الحظ أننا وجدنا بروفسور راتمان ومن حسن حظى المضاعف أن الرجل لم ينسانى، وبالرغم من مشاغله العديدة وزيارتنا المفاجئة فقد استقبلنى فى ترحاب بالغ فى مكتبه وأصر على أن نلتقى سويا على الغذاء فى مطعم الجامعة..

وبروفسور لوثر راتمان واحد من ألمع المثقفين الألمان المهتمين بالشرق الأوسط وبمصر بشكل خاص وله أبحاث ودراسات منشورة عن التاريخ المصرى الحديث والقديم ولاينافسه فى ذلك سوى تلميذه وصديقه بروفسور بيبرنر ، وكلاهما زار مصر فى الستينيات والسبعينيات زيارات متعددة وعملا فى الجامعات المصرية (القاهرة وعين شمس) كأساتذة زائرين أقاما أثناءها علاقات وطيدة مع عدد من المثقفين والأساتذة المصريين منهم الدكتور محمد أنيس والدكتور رؤوف عباس والأستاذ لطفى الخولى وعدد أخر من أساتذة الجامعات المصرية.. وقد التقيت وتعرفت بهما أثناء هذه الزيارات وأدهشنى المامهما الواسع والدقيق بتطورات الحركة الثقافية والفكرية فى مصر والعالم العربى، وكان للبروفيسور راتمان دور خاص فى تشجيعى على

مواصلة الدراسات التى كنت قد بدأتها حول القرية المصرية مؤكدا أن ذلك يسد فراغا فى المكتبة العربية حول هذا الموضوع..

وعلى الغداء فى مطعم الجامعة لحق بنا بروفسور بيرنر وجلسنا لأكثر من ساعة نتبادل الأحاديث بمزيج من الذكريات حول القاهرة المدينة ذات المذاق الخاص على جد تعبير راتمان وعن الأصدقاء والجامعة، عن تطورات الأوضاع فى مصر والشرق الأوسط، وعن أحدث الكتب والدراسات التى صدرت حول هذا الموضوع فى مصر وألمانيا.. وعن أخر زيارة لراتمان للقاهرة منذ سنتين حين التقينا فى فندق سميراميس وقدمت له فيها ورقة عن مشروع دراسة جديدة لى وعلق يومها .. إنها تصلح لأن تكون رسالة للدكتوراه.. واعتذارى لضيق الوقت..

وفوجئت بأن الأثنين قد قرآ كتابى الأخير «شيوعيرن وناصريون» الذى صدر فى القاهرة عن مؤسسة روزاليوسف منذ أقل من شهرين ، والذى كان يحكى تجربة اعتقالى فى أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات..

وعندما تصافحنا وودعنا.. قال بروفسور راتمان وهو يشد على يدى بقوة

- .. والآن ليس هناك عذر بضيق الوقت ، إننى فى انتظارك فى الأسابيع القادمة لدراسة مشروع الدكتوراه..

كانت باربارا أثناء لقاء المطعم قد أنزوت فى ركن من المائدة تراقب الموقف والحديث وقد وجدت نفسها بلا دور لأول مرة منذ التقينا ، فالأصدقاء الذين ألتقيت بهم يتحدثون الانجليزية بل وأحيانا ماكنا نتحدث بالعربية التى يفهمانها جيدا وهكذا وجدت نفسها ليس فقط مبعدة عن الحوار بل وغريبة فى أحيان كثيرة..

ولقد ظلت صامتة أغلب الوقت بعد ذلك أثناء زيارتنا للمكتبة التاريخية فى ليبزج وخاصة قسم الوثائق الذى يضم مجموعة نادرة من المخطوطات العربية لأبى بكر الرازى وابن رشد وابن سينا والفارابى ثم فى زيارتنا لمبنى المحكمة العليا واستماعنا إلى التسجيل الصوتى الحى للمحاكمة التاريخية التى جرت فى هذه القاعة سنة ١٩٣٣ للزعيم البلغارى ديمتروف واتهامه من قبل النظام النازى بالاشتراك فى حرق الريشستاج الألمانى (البرلمان) وهى المؤامرة التى دبرتها العصابة النازية الحاكمة بزعامة هتلر للتخلص من الشيوعيين والاشتراكيين والحوار العاصف الذى جرى بين ديمتروف وجورنج وجوبلز الأقطاب النازيين فى ذلك الوقت، كنا فى الزيارتين الأخيرتين مشحونا بطاقة من المرح والحيوية ، أقدم التعليقات وأحيانا التفسيرات وبإحساس خفى بالسعادة والتحرر ، بينما اكتفت بربارا بالتأمل والاستماع ..

وحينما أخذت أشرح بفخر واعتزاز وإسهاب ونحن فى طريق عودتنا للفندق عن أثر الثقافة العربية على النهضة الأوروبية الحديثة كما هو واضح فى قسم الوثائق فى مكتبة ليبزج قالت باربارا فى نبرة خافتة

– يبدو أن هذا صحيح..

التقينا على العشاء فى مطعم فندق استوريا ولاحظت أن باربارا قد ارتدت فستان سهرة أبرز مفاتن جسدها الرائع كما لاحظت ولأول مرة مسحة خفيفة من «الميك أب» والرتوش حول العينين وعلى الشفتين.. مع ابتسامة حقيقية لايشوبها الاصطناع والسخرية والتعالى..

قالت فى صوت بدا لى غريبا لعذوبته البالغة

– أنت كاتب، إذن ، هل لديك مؤلفات مترجمة إلى الألمانية

– ليس بعد ، لماذا لاتتعلمين العربية..

وضحكت ، وضحكت وامتدت ضحكاتنا وبصوت عال تلفت أنظار القريبين لنا فى المطعم، ورأيت عيناها وهى تضحك من الأعماق تلمع ببريق حلو دافىء ويشعان البهجة والسعادة والانطلاق ، وأحسست بسقوط الأقنعة والأسوار التى كانت تفصلنى عنها ، إنها بالتأكيد ليست بربارا التى التقيت بها منذ يومين بنظراتها الحادة المتعالية وبوجهها الذى يكتسى مسوح الجدية، حينما قالت لى يومها فى نبرة محتجة وكأنى ارتكبت إثما لايغتفر.. لماذا لم تتعلم الألمانية؟!

وانطلق الحوار بيننا فجأة بركانا متفجرا منطلقا معوضا أياما طويلة من الكبت والتحفظ والتحفز من الجانبين.

حدثتها عن القاهرة المدينة ذات الألف وجه من الزمالك وبولاق والحسين والسيدة زينب والمعادى وهليوبوليس ، الوجه المعاصر والوجه التاريخى ، الوجه الارستقراطى والوجه الشعبى عن النيل والشمس وزهور البرتقال والفل والمشمش والشوارع الممتلئة بالناس حتى منتصف الليل وحدثتنى عن حياتها بعد التخرج من جامعة ليبزج حيث تخصصت فى دراسة الانجليزية وعملها كمترجمة وصحفية بعض الوقت ، وعلاقتها بأحد الشبان أثناء دراستها أثمرت عن ابنة صغيرة تعيش معها .

واقترحت بربارا أن نسهر فى الحانة القديمة التى كان يتردد عليها جوته وشيللر أشهر كتاب ألمانيا فى القرنين الثامن والتاسع عشر وحكت لى كيف أن جوته شرب بكثرة ذات يوم ولم يكن معه نقود كافية فترك معطفه عند صاحب الحانة كرهينة لسداد ديونه وهناك لوحة تسجل هذا الحدث التاريخى عند مدخل الحانة وورقة بخط جوته يعترف فيها بدينه..

وطوال السهرة كانت الحواجز والأسوار تنهد وتنهار الواحدة تلو الأخرى ، واكتشفت أن ما تصورته، عنصرية وتعالى من جانب بربارا لم يكن إلا أوهاما، ولعلها خاصة تميز بها الشعب الألمانى فى علاقته مع الأجانب ونتيجة لظروف تاريخية وجغرافية إنه يحمى نفسه فى البداية بسور من التحفظ والشك ، وحالما يتجلى الموقف وتظهر الحقيقة سرعان ماتكتشف الأبعاد الانسانية والحضارية العميقة له.. هكذا أكدت لى تجربتى مع بربارا..

لقد عاش الألمان وقرونا طويلة فى جيتو فى وسط أوروبا وعندما بدأوا ينفضون عن أنفسهم ثلوج وركام تخلف القرون الوسطى ، واكتشفوا أن شعوبا أوروبية أخرى كانت قد سبقتهم إلى ركوب البحار وارتياد آفاق جديدة وعوالم جديدة فى آسيا وأفريقيا وأمريكا.. كان الأنجليز والفرنسيون والأسبان بل وحتى الهولنديون قد خرجوا إلى الدنيا القديمة الدافئة بينما ظلوا هم محاصرون ومحصورون فى رقعتهم المحدودة.

ولعل الإحساس بأنهم جاءوا متأخرين ، كان الدافع وراء القفزات الكبيرة والملموسة لهم فى القرن التاسع عشر حين خرجت لهم قمم عقد لها اللواء فى مجالات الثقافة والفن والفلسفة والموسيقى والعلوم .. وأيضا الفنون العسكرية..

مثلما كان ذلك الدافع وراء حربين عالميتين..

وقضينا ليلة ممتعة فى أجواء الحانة التاريخية وحققنا عمليا الوحدة العضوية بين المجتمع الأوروبى الاشتراكى المتقدم وشعوب العالم الثالث النامى.

وأثبتنا معا انه من الممكن أن يجرى حوار شامل وخصب ومثمر بين الشمال والجنوب وأن الغرب والشرق يمكن أن يلتقيا على أرضية من المشاعر الإنسانية المشتركة وكان الصباح يحمل لنا مفاجأة مثيرة.

ستضاف الى اليوم الطويل وتنفجر البراعم فى
صمت. براعم الزهور أو النيران . لكن شيئا ما لابد
أن يزدهر لينمو ويكبر بيننا

بابلونيرودا - نهاية العالم

. ١٣ ابريل سنة ١٩٧٦

عدنا إلى برلين فى صباح ذلك اليوم دون استكمال الرحلة.. والسبب مكالمة تليفونية فى الصباح من إدارة الصحافة بوزارة الخارجية تقول إن هناك ضيفا مصريا كبيرا ينتظر الهرفتاح فى شقته فى برلين..

واسمحوا لى أن أعترف أننى صببت اللعنات على هذا الضيف الذى جاء فى هذا الوقت بالذات ليقطع على رحلة كنت قد هيأت نفسى لمعايشتها والاستمتاع بها ولمدة عشرة أيام أستكشف فيها هذه الدنيا الألمانية التى قرأت عنها وسمعت بها وبفنونها وأدابها وفلاسفتها ومحاربيها ولأجوب البلاد شرقا وغربا وشمالا وجنوبا..

وزادت لعناتى على الضيف خاصة بعد أن بدأت الأمور تجرى فى مسارات إنسانية حلوة مع مرافقتى الحسناء ، وبعد الليلة التى استطعنا أن نخلق جوا من التآلف والتفاهم.. واتجهت السيارة الفولجا جنوبا نحو برلين وبدلا من أن تتجه شمالا نحو مدينة ايرفورث التاريخية والتى تعتبر من أقدم المدن الألمانية على الإطلاق وتقع فى إقليم تورنجا الذى يطلقون عليه سويسرا الألمانية حيث استطاعت الطبيعة الخلابة بجبالها ووديانها وبحيراتها المتناثرة أن تخلق إنسانا على سجيتها ووفقا لمزاجها الطبيعى.

أجهضت مكالمة برلين الصباحية أحلامى فى قسوة ، وأحسب أن الأمر كان كذلك بالنسبة لبربارا التى حاولت ونحن فى طريق العودة جنوبا إلى برلين أن تخفف عن نفسها مرددة فى أبتسامة ودودة محملة برنة إحباط..

- لاشك أنه سيمكنك أن تواصل الجولة بعد الانتهاء من ضيفك المصرى...

- وأنت معى أيضا...

- لا أحد يستطيع أن يضمن ذلك ، فربما اختاروا لك مرافقة أخرى..!!

الله يخرب بيتك.. مين .. قبارى عبد الله...

أى رياح دفعت بك إلى هنا، ولماذا لم تخبرنى من قبل ببرقية أو بالتليفون..

كان مجرد رؤيتى لقبارى فى المنزل بعد عودتى إلى برلين كافيا لأن يبهجنى ويسعدنى حتى إنى نسيت تماما ثورتى وانفعالى على هذا الضيف الذى تصورته ثقيلا وغير مرغوب فيه.. وجلست أستمع إلى أحاديثه التلقائية المتصلة كموجات إرسال موسيقى عاصف لاينقطع لأكثر من ساعتين..

لقد كان فى زيارة مع وفد برلمانى مصرى لأثينا فانتهز الفرصة ليخطف رجلة إلى برلين التى لم يرها من قبل بعد أن أصبح له «عزوة وبيت هناك»..

.. ولعل ذلك كان دائما مفتاح شخصيتة إخلاص وتفانى على أرضية انسانية حبيبة.. كانت ضحكاته العالية وكلماته الخضراء كفيلة بأن تنسينى أننا فى برلين وتنقلنى إلى حى معروف وقصر النيل وخالتى المباركة (أم سيد) التى كانت تسكن فوق الغرفة التى يستأجرها قبارى فى حارة معروف وتتحفنا أحيانا بالفتة اللذيذة بالثوم وبمواسير العظم وماتحتويه من «أكسير الحياة» مثلما يصفها قبارى...

كانت السنوات الماضية قد قاربت مابيننا كثيرا منذ أن التقيت به فى أواخر الستينيات شاب مرح خفيف الدم، يمتلك شفافية وذكاء فطريا لم يستكمل تعليمه فسافر إلى إيطاليا وعاش فيها ثلاثة أعوام عمل كهربائيا فى إحدى الشركات وتفتح على الحياة السياسية والفكرية فى روما وميلانو واشترك فى مظاهرات وإضرابات العمال ثم عاد إلى مصر ولديه حلم بسيط فى أن يتحقق على أرضها ديموقراطية وعدالة حقيقية أو كما يقول دائما.. نفسى أغمض وأفتح وألاقى فى مصر ناس تقول آه من قلبها وناس تقول لأ من قلبها، وكل واحد صغير وكبير يبقى حاسس أن دى بلده وملكه .. مش مهم بعد كده الكلام الكبير عن الرأسمالية والاشتراكية..

وحينما جاء فى يوم فى كافيتريا فندق الكونتيننتال فى أوائل السبعينيات حيث كنت ألتقى أنا وأحمد طه وعدد من الأصدقاء مساء كل أربعاء ليقول إنه قرر نزول معركة انتخابات مجلس الشعب. ضحك الجميع باعتبارها نكتة ساخرة..

وكان رده عاصفا ساخرا مرحا وهو يقول:

«يخرب بيتك أنت وهو.. مش عاجبكم.. اشمعنى أحمد طه»..

ولكننى صدقته وشجعته وشاركته المعركة القاسية التى كان ينافس فيها بعضا من كبار محترفى الانتخابات وبعضا من كبار حملة الأسماء والمراتب .. كان تحفظى الوحيد هو اختياره لدائرة قصر النيل، وهى دائرة كانت تضم فى ذلك الوقت، الزمالك وجاردن سيتى ووسط البلد. على أساس أنها دائرة ارستقراطية لايمكن أن يشدهم عامل مثقف يرفع شعارت الاشتراكية والديموقراطية ويومها أخذنى فى جولة فى الزمالك، وتوقف بى فى شارع البرازيل

قائلا:

انظر فى هذه القصور والفيلات والعمارات الفخمة، فى كل فيلا منها يسكن رجل وزوجته وأبن أو أبنة من البهوات والباشوات وغالبيتهم لايذهبون إلى الانتخابات لأنهم ليسوا مهمومين ، ومشاكلهم محلولة فى كل العصور والأزمان ولكن فى كل فيلا ستجد عشرة من الآخرين ، رجالى... البواب والجناينى وسائق العربة والطباخ والسفرجى.. وكل هؤلاء رجالى بتوعى لأنهم مهمومون مثلى..

واكتسح قبارى الانتخابات فى أول جولة وبدون إعادة .. وتحول هو الأخر ، مثل أحمد طه فى الساحل وشبرا ، إلى أمل حقيقى يلتف حوله العاملون والمجهدون والمتعبون يتبنى همومهم وطموحاتهم ويثيرها فى البرلمان ويسعى لحل مشاكلهم الصغيرة والكبيرة ، ويقيم معهم فى حارة ضيقة فى غرفة فى الدور الثانى فى بيت تطلع سلالمه بدون مسند .. أو حاجز.. ولا أحسب أنه وطوال السنوات المنفلتة من السبعينيات قد مر أسبوع دون أن ألتقى أنا وهو وأحمد طه وكلاهما كان له صوت مسموع فى البرلمان نناقش قضايا وهموم الشعب والبلد ونخرج باقتراحات بعضها كان يتحول إلى استجوابات أو أسئلة فى البرلمان وبعضها كان يتحول إلى ندوات ولقاءات جماهيرية وبعضها كان يخرج فى شكل مقالات أو دراسات اكتبها أو يكتبها أحدهما..

وأصبحت جلساتنا فى الآتيليه أو فى ناشيونال وأحيانا فى كارلتون شبه ندوات اسبوعية لاتشغل نفسها بشقشقة الكلام والتخريجات التى شغف بها المثقفون بقدر ماهى مهمومة بالمشاريع والخطوات العملية التى تعكس مصالح الناس وحياتهم..

ولقد كنت و سأظل سعيدا وفخورا بأننى وجدت نفسى مع أثنين يعتبران بكل المعايير، أكثر وجهين جماهيريين لليسار المصرى، كسبا ثقة الجماهير بشكل أفسد على السلطة والمعادين كل المحاولات وأحيانا المؤامرات ضدهما..

ومن الطبيعى أيضا أننا كنا مهمومين بالتطورات الغريبة والمفاجئة التى كانت تجرى فى ذلك الوقت وخاصة بعد سياسة الانفتاح والتقارب مع أمريكا..

وأذكر أننا لاحظنا فى بعض جلساتنا أننا مراقبون ، فقد كان هناك دائما من يتعمد أن يجلس فى مكان قريب موجها آذانه لالتقاط أحاديثنا وكان الأمر مثيرا وفجا فى نفس الوقت.. وذات يوم صحبنى قبارى إلى ممدوح سالم وزير الداخلية فى ذلك الوقت والذى كان متعاطفا معه من الناحية الشخصية ويطلق عليه «بربرى البرلمان» وذلك لخفة دمه ودماثة خلقه. وقال له قبارى يومها..

- سيدى الوزير .. من حقك أن تراقبنا وتسجل لنا ماشئت فهذا عملك حتى ولو كنا أعضاء فى البرلمان وكتابا..

وكل ما أرجوه أن تستخدم الوسائل الحديثة فى عملك بدلا من الاعتماد على المخبرين اللذجين وسحنتهم الغبراء لأنهم يفسدون علينا جلساتنا.

ويومها ضحك ممدوح سالم قائلا له:

« حاضر ياربرى ، قلت لك مرارا ابعد عن اليساريين.. مالك ومالهم..

والواقع إن قبارى كان يحب ممدوح سالم ويصفه بأنه وطنى مخلص ونظيف ويؤكد أنه على خلاف مع السادات فى توجيهات سياسية كثيرة وربما كان ذلك السبب فى أن البعض من المثقفين اليساريين الذين تنحصر الثورة عندهم فى كلمات ودردشات وتعبيرات يطلقونها فى جلساتهم على المقاهى» «الثورية» وأشاعوا عن قبارى فى فترة أنه عميل «السلطة» بل إن بعضهم جاء يوما ليحذرنى منه عندما قررنا أن نصدر أول جريدة مستقلة خارج إطار الاتحاد الاشتراكى فى ذلك الوقت فى محاولة لكشف الخطوط التى كانت تتكامل فى منتصف السبعينيات لتقذف بمصر مرة أخرى فى أحضان التبعية الاقتصادية والسياسية وقلت يومها لهذا الصديق الثورى للغاية والذى كان هو نفسه ضالعا مع السلطة فى أواخر الستينيات..

– ربنا يخليك ويخلى أمثالك حتى تجهزوا تماما على اليسار فى مصر..!!

***

– أهلا بك ياقبارى فى برلين..

– اسمع ياسيدى لا أهلا ولاسهلا ، أنا جاى يومين ومسافر مصر للهم والمشاكل ، قوم بنا فسحنى وفرجنى على البلد ونسائها الجميلات..

ولقد سمعت أن أكمل وأنضج نساء فى العالم هن الألمانيات..

وفي المساء اصطحبته إلى أحد المراقص المعروفة فى برلين حيث كشف لى عن جانب فى شخصيته لم أكن اكتشفته من قبل، فقد كان راقصا ماهرا ويملك إحساسا موسيقيا مرهفا إلى الدرجة التى جعلته وبعد جولتين من الرقص والموسيقى يفرض نفسه كسيد حقيقى للمكان حتى إن إحدى الفتيات جاءت إلى المنضدة التى يجلس عليها وانحنت أمامه قائلة فى لغة انجليزية مهترئة

– هل يسمح لى السيد سدنى بواتيه بشرف هذه الرقصة

وقال لها وهو ينهض وفى صوت عال وبالعربية.

– أنا اسمى قبارى عبد الله يامدموازيل.. ومن مصر.. تعرفى مصر وبولاق ومعروف وشبرا وأحمد طه وخالتى امباركه ..

وانفجر فى ضحكته العالية المعروفة.. كان قبارى بسمرته النوبية وشفاه الغليظة المقلوبة يشبه إلى حد كبير، وخاصة فى أضواء المراقص الخافتة، الممثل الأمريكى الزنجى سدنى بواتيه، وقد حكى لى كثيرا عن بعض الحوادث وأحيانا الكوارث التى كادت أن تحدث له فى إيطاليا

من جراء ذلك.. ولذلك كان يحرص دائما على أن يعلن هويته من البداية حتى لاتتعقد الأمور وخاصة وقد عرفت منه أن فتاة ايطالية فى ميلانو مهووسة وممسوسة بشخصية بواتيه رفعت فى وجهه المسدس ذات ليلة طالبة منه أن يذهب معها وإلا أطلقت عليه وعلى نفسها الرصاص..

وحينما نسأله.. هيه وعملت ايه ياقبارى؟

يرد فى كلمات متموجه غارقة فى الضحك

- طبعا .. أطلقت علىّ الرصاص..

وأخذت أتأمله وهو يرقص فى البست مشاركا وأحيانا قابعا على الكرسى وهو يتمايل ويدق بقدميه ويرفع يديه فى رقصات فيها مزيج من الرقص العربى والغربى والافريقى متصايحا وبالعربية من الحين والآخر بكلمات تحيا مصر.. تنتخبوا مين.. أحمد طه.. أو مرددا الأغنية الحبيبة إلى قلبه «قالوا البياض أحلى ولا السمار أحلى» يعلو بها أحيانا على صوت الموسيقى ورفيقته فى الرقص لاتفهم ولكنها بالتأكيد فى حالة من السعادة والنشوى لهذا الراقص الأسمر الغريب القادم من أعماق الصعيد وأنا فى كل الأحوال غارق فى الضحك الى درجة عدم القدرة على التقاط الأنفاس..

إلى هذا الحد يمتلك البعض جاذبية خاصة يجعله قريبا من قلوب الناس، وقد كان الكاريزم الذى يحيط بشخصية قبارى نابعا من خط أصيل فى شخصيته يتركز فى ثلاث كلمات .. البساطة والتلقائية والصدق..

وعند الثانية صباحا، وبعد أكثر من أربع ساعات جلجلت فيها رقصاته وضحكاته ومناغشاته فى الصالة كلها التفت إلىّ قائلا..

- كفاية كده النهارده .. ياللا بنا نروح..

وخرجنا إلى الشارع المثلج بعد أن أحكمنا المعاطف والبيريهات وحاولت أن أطلب تاكسيا ولكنه أصر على أن نذهب سيرا على الأقدام ، فالجو جميل منعش .. وقد كان الجو بالفعل جميلا ومنعشا بدرجة اثنين تحت الصفر..

وغرق فى صمت لفترة وهو يتأمل الشارع العريض الذى تحيط به أشجار الزيزفون من الجانبين وسألنى عن اسم الشارع:

- شارع انتردن لندن

- يعنى ايه ؟!

- يعنى شارع تحت ظلال الزيزفون..

وانفجر صارخا..

- ولاد الايه .. سرقوا الاسم من المنفلوطى.. !!

وعاد يقهر البرد ويملأ الصمت بضحكته المجلجلة الراعدة والمتموجة.. ثم عاد إلى صمته المتأمل مرة أخرى والتفت إلىّ فجأة قائلا..

- السادات لغى المعاهدة امبارح

- بتقول ايه..

- بقولك السادات لغى معاهدة الصداقة المصرية السوفيتية امبارح

- ازاى

زى الناس يا أخى ، انتهز فرصة وجودى فى أثينا وذهب لمجلس الشعب ولغاها..

وعاد يضحك ولكنى نهرته وأوقفته بصوتى الذى كان فيما يبدو جادا ومأخوذا

- بتتكلم جد.. بلاش هزار..

- هزار ايه ياجدع انت .. والنعمة الشريفة حصل..

راح المجلس أمس وطلب التصويت على إلغاء المعاهدة والمجلس وافق.. بس مش بالاجماع زى ماكان عاوز.. فيه اثنين رفضوا .. أحمد طه وأبو سيف يوسف.

وتوقفت فى الشارع وأمسكت حزام معطفه وقد تملكنى الغيظ ليس لإلغاء المعاهدة بل للطريقة التى قال بها الخبر وانفجرت فيه.

- بقالنا يوم كامل مع بعض دشيت فيه فى كل حاجة .. وجاى آخر الليل تقولى على الخبر.!! وخلص حزام البالطو من يدى وقال ضاحكا.

- ماهو لو قلتلك الخبر ده من أول النهار ، كنت قلبتها غم وسياسة ووجع دماغ ومكناش جينا المرقص، انا قلت آخذ بحقى حلقا واستمتع ليلة ببرلين وبعدين يحلها حلال..

وعاودنا السير فى صمت وتحت ظلال الزيزفون وصوت أقدامنا تتردد فى ضربات ليست رتيبة فى الشارع الواسع والخالى إلا من نسمات البرد والمثلجة..

لم يكن إلغاء المعاهدة السوفيتية المصرية هو الذى أقلقنى ولكن الخبر المفاجىء كان تأكيدا للمسار الخطر والذى كان يتكامل خلال السنوات الماضيه.. فأيا كانت المآخذ على السياسة السوفيتية ، وقد كانت لى شخصيا تحفظات على بعضها ، إلا أن أى وطنى حقيقى لايمكنه إلا أن يعترف بأن العلاقات المصرية السوفيتية طوال العشرين سنة الماضية قد لعبت دورا كبيرا ليس فى حماية الاستقلال الوطنى وتأكيده فقط فى مواجهة المؤامرات الاسرائيلية والمدعومة من الولايات المتحدة ، بل والأهم من ذلك فى بناء قاعدة حقيقية لاقتصاد وطنى مستقل، ففى تلك الفترة وبمساعدة من السوفيت تم بناء السد العالى والذى أجمع الكل فى الشرق والغرب على أنه واحد من أخطر المشروعات الاستراتيجية التى انجزت فى القرن العشرين، كما تم مشروع كهربة الريف ومد الطاقة المحركة إلى أكثر من ٤٠٠٠ قرية مصرية ، بالإضافة الى بناء حوالى ٨٠٠ مصنع من بينها صناعات استراتيجية مهمة مثل الحديد والصلب وكيما ومجمع الألمونيوم..

وقد كان السادات نفسه هو الذى طلب وألح على السوفيت عقد معاهدة الصداقة بعد تخلصه من الجناح الناصرى المناوئ له فى السلطة فى مايو سنة ١٩٧١، وكان مجلس الشعب الذى وافق عليها بالإجماع فى ذلك الوقت هو نفسه الذى قرر الغاءها..

وقد كنت شخصيا غير متحمس لهذه المعاهدة، ربما لإحساسى بالظروف التى فرضتها، وربما لعدم الارتياح والحساسية التاريخية لكل مصرى من المعاهدات السابقة مع بريطانيا وغيرها رغم الاختلاف الواضح والمؤكد بين المعاهدة المصرية السوفيتية والمعاهدات المصرية البريطانية السابقة ولقد كتبت أيامها فى الجمهورية أقول إن العبرة بالعلاقات ليست فى الكلمات المكتوبة بل بالوعى الحقيقى بحجم وأهمية المصالح المشتركة والمتبادلة بين البلدين وتنميتها. ولذلك لم يكن ليشغلنى كثيرا إلغاء هذه الورقة مثلما لم يسعدنى كثيرا توقيعها، فلقد كانت العلاقات السوفيتية فى أوج ازدهارها فى الستينات وكانت هناك قوات وطائرات سوفيتية تحمى العمق المصرى دون أن يفكر أحد فى توقيع معاهدة صداقة..

بل إنه فى ظل المعاهدة وفى أعقابها مباشرة كان السادات يبنى من جديد علاقة خاصة بالولايات المتحدة ويضع السياسات والتوجيهات سواء فى السياسة الداخلية أو الخارجية التى تخدم هذا الغرض.. وفى ظل هذه المعاهدة قام السادات بطرد القوات السوفيتية التى جاءت بعد إلحاح مكثف من عبد الناصر والقيادة المصرية وبعد تمنع شديد وممتد من جانب السوفييت ولمدة شهور كانت أجواء مصر وأعماقها مكشوفة ومفتوحة للطيران الإسرائيلى يعبث بها ويخترقها كما يشاء ويشل الجهود الجبارة التى كانت تبذل لبناء حائط الصواريخ فى الضفة الغربية للقناة، ولقد سمعت من الدكتور مراد غالب نفسه والذى كان سفيرا لمصر فى موسكو، كيف عارضت القيادة السوفيتية بعناد الفكرة التى طرحها عبد الناصر بإرسال بعض القوات السوفيتية لحماية العمق المصرى الذى كانت تنتهكه طائرات الفانتوم الأمريكية يوميا وقد وصل عبد الناصر نتيجة هذه المعارضة إلى درجة من التوتر والانفعال حتى أنه قال له فى موسكو والله العظيم لو فضلوا على رفضهم لأطربقها على دماغهم .

وبعد شهور من المباحثات المكثفة الصعبة جمع برجنيف اللجنة المركزية للحزب السوفيتى للتصويت على هذا القرار الخطير الذى لم يكن يريد أن يتحمل وحدة مسئوليته.

ولكن كل هذا شئ، والغاؤها فى ذلك الوقت بالذات شئ آخر.. لقد كان تأكيدا نهائيا على أن المخاوف والتوجسات التى راودت القطاعات الوطنية ازاء التوجهات السياسية للسادات قد أصبحت حقيقة واقعة وأنه يمضى فى طريق بلا رجعة.

وكان يعنى أن السادات قد اختار وبشكل نهائى أن يضع كل البيض فى السلة الامريكية..

وفى الصباح اصطحبت قبارى وهو نصف نائم يتخبط فى البالطو الواسع الذى أقرضته اياه لنشهد الاحتفال الشعبى والرسمى بعيد أول مايو..

كان الاحتفال قد خصص له ميدان فسيح ممتد فى «طريق كارل ماركس» وهو أعرض وأطول شارع فى برلين.. كما كان أول شارع جديد أقيم فى المدينة بعد دمارها الشامل فى نهاية الحرب العالمية الثانية..

اصطفت القيادات السياسية والحزبية مع عدد من الضيوف البارزين ومن خلفهم البعثات الدبلوماسية والصحفيون والمراسلون الأجانب فى منصة أقيمت على جانب الميدان..

ثم بدأت مئات الألوف من سكان برلين يمرون فى الشارع حاملين الأعلام وسط جو مرح من الموسيقى والأغانى، كان سكان كل حى فى المدينة يمضون فى جماعات، الرجال يحملون الاطفال على أكتافهم والنساء تضرب الدفوف أو تعزفن ويرقصن فى مجموعات والكل يغنى فى مرح وقد ارتدى الجميع ثيابهم الزاهية.. ومن الحين والآخر تصدح الاناشيد التى تتغنى بذكرى ذلك اليوم الخالد فى تاريخ البشرية..

مأساة العاملين الامريكيين اللذين اتهمتهما إدارة المصنع فى مدينة شيكاغو فى أواخر القرن التاسع عشر بالتخريب والتدمير، ويساند البوليس الإدارة، وقبض عليهما وعذبا ثم حكم عليهما بالإعدام، واعدما بالفعل على الكرسى الكهربائى.

ثم يصحو ضمير أحد المخبرين الذين اشتركوا فى المأساة، فيعترف بعد عدة سنوات بالحقيقة ويكشف أبعاد المؤامرة التى اشترك فيها صاحب المصنع الرأسمالى النصاب بالاشتراك مع البوليس.. وتبرأ ساحة العاملين.. ولكن بعد إعدامهما..

ويثور الرأى العام فى أمريكا وتخرج المظاهرات فى جميع أنحاء العالم تهتف بحياة العاملين أو الشهيدين الأمريكيين..

ويتقرر أن يكون أول مايو، وهو اليوم الذى جلسا فيه العاملان على الكرسى الكهربائى القاتل، هو عيد العمال فى كل مكان.. عيد المنتجين الحقيقيين الكادحين من أجل دفع التطور والتقدم.. عيد الانتصار على قوى القهر والاستغلال وأعداء البشر والحياة..

وهذه الجماهير المحتشدة الراقصة والصاخبه فى ذلك الموكب الشعبى الحافل والمزدهر بالحياة والأمل والموسيقى فى شارع برلين، وقبارى عبد الله وهو يخرج من صفوف المنصة ويلتحم مع تيار الجماهير وسط الشارع يرقص ويغنى معهم ويحمل طفلا ألمانيا على كتفه يراقصه ويداعبه..

وأسراب من الحمام الأبيض والأسود تنطلق بين الحين والأخر تظلل الشارع بأجنحتها المنطلقة إلى أعلى رمزا للسلام، والورود والزهور وهى تنتشر فى كل مكان..

وأهازيج الحب والدفء والسعادة والإحساس بقيمة الإنسان وهى تتبلور فى نغمة جماهيرية يعزف عليها مئات الألوف من سكان برلين..

وأعود بالذهن لأكثر من ٢٥ عاما للوراء، تضمنا فيه جامعة القاهرة فى سنين الدراسة

بكلية الآداب ومجموعة من الطلاب يحلمون بالغد ويعملون له، تقرر الاحتفال بعيد أول مايو والذى كان محرما الاحتفال به فى ذلك الوقت تحت دعوى أنه عيد شيوعى، رغم أن العالم كله وعلى رأسه الولايات المتحدة ودول غرب أوروبا كانت تحتفل.

ويقرر الفتى الجامعى ومعه عدد من الطلاب أن يشاركوا الآخرون فى هذا الاحتفال العالمى ونرفع شعار «وردة فى الجاكتة» يوم أول مايو.. وتنجح الدعوة، ويجئ أول مايو سنة ١٩٥٤ ويحضر مئات الطلاب إلى حرم الجامعة وقد ثبت كل منهم وردة حمراء أو بيضاء فى عروة الجاكت أو على القميص.. ثم نجتمع فى الحوش الواقع بين مبنى قسم اللغة الانجليزية فى كلية الأداب ومبنى مكتبة الجامعة.. ويقوم بعضنا بشرح أسباب هذا العيد وظروفه التاريخية ومغزاه المعاصر ثم ننشد كلنا نشيد العاملين الكادحين..

وينفض الاحتفال الصغير الذى أقمناه ونتفرق إلى الخارج، ولكن البوليس السياسى كان يقف لنا بالمرصاد على أبواب الجامعة وتلتقطنا أياديهم الخشنة التى كانت تمتد أول ماتمتد إلى الوردة الحمراء تنتزعها وتلقيها على الأرض ثم تدهسها بكعوب أقدامهم الحديدية، ثم يقذفون بنا فى البوكس لنقضى عدة ليالى فى تخشيبة الأقسام بتهمة «الاحتفال بعيد أول مايو الشيوعى» أتذكر هذا كله وأنا أرى أمامى تلك الحياة المتدفقة والملونة التى تموج أمامى احتفالا بهذا العيد الذى أصبح أيضا عيدا رسميا فى بلدى تشارك الدولة فيه وتتعطل فيه المدارس والمصانع..

وبين أول مايو سنة ١٩٥٤ فى فناء كلية الأداب فى جامعة القاهرة، وأول مايو سنة ١٩٧٦ فى شوارع برلين الراقصة..

بين المبيت ثلاث ليال فى تخشيبة قسم الدقى، وبين المنصة التى أقف عليها فى ذلك الميدان الواسع للعاصمة الألمانية..

بين الصفعات والركلات التى تلقيتها من الأحذية الميرى فى القسم فى تلك الليالى من أعداء الحياة والإنسان، والأغانى والتهانى وروح النشوة والسعادة التى تنطلق أمامى من فتيات كالزهور ومن رجال كالأحلام المشرقة ومثل قبارى عبد الله النموذج النقى للعامل والمثقف الوطنى..

عشرون عاما، كانت كلها بالنسبة لى على الأقل معارك متصلة متشابكة لم تهدأ حرارتها يوما.. شهدتها وعشتها وشاركت فيها فى بلدى ليس كمراقب من بعيد، بل كمشارك يحاول أن يلعب دورا فى دفع عجلة التقدم والازدهار.. أحيانا ينجح وأحيانا يفشل.. وهو الآن ولأول مرة فى حياته يعيش خارج بلده..

ترى إلى أى مدى سيصل هذا النفى الاختيارى..

وتدفقت بضع قطرات من الدموع الساكنة فى عينى..

تختلط فيها الفرحة بتيار من الحزن العميق والخوف من المجهول الذى هو آت..

والآن يرقدان عاجزين فى حفرة زمن جبان لم يبق
سوى وضع أجوف فقد تحولا إلى أكذوبة
فيليب لاركن - شاعر انجليزى معاصر

يوليو سنة ١٩٧٦

جوزيف بروز تيتو... فى بدلة الجنرال البحرى التى يعشقها والمطرزة والموشاة بالذهب وعشرات الميداليات تغطى صدره يقف وسط القاعة متأبطا عصا المارشاليه زاهيا بنفسه وبشعره المصبوغ ووجهه اللامع المكتنز متجاهلا ومتحديا ٧٥ عاما مؤكدا لكل من يقترب منه ودون أن يقول كلمة منطوقة .. أنه أنا ذلك الشاب الأسطورى الذى قاد المقاومة فى يوغوسلافيا ضد الاحتلال النازى الذى كان مسيطرا على أوروبا واستطاع أن يحرر بلده بنفسه دون مساندة من الجيش الأحمر..

ولذلك استطعت أن أواجه ستالين واتحداه حتى مات هو وبقيت أنا .. ملكا بين الزعماء الشيوعيين...

وأرنستو برلنجوير بقامته الطويلة ووجهه المسحوب وعيناه اللامعتان بالثقة الحزينة وابتسامته غير المكتملة يستمع إليك بجميع حواسه وكأنه قسيس على كرسى الاعتراف ، وحين يتكلم تنطلق مع لسانه حركات اليد والحواجب وكأنه ممثل فى المسرحيات الشعبية الايطالية «كوميديا دى لاتى» لايترك فرصة لأحد ليخطئ فى أنه هو الزعيم الوحيد بين كل الحاضرين الذى يرأس أكبر حزب شيوعى فى بلد رأسمالى، منتشيا بالنصر الذى حققه منذ شهرين فقط حينما حصل حزبه فى الانتخابات الإيطالية على نسبة ٣٥٪ من الأصوات وأصبح أكبر حزب فى إيطاليا بلا منازع..

وجورج مارشيه سكرتير الحزب الشيوعى الفرنسى والذى يتحرك فى كل مكان ويتبادل الانتخاب مع الزعماء الآخرين ومع الصحفيين مؤكدا للجميع أن تعبير الشيوعة الأوروبية «يروكومونيزم» ليس فيه خروج على الماركسيه. يفصل تحركاته وتنقلاته بين معسكر المتشددين ، ومعسكر الليبراليين مؤكدا أنه متعاطف مع على كما أنه ليس ضد معاوية...

وفيدل كاسترو وقد وقف وسط القاعة المكتظة .. عملاقا بارزا بجسده الفارع وذقنه الكثيفة وخصلات الشعر الأبيض التى بدأت تجتاح شعره ، وكأنه روبين هود وقد استقر بعد

حياة طويلة من المعاناة يشارك بأقل القليل فى الكلام النظرى، وتلمع عيناه ويرتفع حاجباه وترتسم موجات الانفعال على وجهه وهو يتكلم عن الأوضاع فى كوبا وأمريكا اللاتينية والأخ الأكبر الشرس الرابض فى الشمال ثم .. ليونيد برجينيف واقفا أحيانا ، وجالسا فى أحيان كثيرة غارقا فى رداء تكسوه عشرات النياشين ، جامد الوجه تائه النظرات يقف قليلا لتبادل النخب مع برلنجوير، ويجلس كثيرا إلى جوار تيتو ومن الحين والآخر يشعل له أحدهم سيجارة يدخنها فى شغف .. وقد تحك رأسك أحيانا وأنت تتأمله لتتساءل كيف أمكن لمثل هذا الرجل أن يصل إلى المكان الذى شغله يوما لينين وستالين وحتى خروشوف..!!

ثم إيريك هونيكر المضيف وصاحب البيت، مرحا منتشيا وهو يحى ضيوفه وتجلجل ضحكاته من الحين والآخر وفى أعماقه إحساس بالزهو وكأنه يقول للجميع.. أهلا بكم فى برلين الاشتراكية التى انتزعناها من أيدى الهتلرية وجعلنا منها عاصمة حلوة لأول بلد اشتراكى على الأراضى الألمانية ، وتحاول تحقيق معادلة لينين التى كتبها يوما.. اشتراكية + الشعب الألمانى= إنجاز مثالى.

وعشرات الزعماء والقادة والآخرون الذين احتشدوا فى حفل الاستقبال الختامى والذى أقيم فى القاعة الكبرى للقصر الجمهورى الجديد بعد اختتام أول مؤتمر للأحزاب الشيوعية والعمالية يعقد بعد عشر سنوات..

كان المؤتمر والذى استمر يومين أول وأكبر فرصة أتيحت لى أن أرى وأتأمل عن قرب هؤلاء الزعماء والقادة الذين توافدوا على برلين، وخاصة وقد سمح للصحفيين المعتمدين متابعة أعمال المؤتمر من خلال دائرة تليفزيونية مغلقة ، كما دعينا لحضور الجلسة الافتتاحية وكذلك الحفل الختامى..

وقد كان المؤتمر حدثا جديدا فى تاريخ الحركة الشيوعية ومختلفا عن كل المؤتمرات السابقة.. ولأول مرة يحضر مثل هذا المؤتمر شخصيات مثل تيتو الذى كان مبعدا ومبتعدا بعد أن طرده ستالين من الكومنفورم.

ولأول مرة تتعرض سياسة الاتحاد السوفيتى وبعض الدول الاشتراكية لهجوم شديد من جانب الأحزاب الشيوعية الأخرى، وخاصة أحزاب أوروبا الغربية فى إيطاليا وفرنسا وإسبانيا الذين خرجوا فى تلك الأيام بنظرية «الشيوعية الأوروبية» وهى التى تؤكد على أهمية الديموقراطية والعمل الديموقراطى فى النظرية وفى التطبيق الاشتراكى..

ولأول مرة تنشر هذه الخلافات على الملأ بعد أن كان هناك حرص شديد فى مثل هذه المؤتمرات أن تدور فى قاعات مغلقة ولايخرج عنها سوى بيانات مقتضبة

وقد تأكدت بنفسى من أن صحيفة «نيوزدوتشلاند» وهى الناطقة باسم الحزب الاشتراكى الألمانى الموحد وهو الحزب الحاكم فى ألمانيا الديموقراطية كانت تنشر تباعا النص الكامل للخطب التى ألقاها زعماء الأحزاب بلا استثناء.

وسمعت برلنجوير وهو يقول فى خطابه فى المؤتمر إن بعض التطبيقات فى بعض الدول الاشتراكية قد تجمدت عند مفاهيم نظرية قديمة لم تعد تواكب التطور وأن هذه السلبيات وخاصة فيما يتعلق بالديموقراطية تعزل فئات واسعة ممن لها مصلحة أساسية فى الاشتراكية بل وقد تجعل منها رصيدا للقوى المعادية للاشتراكية. ثم وهو يهاجم بعنف تدخل قوات حلف وارسو فى تشيكوسلوفاكيا فى صيف سنة ١٩٦٨ ويدافع عن تجربة دوبشيك الإصلاحية وربيع براغ الذى اغتالوه؛ وسمعت وقرأت خطاب سكرتير الحزب الشيوعى الإسبانى وهو يشن حملة نقد عنيف، اعتبرها البعض غير مسبوقة ، على البيروقراطية فى الدول الاشتراكية وحول مخاوفه من أن تغرق المكاسب المادية للإنسان فى المجتمعات الاشتراكية مع اختفاء روح النقد وتألية القيادات الحزبية الحاكمة والمساس ببعض حقوق الإنسان مثل حرية السفر والاختلاط..

وكان جورج مارشيه يحاول أن يركب جوادين فى وقت واحد فيهاجم الجمود المذهبى والدوجما مرة ثم يهاجم ما أسماه بالانفلات النظرى مرة أخرى يشير إلى التطورات الجديدة فى العلاقات الدولية وفى العلاقات الطبقية دون أن يدخل تحديدا فى تفسير مايعنى أو تطبيقه.. يتكلم عن الجديد الذى لابد من اكتشافه لمواجهة تحديات العصر ثم يعادل ذلك بضرورة التمسك بالنظرية الماركسية دون تحريف أو مراجعة . وقد كان فيما يبدو معبرا عن الوسط فى الصراع الدائر داخل الحزب الفرنسى بين الآرثوذكس والبروتستانت أو بين الجروند و اليعاقبه أو بين الجامدين والليبراليين ، ذلك الصراع الذى مازال دائرا حتى الآن وأدى إلى شبه الشلل فى الحركة وتراجع فى مواقع الحزب فى السنوات الأخيرة.

أما فيدل كاسترو وعدد من قادة الأحزاب الشيوعية فى دول أمريكا اللاتينية فقد كانوا مهمومين فى الأساس بالصراع الوطنى المحتدم الذى يخوضونه حيث الفناء الخلفى للولايات المتحدة القوة الكبرى التى تقبع فوق رءوسهم. وتتردد فى بعض كلماتهم تعبيرات عن الحاجة إلى التجديد وعما أسموه بالترهل الثورى عند البعض دون تحديد لمن يقصدون ولمن يوجهون هذه الانتقادات..

أما الأحزاب الشيوعية العربية فقد ألقوا خطبا تقليدية تدور فى الأساس حول حركة التحرر العربى والدور الخيانى لقوى الرجعية والتحالف الصهيونى الامبريالى وعلى رأسه الامبريالية الأمريكية من ناحية ، والتحالف بين قوى التحرر والقوى الاشتراكية وعلى رأسها الاتحاد السوفيتى من ناحية أخرى .. وكلمات ومجردات تأخذ شكل المقولات العامة دون تشريح حقيقى لطبيعة المرحلة التى تمر بها المنطقة العربية دون اكتشاف معمق للعوامل الطارئة التى جدت على المنطقة والتى اتضحت آثارها الخطيرة فى السنوات القليلة التى تبعث ذلك مثل تراكم أموال النفط وسيادة المفاهيم المرتبطة به، دون حتى استشفاف لبروز العوامل الدينية على السطح وأسباب ذلك.. والمتغيرات التى طرأت على التركيبات الطبقية والاجتماعية فى الحقبة الأخيرة.

ولم يحتو خطاب واحد منهم على نقد ذاتى أو نقد للآخرين الأمر الذى يوحى بأن الأمور النظرية والعملية تمضى فى تمام التمام، حتى إن أحد الأصدقاء من الصحفيين المصريين وهو عبد الملك خليل مراسل الأهرام فى موسكو لكزنى ونحن نستمع إلى خطاب مطول لزعيم كبير لحزب شيوعى عربى قائلا

- : هذا الكلام كان من الممكن أن يقال منذ خمسين عاما.. ولكزته بدورى هامسا

- لا.. ليس صحيحا، فهذا الكلام ينطبق أكثر على المرحلة التى أعقبت إنهاء الحرب العالمية الثانية.. أى منذ ٣٠ عاما فقط..!!

كان من الواضح أن المؤتمر الذى أرادوا له أن يكون تعبيرا عن وحدة الحركة الشيوعية والاشتراكية بعد غياب طويل أمتد لأكثر من عشرة أعوام ، قد كشف عن ارهاصات قوية تموج تحت السطح عن أفكار ومنطلقات جديدة لم تعد راضية عن حالة الجمود والسكون بل والركود التى اجتاحت الجبهه النظرية والتى كان يسيطر عليها رجال مثل سوسلوف وبونوماريوفوف ودشنتها شخصية بريجنيف الذى كان يبدو واضحا أنه شخصية وعقلية ستاتيكية تعمل لأن تعيش وفى هدوء على أمجاد تحققت دون أن ينتابها قلق أو شيق إلى المستقبل .. رجال جمدوا المفاهيم النظرية للاشتراكية العلمية فى إطار الواقع الذى كان سائدا من قبل دون محاولة جادة لفهم التطورات الكبيرة والخطيرة والجذرية فى بعض الأحيان التى كانت تجتاح عالم مابعد الستينيات ، مابعد انحسار أشكال الاستعمار التقليدية وحصول الغالبية العظمى لدول آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية على الاستقلال..

كما أن مشاكل أساسية للمرحلة الجديدة مثل مشاكل التنمية فى الدول النامية بل وفى الدول الاشتراكية ، وتدور رحاها فى قوة، وفى قسوة فى دول العالم النامى لم تحظ بالقدر الكافى من التشريح والتحليل؛ لم تناقش مشاكل مثل الديون وأزمة الغذاء والشركات المتعددة الجنسيات ، وبالتالى لم تضع خططا أو خطوطا لمواجهتها.. تلك المشاكل التى اتضح بعد ذلك أنها أخطر الأشكال الامبريالية فى استنزاف موارد العالم الثالث كذلك مشاكل التطور الديموقراطى والثورة العلمية والتكنولوجية والإعلامية والتى كانت ثمارها ومشاكلها تطل بوضوح لم تجد من يعالجها ويشرحها ويقدم الخطط والمقترحات والمنطلقات النظرية والعلمية لمواجهتها سوى عدد قليل ومحدد من أحزاب أوروبا الغربية.

بل إن بعضها عولج فى إطار المؤامرات الامبريالية والرجعية والدعاية المضادة التى تشنها أجهزة الإعلام الاستعمارية لتشويه منجزات المعسكر الاشتراكى وحركة التحرر العالمى..!! وكفى الله المؤمنين شر القتال .. وعاشت الاشتراكية دائما منتصرة وتسقط الامبريالية الجديدة والقديمة ماظهر منها ومابطن..!!

ومع ذلك فقد كانت الكلمات القليلة والصادقة التى أطلقها البعض فى هذا المؤتمر مثل

أزمة الديموقراطية فى الدول الاشتراكية والدفاع عن تجربة دوبشيك المحدودة فى تشيكوسلوفاكيا أو ربيع براغ سنة ١٩٦٨ والذى انتهى بتدخل القوات السوڤيتية وقوات حلف وارسو فى أغسطس من نفس العام ، كذلك الإشارة والتنبيه إلى الثورة التكنولوجية فى العلوم والإعلام وضرورة مواكبتها وملاحقتها وانعكاس ذلك على مفاهيم الصراع الطبقى بل وتركيب ودور الطبقات نفسها.. كما كان هناك تأكيد غير عادى من بعض الأحزاب على استقلالية كل حزب فى اختيار سياسته وفقا لظروف وأوضاع المجتمع الذى يعيشه وبالمساواة المطلقة بين كل الأحزاب وعدم الاعتداد بنظرية المركز أو أى وضع خاص لأى حزب من الأحزاب .

كانت تلك الأفكار الجديدة والمحددة أشبه بدوامات محركة على سطح كان يبدو هادئا قانعا بما أنجز ، وأثارت لونا من القلق الخصب الذى كان من الواضح أنه سيزداد ويتسع بعد ذلك ...

***

على أننى نسيت هذا كله ، فى المساء وأنا أشاهد باليه جزيل للموسيقار تشايكوفسكى تقوم به فرقة «أوبرا الدولة» فى برلين وعلى مسرح القصر الجمهورى الجديد احتفالا بإنهاء المؤتمر ذلك المسرح الذى أقيم فى أكبر قاعة عرض شهدتها فى حياتى، تلك القاعة التى تتسع لأكثر من ١٣٠ ألف شخص وصممت بشكل يمكن أن تتحول فيه من قاعة اجتماعات الى صالة عرض فى لحظات..

ولا أدرى لماذا حملنى الجو الأسطورى للباليه والموسيقى النابضة والخالدة المصاحبة له وأنا أرى شبح جزيل تلك الفتاة التى ماتت فى ربيع العمر حزنا وأسى على حبيبها الذى هجرها، تعود لتنقذ ذلك الحبيب بعد أن استدرج لوادى الأشباح ، إذ تقول الأسطورة إن الفتيات اللاتى يمتن عذارى، ينهضن من قبورهن فى ضوء القمر المكتمل ليرقصن على حافة الغابة ينتقمن لانفسهن من أى شاب يقترب منهن، ويبتهل شبح الفتاة جزيل إلى زميلاتها العذارى بأن يتركن حبيبها ليعيش بعد أن غفرت له، حتى ولو كان ذلك يعنى أنه سيكون بعيدا عنها.. استمرارا للحياة ودفاعا عنها.. هذا الحب والعشق الخالد المتجدد والنامى والمتطور هو مانحتاج إليه حقا.. وبالذات هؤلاء الذين يزعمون أنهم يدافعون عن قيم الحياة الجميلة فى تحرير الإنسان من كل المعوقات التى تقلل من قدراته وطاقاته الإنسانية فى الابداع والبناء.. بالتأكيد إن بعضهم يقيس ذلك وفقا لمصلحته الذاتية المحددة، وتنتهى عنده كل القيم والنظريات إذا أصبح فى وضع قادر على المنح والمنع على الأخذ والعطاء..

وتمنيت أن يكون منظرو الاشتراكية مثل شبح جزيل، قادرون على تفهم الظروف الجديدة والمتغيرة فيتركون الحياة تبدع وتتجدد وتتدفق ويواكبونها ، فإذا عجزوا عن ذلك فلينسحبوا إلى قبورهم مثل عذارى جزيل لتبقى ذكراهم عطرة على الأقل وليتركوا الساحة للشباب القادر على تفهم مجرى النهر الجديد الذى يعبرونه..

ولقد كان ومازال هذا ببساطة هو مفهومى للاشتراكية بل إننى أذكر أننى انجذبت إليها ومن البداية لإحساسى بأنها تعبر عن حب للحياة والإنسان فى بؤرتها ، ودفاع عن إنسانية الإنسان وإطلاق طاقاته، وإمكاناته المبدعة والخلاقة دون حدود أو قيود ..

ولذلك فقد كنت فى نظر البعض من هؤلاء الذين فهموا الاشتراكية وطبقوها على أنها كهنوت جديد توضع له المراسيم والتراتيل ، وتتجمد فى معبد الكهنة والرهبان مجرد «ليبرالى» تقدمى فى أحسن الأحوال..

وخرجت من المسرح مع عبد الملك خليل الذى كان قد جاء من موسكو حيث يعمل مراسلا للأهرام منذ أكثر من عشرة أعوام لحضور مؤتمر الأحزاب الشيوعية وقطع أكثر من ١٥٠٠ كيلو متر من موسكو إلى برلين بسيارته اللادا فى ثلاث ليال، قضى ليلة منها فى وارسو؛ ولقد عرفت عبد الملك عندما كنا طلبة فى الجامعة، وتوطدت علاقتنا بعد العمل فى جريدة المساء فى أواخر الخمسينيات، وكان يستوقفنى أحيانا فى الطريق أو ينزل بى من الأتوبيس إذا التقينا صدفة ليلقى علىّ قصيدة شعر جديدة سمعها أو دبجها وأحيانا ما كان يجمع بين التأليف والاقتباس ، ثم جمعنا بعد ذلك عنبر واحد ولمدة خمس سنوات فى معتقل المحاريق فى الواحات وكانت فرصة طيبة له انتهزها بالكامل ليسمعنى ويسمع غيرى كل ماحفظه أو كتبه من الشعر وقد كان والحق يقال حافظا لكثير من عيون الأدب العربى والعالمى فهو يتلو لك قصيدة «من أب مصرى للرئيس ترومان» للشرقاوى مثلما يردد أشعار بابلو نيرودا أو ناظم حكمت ولوركا ومقطوعات من مسرحيات بريخت أو بيتر فايس وفصولا كاملة من روايات كازانتزاكس وجوته وجوركى وشتانبيك..ولم تكن هناك فرصة بالطبع فى المعتقل للتحقق من أن مايقوله من شعر ونثر هو حقا من تأليف هؤلاء، وإن كان اعتقادى أنه كان يبلور أو يطور أحيانا وعلى طريقته الخاصة الأعمال التى يرددها.

ولكن خفة دمه ونهمه الشديد للقراءة والحفظ لايتركان لك أية فرصة لمراجعته فى نص يتلوه.. وتجولت مع عبد الملك فى القصر الجمهورى الجديد الذى استمر بناؤه أكثر من أربع سنوات وكان افتتاحه بمناسبة المؤتمر الثامن للحزب الاشتراكى الألمانى الموحد ثم كان مؤتمر الأحزاب الشيوعية بعد ذلك بشهرين هو أول مؤتمر دولى يعقد فيه..

ولقد بنى القصر الجمهورى على أسس جديدة تماما سواء فى فن المعمار أو فى مضمون المبنى نفسه، فلقد أقيم فى مواجهة جزيرة المتاحف التاريخية فى وسط المدينة بمبانيها القديمة والتى حرص الألمان على إعادة ترميمها وبنائها بعد الدمار الذى لحق بها فى الحرب العالمية الثانية وعلى نفس النمط المعمارى القديم الذى اشتهرت به وسط أوروبا وهو خليط من الفن القوطى والرومانى ، المدرج الواسع الفسيح ثم الأعمدة الرومانية وفى الداخل الممرات القوطية بسقفها المخروطى.

كما أقيم أيضا فى مواجهة واحدة من أكبر وأقدم الكنائس التى أقيمت فى برلين فى القرون الوسطى «الكاتدرائية» وهى التى تقارن دائما بكنيسة نوتردام دى بارى. فى باريس.

وجاء القصر الجمهورى على أسس معمارية حديثة تماما فهو مغلف من جميع الجهات بالزجاج النحاسى العاكس أى أنك من الخارج لاترى شيئا ومن الداخل ترى كل شىء، ويمتد فى مستطيل بمحاذاة نهر شيراى لمسافة ٣٠٠ متر ويرتفع الى خمسة طوابق تنتهى بسقف مسطح وتنقسم إلى ثلاثة أجنحة فى منتصفها قاعة فسيحة لايحدها إلا السقف.

وتربط بين أدوارها المفتوحة سلالم كهربائية عديدة للنزول وللصعود وحالما تدخل من أحد الأبواب الرئيسية تأخذك الفخامة والأبهة العصرية البادية فى كل شىء فالأرض مفروشة كلها وفى جميع الطوابق بالموكيت والسجاد الفاخر ولكل طابق لون، والنجف الضخم العملاق الحديث أيضا الذى يتدلى من أعلى السقف ووردة زجاجية ملونة وعملاقة وسط القاعة وعلى الجدران لوحات فنية ضخمة لفنانين معاصرين يغلب عليها الطابع التجريدى وربما كانت هى الشىء الوحيد الذى لم يعجبنى تماما ثم شاشات الكمبيوتر فى كل مكان لترشدك إلى أين تمضى مع موسيقى خفيفة خافتة، تشيع نغمة من البهجة والانبهار، وفى كل خطوة تمضى فيها للداخل، وفى كل طابق تصعد إليه تكتشف قاعات وممرات جديدة، بعضها دائرى وبعضها مستطيل والبعض الآخر نصف دائرى ويملؤك الإحساس بأنك داخل مبنى عظيم فخم بديع جديد تماما فى طرازه المعمارى ومحتواه الحضارى لايمكن مقارنته بالقصور التاريخية المعروفة مثل الفرساى فى فرنسا أو سان سوسى فى ألمانيا أو برمنجهام فى انجلترا أو قصر الشتاء فى روسيا.. انه يختلف عن كل ذلك تماما..

أما مضمون القصر نفسه فهو أكثر إثارة، فالجناح الغربى منه قصر البرلمان أو مجلس الشعب كما يسمى، والجناح الشرقى يحوى القاعة الرئيسية التى ينعقد فيها مؤتمر الحزب الحاكم، ويحتوى القصر على أكبر قاعة للاجتماعات يمكن أن تضم حوالى ٥٠ ألف شخص، كما يحتوى على عدد كبير من القاعات، وهناك مسرح كبير وآخر متوسط وثالث تجريبى، وأكثر من خمسة مطاعم، و٦ كافتيريات ومقهى، وخمس مراقص وجناح كامل للشباب يضم مرقصين للديسكو وأربع مكتبات وحديقة سطح.. وكلها مفتوحة للجمهور من الصباح حتى منتصف الليل.

وباختصار إنه قصر الشعب والحكام ، فى بعض قاعاته يجتمع أعضاء البرلمان لمناقشة سياسة الدولة وفى بعض قاعاته يجتمع الشباب ليرقص على أحدث أنغام الجاز والديسكو، وعلى مسارحه تجرى العروض المسرحية المختلفة من باليه وأوبرا وأوبريت أو أعمال مسرحية لبريخت وشكسبير وجوته بينما يكون جزء منه، وفى نفس الوقت مغلقا على اجتماع حزبى على مستوى عال.

ولقد سألت المهندس الذى أشرف على تصميمه يوم الافتتاح عن الفكرة الأساسية التى حكمت تصميماته لهذا القصر فقال..

أردت له أن يكون نموذجا لقصر الشعب فى القرن الحادى والعشرين بعد أن كانت كلمة قصر ترتبط فى ذهننا دائما بالملوك والأباطرة والحكام...

وبعد جولة امتدت ساعة فى القصر الجمهورى أو قصر الشعب كان فيها عبد الملك مأخوذا ومبهورا ، جلسنا فى إحد الكافتيريات المطلة على نهر شيراى وقال عبد الملك.

- : أسمع هذا مجتمع ديناميكى حقا ، لقد اقتنعت الآن بما قاله هونيكر انهم يبنون الاشتراكية المتقدمة.

وقد كان تعبير الاشتراكية المتقدمة قد استخدم لأول مرة منذ شهر أثناء انعقاد المؤتمر التاسع للحزب الاشتراكى الألمانى الموحد، وكان يعنى مثلما جاء فى تقرير السكرتير العام للحزب الانتقال من مرحلة وضع أسس البناء الاشتراكى مثل استكمال البنية الأساسية ووضع وتأصيل القاعدة المادية للإنتاج فى الزراعة والصناعة والانتهاء من توفير الخدمات الرئيسية فى الإسكان والتعليم والعلاج إلى مرحلة جديدة تقوم على أساسين تكثيف نوعية الإنتاج بما يعنى ليس فقط الكم بل والكيف بما فى ذلك استخدام أحدث الوسائل العلمية المتطورة وتجديد التكنولوجيا، وتحسين نوع الخدمات المقدمة للمواطنين بما فى ذلك إشباع الطموحات الاستهلاكية والخدمات الثقافية والمعيشية.

وقد انعكس ذلك بوضوح خلال تلك السنوات الأخيرة فى الطفرة الواضحة فى المبانى والمنشآت الفخمة التى بدأت تجتاح ألمانيا الديموقراطية منذ منتصف السبعينيات والانعكاس الذى لاتخطئه عين مراقب فى ارتفاع مستوى المعيشة الواضح فى شكل ومظهر المواطنين وفى كم العربات التى تجرى ونوعيتها..

ولقد كانت لى تجربة خاصة فى هذا المجال تجعلنى مؤهلا لأن أرى بعينى وأحكم على هذا التطور..

فمنذ أكثر من عشر سنوات قمت بزيارة لبرلين عاصمة ألمانيا وقد كان ذلك فى الحقيقة أول زيارة لى لعاصمة اشتراكية بعد أن كنت قد زرت بعض العواصم الأوروبية فى الغرب مثل روما وباريس ولندن.

ولن أنسى أننى ظللت فى الأيام الأولى للزيارة مصدوما فى الأعماق..

قد كان الفارق فى التطور شديدا وحادا بين عواصم الغرب التى زرتها وبين برلين فى ذلك الوقت ، تلك المدينة التى كان مازال هناك أجزاء كبيرة منها وخاصة وسط المدينة فى حالة خراب وخاصة ذلك الحى المجاور لسور برلين العتيق، ونزلت فى تلك الفترة فى فندق جديد كان يعتبر فى ذلك الوقت أفخم فندق فى المدينة وكان لايقارن بأى فندق من الدرجة الثالثة فى

العواصم الغربية.. وقد كان من السهل أن يعد الإنسان عدد العربات التى تمر فى الشارع فى اليوم كله، كذلك كانت المحلات العامة تكاد تخلو إلا من بعض السلع الضرورية، الإنسان الذى تراه فى المترو أو فى الشارع يمضى فى ملابس متواضعة مهموما متعبا والشوارع الواسعة الجديدة خالية من الناس وأحيانا من البيوت وبعض العمارات الجديدة قد أقيمت هنا وهناك فى شكل معمارى بدائى.

وقد تعمق لدى هذا الإحساس بالصدمة حين قمت فى الأيام التالية بزيارة برلين الغربية على الطرف الآخر من السور حيث مظاهر الثراء فى المجتمع الاستهلاكى العصرى تبدو فى كل شيء فى المبانى والأبراج الجديدة العملاقة وفى الأضواء التى تبهرك والمحلات العامرة بكل السلع والعربات الفخمة التى تمر فى الشوارع والمظهر العالى الذى يبدو فيه الناس فى ملابسهم وفى شققهم الخاصة حيث تتوافر كل الأدوات الكهربائية الحديثة.

ويومها طرحت هواجس بما فى ذلك أحاسيس الصدمة لأحد الأصدقاء الألمان والذى كان يتولى منصبا مسئولا فى اللجنة المركزية للحزب الحاكم فى ألمانيا الشرقية وقد كان تفسيره أنهم فى الغرب وجدوا من يساعدهم بعد انتهاء الحرب كما أن الولايات المتحدة كانت حريصة على أن تعيد بناء برلين الغربية وبسرعة بل وتقديها كنموذج مبهر للتقدم باعتبارها تقع وسط أراضى ألمانيا الديموقراطية.

أما فى الشرق فقد كان علينا أن نبدأ من الصفر ، أو حتى بما هو دون الصفر ، والكلمات للمسئول الألمانى، كان علينا أن نربط الأحزمة وبعنف ونشقى ونعمل كثيرا من أجل وضع الأساس المادى من جديد للبناء والتطور. وأستطيع أن أوكد لك أننا نجحنا بعد عشرين عاما من انتهاء الحرب من بناء قاعدة الصناعات الثقيلة والخفيفة ومن إعادة تنظيم الإنتاج الزراعى بعد جهود وتضحيات واسعة..

أما استكمال الخدمات وإشباع الاحتياجات الاستهلاكية عند الجماهير فسيتم ذلك فى مرحلة قادمة وقريبة.

كان ذلك منذ أكثر من عشرة أعوام.

وأشهد أن كلمات ذلك المسئول قد بدأت تتحقق وبشكل مذهل وكأنها نبوءة عراف كان على يقين مما يقول..

ولم يكن القصر الجمهورى الجديد وحده هو شاهد تلك المرحلة بل عشرات من المبانى والمنشآت التى بدأت تتكامل بما فى ذلك الحى الذى كان شبه مهجور ومخرب حول السور. فلقد أعيد بناء شوارع كاملة منها شارع ليبزجر الذى أرتفعت فيه العمارات والأبراج لتفوق مثيلتها فى الغرب، كما أقيمت عشرات الفنادق الجديدة والفاخرة ، ومئات المخازن ومحلات البيع والشراء العامرة بكل شيء .

وبان ذلك بوضوح فى مظهر المواطنين فى ملبسهم وفى عرباتهم وفى شققهم الجديدة بل وفى المساكن الصيفية الخاصة التى انتشرت حول البحيرات والغابات والتى يطلقون عليها القطعة الخضراء..

باختصار لقد أصبحت برلين التى أعيشها وأراها فى منتصف السبعينيات تختلف اختلافا يكاد يكون جذريا عن برلين التى زرتها فى منتصف الستينيات..

قال عبد الملك وقد استمع إلى حكايتى مع برلين

- : الألمان .. علينا أن نعترف بأنهم شعب له طبيعة وقدرات خاصة.. قلت ضاحكا:

- إياك أن تقع فى مطب الفكرة النازية عن الشعب المتميز.

- هرفتاح .. هرفتاح..

والتفت لاجد بربارا وابنتها..

وقد سعدت حقا لألتقى مرة أخرى مع بربارا مرافقتى فى الرحلة الأولى التى لم تكتمل، ووجدت نفسى أعانقها فى شوق وسعادة من عثر على حلم ومضى واختفى بسرعة، وخاصة وقد تاهت منى تماما بعد عودتنا إلى برلين منذ شهور..

وقدمتها لعبد الملك الذى وقف يتأملها بعين ناقد متفحص معجب بالعمل الذى يراه ثم أخذ يداعب ابنتها الصغيرة.

وحكت بربارا عن تركها عملها القديم فى مكتب الرحلات وأنها الآن تعمل فى مؤسسة صحفية كبرى، ولقد حاولت مرارا أن تعثر علىّ وذهبت مرتين إلى مركز الصحفيين الأجانب ولكننى لم أكن هناك..

- إذن فهذه هى ابنتك..

كانت بربارا قد حدثتنى عن ابنتها التى تبلغ السابعة ولكن الذى لم تحدثنى عنه أن البنت سمراء بعيون سوداء لامعة وشعر أسود فاحم.

قالت بربارا وهى تعبث بشعر ابنتها وقد عادت سحابة حزن عابرة تظلل وجهها الضاحك ..

- نعم .. نعم، إن أبوها كان أحد الثوريين من شيلى، كان يدرس فى برلين، ثم ذهب إلى شيللى أيام سلفادور الليندى ولم يعد ، قتله الفاشست هناك..

وحملت الطفلة وضممتها إلى صدرى بإحساس من الحنان المتدفق ربما لمأساة والدها الذى لم تره، وربما اشفاقا منى على نفسى وعلى أولادى من مصير كل من يجرؤ على الحلم النبيل فى عالمنا الثالث الحزين، وربما لاكتشاف هذا الاعتزاز الحلو الذى ينعكس على وجهها الأسمر والذى ورثته بالتأكيد عن أمها.

وعادت الضحكة إلى وجه بربارا:

- قل لى .. هل تعلمت الألمانية فى تلك الشهور

- أحاول .. ولكن لغتكم صعبة.. لغة الآخ والإيش والآن..
وصاح عبد الملك فى تلقائية
- آختونج ..
وضحكنا، بما فى ذلك لينا الفتاة الصغيرة فكلمة آختونج بالألمانية وتعنى «تحذيرا أو تنبيها» أصبحت من الكلمات التى دخلت التاريخ وخاصة وأن قوات الاحتلال الألمانية كانت تكثر استخدامها فأصبحت رمزا للعسكرية والسيطرة الألمانية..
وعادت بربارا لتقول
- ولكن لغتكم أيضا صعبة .. لغة الضاد والقاف، إن هناك حروفا فى العربية لا أستطيع نطقها..
- وكيف عرفت ذلك..
قالت فى ابتسامة حلوة وممدودة
- لأننى أدرس العربية الآن فى كورس خاص فى الجامعة
- حقيقى
- طبعا .. وأستطيع الآن أن أقرأ وأكتب بالعربية هل تعرف أول جملة مفيدة نطقتها فى الدرس..
أنا أهب فتاح المسرى
نطقتها فى لغة عربية مسلوقة
وأهب تعنى أحب
والمسرى تعنى المصرى
صاح عبد الملك
- يحيا شعبنا العربى فى ألمانيا

مهما يكن فستدفع الزفرات أشرعة التقدم
مهما تكن سحب الشقاء كثيفة فأنا أرى
الزمن السعيد وراء كثبان الشفق
عبد الرحمن الشرقاوى
من أب مصرى للرئيس ترومان

سبتمبر سنة ١٩٧٦

غريب أمر هذه القاهرة .. التى أعشقها .. الجو الملبد بالأتربة وحوائط الأسمنت المسلح المتلاصقة والتى تبدو من الطائرة كأنها شواهد قبور ضائعة فى الصحراء، وفوضى المرور التى تجاوز أحيانا أية قدرة على التصور، والضجة الهائلة المختلطة التى تكاد فى بعض الأحيان ان تغطى اذنيك بطبقة من الشمع غير المرئ؛ والفهلوة التى استبدلها واستخدمها البعض بديلا للذكاء والتى تلمسها من بعض كشافى الجمرك فى المطار حتى سائق التاكسى وبواب العمارة.

ومع ذلك ، ومع ما هو أكثر من ذلك والذى يدفعك أحيانا لأن تصرخ وتلعن بل وتلقى عليها، يمين الطلاق.

إلا أنه بعد أسبوع أو اسبوعين، وبحد أقصى شهر .. يتبدد كل ذلك وتحس بحنين جارف ومستبد لتلك القاهرة الغانية اللعوب ذات الألف جسد.. لياليها السهرانة الغنية في الحسين والسيدة والمقاهى ، وبحرها أو نيلها الفريد الذى تتضاءل إلى جانبه كل الانهار والذى يحيطها ويلف حولها فى شوق وحب وبنيت علي شطآنه أحاسيس الدفء والارتياح التى لايمكن أن تشمها إلا على شاطئه ، أو لم يكن يسميه أجدادنا النهر الإله، ونهر السماء والأبدية..، الغورية وجاردن سيتى بولاق والزمالك والمعادى ومصر القديمة الحسين والأزهر والعجوزة، شبرا الهرم، القلعة.. أشياء تتناقض وتتصارع وتتكامل، عبق التاريخ وإرهاصات المستقبل، السحر والغموض والعلمانية والدروشة تجتمع كلها فى مدينة لاتقارن، المدينة الوحيدة فى جميع أنحاء العالم التى تتجول فيها يوما فتعبر فى ذلك اليوم أكثر من ٦ آلاف عام.. هكذا وصفها المستشرقون الألمان ..

قاهرةُ الكذابْ وليست قاهرةِ الكذاب، كلمات قالها شاعر عربى، أعتقد أنه معين بسيسو شاعر الثورة الفلسطينية وهو يتغنى بالقاهرة أثناء اعتقاله فى أحد سجونها .. الحوارى

الضيقة الرطبة، والشوارع الفسيحة الممتدة، البيوت أو الأكواخ الصغيرة المتلاصقة والأبراج والعمارات الشاهقة ، الفيلا والكوخ، القصور ومدينة الموتى، الأزهر وكنيسة مارى جرجس والعذراء ، الأهرام والقلعة الصحراء والجبل والخضره والنيل.. أحيانا أتصور أنى أكبر عاشق لهذه الغانية الطروب الأسطورية والتى لها ألف ذراع وألف وجه، وألف جسد، ملايين العشاق الذين يخادعونها كل يوم ومع ذلك يتصور كل منهم أنه الحبيب الوحيد..

لقد تغنى جيمس جويس بمدينة دبلن الآيرلندية وجعل من المدينة الشخصية الرئيسية فى رواياته «صورة فنان وهو شاب صغير»، و«أوليس» وهام بوشكين بحب سان بطرسبرج وبعده ديستوفسكى - لينننجراد حاليا - وتغنى بشتائها الثلجى بقنواتها وقصورها وبيوتها وشوارعها..

وارتبط جوته الألمانى بمدينة ليبزج التى أسماها باريس الصغيرة ، بحاناتها وأقبيتها ولمحة الثقافة الحزينة على وجهها.

وكان ستاندال واميل زولا وبلزاك لايتصورون أنه يمكن أن تكون هناك ثقافة وصراع وحياة وثورة إلا فى باريس المعشوقة، بمقاهيها العامرة بالمناقشات الصاخبة وضفاف السين و مونمارتر وسان ميشيل.

وأشاد البرتومورافيا بروما ولعنها وقدسها وامتهنها وقدمها فى رواياته بل ومسرحياته كشخصية مستقلة تفوق كل شخصياته النسائية الشهيرة.

وربط نجيب محفوظ تاريخ مصر كله بحى واحد فى القاهرة في السكرية وقصر الشوق وبين القصرين ولكننى، ولسبب لايخلو من بعض التعصب وقليل من الشوفينية أحسب أن كل هؤلاء الكتاب الذين تغنوا بمدنهم فى إبداعاتهم الروائية والشعرية لو عاشوا فى القاهرة لوقعوا فريسة ذلك الحب غير العذرى معها أو هكذا خيل لى على الأقل هذه المرة وأنا أعود إليها زائرا.. وبعد غياب متصل ولأول مرة لمدة ستة شهور كاملة ، طبعا إذا تجاوزنا فترة الاعتقال الطويلة التى امتدت لأكثر من خمس سنوات فى أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات.

قال عبد الرحمن الشرقاوى صديق العقل والقلب وهو يستقبلنى فى مكتبه فى روزاليوسف والذي كان يعمل رئيسا لتحريرها فى ذلك الوقت.

- أهلا بك فى القاهرة .. وحشتنا يارجل.. حدثنا عن ألمانيا والألمانيات.

قلت فى اندفاع طفولى.

- بل أنا المشوق لأن تحدثنى عن القاهرة ومايجرى فيها..

ان ست شهور من الغربة وكأنها ألف سنة مما يعدون...

آزيك، وازى الناس والأصدقاء .. وإلى أين تمضى الأمور الخاصة والعامة،

وغرق الشرقاوى في ضحكته القلبية العميقة المعروفة عنه :

- عينى عليك ، وكأنك قادم من صحراء الواحات وليس من عند أهل الشمال حيث أبدع الله الطبيعة والخلق.

كان من الطبيعى أن تكون أول زيارة لى في القاهرة هذه المرة لعبد الرحمن الشرقاوى لأسباب خاصة وعامة..

فقد جمعتني وإياه علاقة خاصة وفريدة، عرفته منذ أن كنت طالبا في السنة الأولى فى كلية الآداب قسم اللغة الانجليزية، قادم من أعماق الريف، أخطو بحذر وشوق وانبهار فى مدينة الألف عام وأدرس الحضارة والآداب والفلسفة الأوروبية وأعانى وأجتر صدمات حضارية منعشة ومقلقة فى نفس الوقت وتتفتح أمامى طرق ومغارات وآفاق جديدة غريبة أخافها وأحبها أشتهى الانطلاق إليها وأخشى أسرارها وطلاسمها الغريبة، وأقف على الحد الفاصل بين ماكان وبين ماسيكون بين واقع محدد عشته فى قرية أو مدينة صغيرة وبين حلم نبيل جديد يتجسد فيما أدرسه فى الجامعة وفيما أعيشه فى القاهرة.

وأيامها بدأت جريدة المصرى تنشر رواية جديدة اسمها «الأرض» للأديب الشاب عبد الرحمن الشرقاوى..

وتابعت الحلقات فى شغف وتجسد لـ محمد أبو سويلم وعبد الهادى ووصيفة فى نماذج رأيتها وعايشتها وأحسست بكلمات حلوه صادقة تعبر عن واقع قريتى ثم تحاول أن تتجاوزه بتعميق مفاهيم جديدة في النضال والبحث عن العدالة ورسم ابتسامة حقيقية على وجه المجهدين والمتعبين والحالمين بمستقبل أفضل..

وأحسست وكأن الشرقاوى هذا الكاتب الشاب قد كتب هذه الرواية خصيصا إلىّ وكأنه يمد إلى طالب تائه حائر حبل النجاة والأمل ويرسم له الطريق..

وقررت أن التقى به وأن أراه وذهبت صباح أحد الأيام إلى مبنى جريدة المصرى فى شارع القصر العينى وطلبت من الرجل العجوز الواقف على باب الجريدة بأن يعرفنى بالشرقاوى وأعطيته قطعة فضية عشرة صاغ كانت تمثل مصروفى اليومى.

وظللت يومها حتى الساعة الثانية بعد الظهر أراقب الوافدين على الدار من كتاب ومحررين أعرف بعضهم من الصور وبعضهم يخبرنى بهم الحارس العجوز.. أحمد أبو الفتح عبد المنعم مراد، عبد المنعم الصاوى، عبد الرحمن الخميسى، خالد محمد خالد، الشيخ سعاد جلال..

وأخيرا وبعد أن كدت أيأس من وصوله أشار الحارس العجوز إلى شاب نحيل يمشى خجلا ويركز نظارته بين الحين والآخر وهو يهم بدخول المبنى وأقبلت عليه أقدم نفسى وابدى إعجابى بروايته ورغبتى فى رؤياه..

وتأملنى الشرقاوى فى لحظة ثم وضع يده على كتفى وشدنى معه داخل المبنى وهو يقول فى بساطة وتلقائية

- : ياخبر. أربع ساعات واقف علشان تشوفنى قد كده أعجبتك الرواية .. انت أذهلتنى وأسعدتنى .. لازم تشرب قهوة معايا

ومنذ ذلك اليوم تطورت علاقة التلميذ والأستاذ إلى صداقة عمر ممتدة اختلفنا فيها واتفقنا يقرئنى كل مخطوطاته قبل أن يدفع بها إلى المطبعة ويأخذ ببعض ما أبديه من ملاحظات وأطلعه على كل مشروعاتى وأفكارى بل وخواطرى..

وأحسست طوال رحلتى معه أننى كسبت صديقا غاليا وأخا أكبر وفوق كل ذلك أستاذا وفنانا وإنسانا.

كان الشرقاوى فى ذلك اليوم يعقد أجتماعا لتلك المجموعة الأسطورية فى روزاليوسف وصباح الخير التى استطاعت وفى فترة وجيزة أن تحقق إنجازا صحفيا يعتبر مثاليا وبكل المعايير حين تفزت بتوزيع المجلتين الى آفاق لم تصلهما من قبل أية مجلة مصرية إذ بلغت روزاليوسف أكثر من ١٧٠ آلفا بعد أن كانت لاتتجاوز الثمانية آلاف كما أن صباح الخير تجاوزت المائة ألف..

صلاح حافظ وحسن فؤاد وفتحى غانم ولويس جريس.. كل واحد منهم فى حد ذاته يعتبر مدرسة ومؤسسة إستطاع الشرقاوى بقدراته التجمعية الهائلة المعروفة عنه أن يؤلف منهم أنجح مجموعة ذهبية فى الصحافة المصرية، وقد ساعد على ذلك أيضا الانفتاح الليبرالى النسبى الذى حدث فى أعقاب حرب أكتوبر والذى أدى إلى إعلان المنابر السياسية كمقدمة لإعلان النظام الحزبى، والثقة الكبيرة فى النفس التى قاد بها الشرقاوى المجلة بتوجيهات سياسية محددة فى الدفاع عن التقدم والديموقراطية ومصالح الغالبية العظمى من الجماهير الكادحة والتى كانت تعاني من وطأة الغلاء والأزمة الاقتصادية والبدايات الأولى للانقلاب الانفتاحى فى الاقتصاد المصرى التى أختطها نظام الرئيس السادات..

وفى مرحلة كان هيكل قد ترك الأهرام وسيطرت على الصحف والمجلات عناصر تقليدية برزت روزاليوسف وتأكد دورها فى كثير من المواقف باعتبارها أجرأ مجلة تصدر وأكثرها التصاقا بهموم الجماهير وطموحاتها...

حاولت أن أعتذر على أن نلتقى بعد الانتهاء من الاجتماع ولكنهم أصروا على أن أشاركهم هذا الاجتماع باعتبارى «خبيرا أجنبيا» على حد قول صلاح حافظ..

ولقد وضعنى هذا الاجتماع والذى استمر أكثر من ساعتين فى الصورة تماما وزودنى بكثير من المعلومات عن الظروف التى تعيش فيها البلاد والتى واصلت ماكان قد انقطع لدى بعد غياب تلك الأشهر الستة..

ناقش الاجتماع دور المجلة فى المعركة الانتخابية التى كانت على الأبواب والتى تجرى ولأول مرة فى ظل وجود ثلاثة منابر لليسار واليمين والوسط داخل الاتحاد الاشتراكى وتكلم

صلاح حافظ عن ضرورة تبنى مشاكل الجماهير خاصة بعد موجة الغلاء الطاحن وظهور عناصر الانفتاح الطفيلية والدفاع عن المرشحين الذين يتبنون برامج وطنية ديموقراطية دفاعا عن القطاع العام والإصلاح الزراعى ومكتسبات ثورة يوليو التى كان الهجوم ضاريا عليها فى تلك المرحلة.

وأشار حسن فؤاد إلى ضرورة الاهتمام بالتطوير الفنى وبالكاريكاتير بشكل خاص كسلاح تميزت به المؤسسة وتوجهه ضد مظاهر البذخ السفيه والفساد الذى بدأت رائحته تزكم الأنوف.. وتساءل فتحى غانم عن المدى الذى يمكن للمجلة أن تذهب إليه وخاصة وأن هناك رءوسا كبيرة تلعب دورا واضحا فى هذا الفساد.

وقال لويس جريس إن التوزيع فى تزايد مستمر وأنه يجب التوقف عن زيادة التوزيع نتيجة لأزمة الورق وللخسارة الحقيقية مع زيادة التوزيع إلا إذا تم التوسع فى صفحات الإعلانات على حساب التحرير ..

وتكلم الشرقاوى.. وقال أنه كان فى لقاء مطول مع الرئيس السادات أمس فى استراحته فى القناطر.

وكشف الشرقاوى الخطوط العريضة للمناقشة بينه وبين السادات مما أوضح كثيرا من الصورة وخاصة بالنسبة إلىّ...

وكان الموضوع الأول شكوى السادات من أن كثيرا من المسؤولين شكوا إليه بأن روزاليوسف قد أصبحت وكرا للشيوعيين وأنها تشكك فى سياسة الانفتاح التى تتبناها الدولة كما أنها تهاجم الولايات المتحدة بعنف برغم أواصر الصداقة التى بدأت تتوثق بين النظام والسياسة الأمريكية..

وأنه أى السادات طلب من وزير الإعلام أن يحقق فى أخطاء منسوبة إلى أحد المحررين، وطلب السادات تخفيف «اللون الأحمر» فى المجلة.. رفض الشرقاوى ذلك، وقال إنه المسئول عن كل كلمة تكتب وأنه إذا كان هناك خطأ عن أى محرر فالمؤسسة هى التى تحاسبه وليس وزير الإعلام..

وقال الشرقاوى للسادات إن هؤلاء المسئولين يثيرون هذه الاتهامات لكى يستروا عوراتهم وأخطاءهم التى تكشفها روزاليوسف..

وكان الموضوع الثانى الذى أثاره السادات هو منبر اليسار الذى كان قد أعلن رسميا ضمن المنابر الثلاثة وأعرب السادات عن أنه كان يفضل الشرقاوى على رأس هذا المنبر .. مشيرا بذلك إلى الخلاف الذى كان قد نشب بالفعل بين المجموعة المؤسسة لمنبر اليسار ومجموعة روزاليوسف التى كانت ترى أن المنبر لابد وأن يتكون فى البداية على الأقل من منظمات اعتبارية. باعتبار أنه يضم اتجاهات فكرية مختلفة يجمعها برنامج سياسى مرحلى وهم الناصريون والماركسيون والاتجاهات الليبرالية والدينية المتحررة.

ودافع الشرقاوى عن اختيار خالد محيى الدين أمينا للمنبر وأكد أن روزاليوسف ستدافع عن مرشحى اليسار نظرا لأن بقية الصحف والمجلات الأخرى تتجه وبوضوح نحو اليمين والوسط..

وكشف السادات للشرقاوى فى هذا اللقاء عن نواياه فى أن تتحول المنابر إلى أحزاب بعد الانتخابات ورحب الشرقاوى بالفكرة..

وطالب الشرقاوى فى ختام ملاحظاته الأربعة الكبار فى المؤسسة بالانطلاق بلا حدود أثناء المعركة الانتخابية فى الدفاع عن مبادىء ثورة يوليو وكشف الفساد والمفسدين وخاصة الفئات الانفتاحية الجديدة وتبنى المشاكل الحقيقية للجماهير وقال ضاحكا.

– ابعدوا عن شخص الرئيس ثم هاجموا من شئتم بعد ذلك..

وضحك الجميع وفهموا ما ألمح إليه الشرقاوى فكلهم يعرفون القصة الحقيقة لبداية العلاقات بين أنور السادات وعبد الرحمن الشرقاوى كان فى عام ١٩٥٥..وكان الشرقاوى قد انتقل للعمل كاتبا فى جريدة الجمهورية التى كان يرأس ادارتها البكباشى أنور السادات عضو مجلس قيادة الثورة..

وقد كان السادات يذهب كل ليلة إلى الجريدة ببدلته العسكرية ويحرص على كتابة مقال يومى على عمودين فى الصفحة الأولى، فلقد كان لديه شبق وحتى قبل الثورة للكتابة فى الصحف.

وعندما أختير السادات سكرتيرا للمؤتمر الإسلامى الذى أعلن عن تشكيله فى القاهرة بدأ يوجه كتاباته وكأنه القائد المسئول عن العالم الإسلامى فى كل بقعة من الأرض..

وبدأ سلسلة من المقالات عما أسماه تحرير المسلمين فى الاتحاد السوفيتى والخطر القادم من الشرق..

وقد حدث فى تلك الأيام أن الشرقاوى كتب مقالا فى إحدى صفحات الجمهورية الداخلية يطالب فيه بمحاولة إقامة علاقات مع الدول الاشتراكية بما فيها الاتحاد السوفيتى وخاصة بعد إصرار الغرب والولايات المتحدة على تجاهل أمانينا الوطنية والقومية سواء فى تسليح الجيش أو فى تمويل بعض المشروعات الاقتصادية المهمة..

وفى المساء وعندما كان السادات يتصفح بنفسه بروفات الجريدة الماثلة للطبع ينبهه أحد المحررين الصغار فى ذلك الوقت إلى مقالة الشرقاوى التى جاءت فى تعارض تام وحاد مع مقالة السادات فى الصفحة الأولى..

الأمر الذى أثار حفيظة السادات واستثار غضبه وهياجه «الألمانى العنيف» وخاصة وقد تصور أن الشرقاوى يتعمد الرد عليه...

وأعطى أوامره لمدير مكتبه النصف مصرى والنصف ألمانى «آيلر» أو حسين عزت. أن

يكلف أحمد أنور مدير الشرطة العسكرية باحضار هذا الشرقاوى من تحت الأرض وفورا.. وانطلقت الشرطة العسكرية فى القاهرة تبحث عن ذلك الكاتب الآبق الذى تجرأ وهاجم أفكار السيد البكباشى عضو مجلس قيادة الثورة ومدير الجمهورية.

وعثروا عليه قبل منتصف الليل مع مجموعة من الأصدقاء فى مقهى صغير بميدان تريامف بمصر الجديدة ، واقتادوه قسرا وركلا إلى الدور الثالث فى مبنى الجمهورية فى شارع الصحافة فى ذلك الوقت حيث كان السادات ومكتبه يتابعون العملية كواحدة من أخطر العمليات العسكرية؛ وأحاول تذكر كلمات الشرقاوى نفسه وهو يصف هذا اللقاء العاصف والمثير مابين منتصف الليل والفجر..

«أدخلونى إلى الغرفة الواسعة للبكباشى أنور السادات، ووقفت وسطها مشدوها مشدودا خائرا وخائفا.. إن أحدا من الذين ألقوا القبض علىّ فى القهوة لم يكلف نفسه بتفسير لما يحدث ، ولم أعرف سوى أن البكباشى طلبنى للمثول بين يديه..

وأخذت أتأمله وهو يدور حولى ويلعب بمسدس فى يديه مركزا نظراته على ومزمجرا أحيانا فى غضب.. لم أكن أعرفه قبل ذلك وكان كل ماسمعته عنه قبل الثورة هو اشتراكه مع آخرين فى التجسس لحساب الألمان أثناء الحرب العالمية الثانية فى دهبية الراقصة حكمت فهمى ثم اشتراكه فى محاولات اغتيال أمين عثمان ومصطفى النحاس وقد كنا نسميه فى جلساتنا الخاصة «أبو الأسود الهتلرى» نظرا لاعجابه الشديد والواضح بالنازية..

وصرخ البكباشى أنور السادات فجأة حتى أنى تصورت أنه أطلق رصاصة من مسدسه

- : كيف تجرؤ يا ....

وخرجت من لسانه ألفاظ سباب غاية فى البذاءة...

ولما لم أرد لتملك الخوف من لسانى، عاد يردد مرة أخرى

- كيف تجرؤ..

وحزمت أمرى وتساءلت

- أجرؤ على ماذا يا أفندم ؟

- مقالك المسموم أيها الشيوعى القذر.. كيف تجرؤ على أن ترد على كتاباتى وفى نفس الصحيفة التى أرأسها

وخرجت كلمات تلقائية عفوية منى

- هو حضرتك كتبت ايه.. ؟!

وكأنما صببت زيتا على النار المشتعلة ، فزاد هياج البكباشى أنور وشتائمه التى لاأستطيع حصرها، وقد ظلت عيناى وأحاسيسى كلها مركزة على المسدس فى يده، فلقد كنا نسمع عن صراع المسدسات الذى يدور أحيانا فى مجلس قيادة الثورة.

ثم قال يحسم الأمر وهو يضع المسدس فى جرابه فى حركة تمثيلية رائعة

- خسارة فيه الرصاصة.. خدوه وارموه زى الكلب فى السجن الحربى.. وانطلقت بى عربة البوليس إلى السجن الحربى فى العباسية وألقو بى فى زنزانة صغيرة مظلمة..

ظللت قابعا فى الزنزانة فى حالة قرفصاء يفرضها أحساسى المتزايد بالبرد والخوف، وكل حواسى تتركز فى أذنى التى أصبحت مثلما رادار مرهف يسمع أو يتسمع نباح كلب فترتجف أوصالى لما لكلاب السجن الحربى من سمعة مدوية ، أو صرخة مكتومة مشروخة فتتوالى فى ذهنى المكدود كل ماكان يحكى من تهاويل يشيب لها الولدان فى السجن الحربى.. ساعتان أو تزيد كنت فى حالة استيقاظ نائم أو نوم مستيقظ.

والتقطت أذنى فيما التقطت آذان الفجر يأتى متماوجا متقطعا من بعيد، وفجأة سمعت وقع أقدام تقترب وهمهمات حديث خافت ثم المفتاح يدور فى غلظة ويفتح باب الزنزانة فى صرير مزعج ويطل علىّ أثنان يحملان كشافا قويا.. كان أحدهما البكباشي أنور السادات أما الآخر فقد كان قائد المعتقل حمزة البسيونى الذى استلمنى منذ ساعات..

ووقفت ملتصقا للحائط فى انتظار قبضة قوية تهوى على وجهى أو كلب مسعور يطلق فى الزنزانة..

ولكن السادات بادر قائلا فى صوت بدا لى غريبا

- تعالى ياشرقاوى .. تعالى .. اخرج..

ولا أدرى ما الذى دفعنى إلى الاستنجاد بقائد المعتقل مستجيرا من الرمضاء بالنار قائلا فى ابتهال..

- ياسيادة القائد.. أنا أمانة هنا فى سجنك.. أرجوك

وضحك قائد المعتقل ضحكة طفولية ، وحتى الآن لاأدرى مالعلاقة بين القسوة والضحكة الطفولية.

- متخفش ياشرقاوى.. سيادة البكباشى عفا عنك..

وقهقه السادات قائلا

- : خلاص ياحمزة .. هات دفتر السجن أمضى على استلامه.. عاوز يطمئن ياسيدى.. أصلك متعرفش المثقفين ياحمزه..

وخرجت معهما صامتا ونسمات الفجر الندية غير قادرة إلا على زيادة هواجسى .. وعلى باب السجن، كانت هناك عربة فولكس فاجن صغيرة فتحها السادات وأجلسنى بجواره ثم انطلق يقودها بنفسه.. وخلال الطريق وحتى منزله فى الهرم كان كل حديثه عن نضاله فى الأربعينيات ودوره فى الثورة واهتمامه بالكتابة فى الصحف والمجلات.. وأنا أسمع فقط، وأحاول عبثا أن أستكشف الموقف..

ودخلنا منزله مع تباشير الصباح الأولى وجلسنا فى غرفة المكتب الصغيرة ثم قال مازحا..

- : تحب تفطر فول وطعمية زى حالاتى.. ولا أنت من بتوع المربى والزبدة..!! ثم بدأ على الفور يقدمّ لى صورا مما كان يكتبه فى الصحف فى الأربعينيات مؤكدا أن الكتابة هى مهنته المفضلة ثم متسائلا بشىء من الاستنكار والعتاب كيف أنى لم أقرأ له قبل ذلك. وعلى مدى ساعتين دار حوار أو بمعنى أدق منولوج من ناحيته حكى لى فيها أشياء كثيرة كانت غالبيتها تدور حول شخصيته ونضاله وبين الحين والآخر يطلب منى أن أنسى ماحدث مؤكدا إعجابه بشجاعتى المزعومة التى أكدت له أننى كاتب يعتز بأفكاره..

ثم فاجأنى بسؤال حول ما إذا كنت أعرف جمال عبد الناصر..

ويضيف الشرقاوى فى روايته انه عرف بعد ذلك أن عبد الناصر حينما سمع ماجرى له طلب من أنور السادات أن يفرج عنى فورا فلقد كنت لا أعرف أن مقالى هذا الذى أثار رئيس تحرير الجمهورية جاء معبرا فى تلك الفترة عن أفكار كانت تدور فى ذهن عبد الناصر والذى كان يستعد لحضور مؤتمر باندونج التاريخى..

وكانت تلك هى بداية علاقة بين الشرقاوى والسادات استمرت لأكثر من ٢٥ عاما! اختلفا فيها فى كل شئ ولكن على أرضية لمسة إنسانية ظل كل منهما مخلصا لها حتى النهاية..

***

كانت تلك الأسابيع الثلاثة فى القاهرة أشبه بحمام تركى ساخن انستنى تماما أنها مجرد إجازة أعود بعدها إلى برد أوروبا وثلوجها.. فقد كان المجتمع المصرى وهو على أعتاب مرحلة جديدة لم تتشكل ملامحها بعد يموج بتيارات قوية ، وعنيفة أحيانا من الحركة والصراع مبشرا إما بفجر جديد أو بقفزة إلى المجهول..

كانت البلاد تستعد لأول انتخابات تجرى فى أكتوبر فى ظل المنابر السياسية..

والتقيت بكل الأصدقاء أحمد طه وقبارى عبد الله وعبد المنعم الصاوى، وخالد محيى الدين والدكتور القاضى ومصطفى بهجت بدوى، وسيد البيكار وأحمد ترباتى.. من قادة الطليعة الوفدية..

كان أحمد طه قد قرر أن يدخل الانتخابات مستقلا بعد أن أختلف مع منبر اليسار لأنه لم يحقق من وجهة نظره التوازن المطلوب لقوى اليسار داخله...

أما قبارى فقد اختار ، بعد جهد منى ومن بعض الأصدقاء أن يدخل الانتخابات على قوائم اليسار - موجها مايشبه الإنذار لى بأنها آخر مرة يسمع كلامى..

وكان عبد المنعم الصاوى متفائلا عن طبيعة المرحلة القادمة وخاصة وقد تحسنت علاقته بالسادات بعد أن كان يرفض مقابلته فى أوائل السبعينيات ويصفة بأنه نقيب «الشيوعيين» لأن الصاوى عندما انتخب نقيبا للصحفيين فى أول مرة سنة ١٩٧٣ ناضل بشرف وصلابة من أجل عودة الصحفيين المفصولين والذين كانوا ينتمون الى اليسار عموما. وقد قلت للصاوى يومها فى مكتبة فى الجمهورية

سمعت أحاديث حول اختيارك للوزارة

فرد بانفعال حاسم

- : قال الله ولا قالك .. حرام عيك .. كن على يقين بأنني سأرفضها فأنا ولدت لأكون من أصحاب الأقلام وليس من أصحاب السلطان...

أما مصطفى بهجت بدوى والذى أصبح كاتبا فى الأهرام بعد أن ترك رئاسة تحرير ومجلس إدارة الجمهورية فلقد كان الوحيد ممن قابلتهم الذى كان يبدى قلقا من تطورات الأوضاع السياسية والاقتصادية وأذكر أنه قال لى مع فنجال القهوة فى مكتبه فى الأهرام..أرى خلل الرماد وميض نار.. ويرر ذلك باحتدام الأزمة الاقتصادية وزيادة الأسعار مع الهجمات الانفتاحية الأولى للشركات الاستثمارية.

وكان خالد محيى الدين منشغلا فى حماس بإعداد قوائم مرشحى منبر اليسار فى الانتخابات القادمة مؤكدا خلال جلسة غداء العمل السريع التى ضمتنا فى كافتيريا الهيلتون أن اليسار أمامه فرصة طيبة لعمل جماهيرى حقيقى خلال المعركة الانتخابية.

وفى الليلة الأخيرة قبل السفر، التقيت بالشرقاوى ومجموعة أخرى من الأصدقاء على العشاء فى النادى الثقافى المصرى.. وكان الشرقاوى متفائلا بمستقبل الديموقراطية فى مصر.. على أساس أن طموح السادات هو أن يكون «عمدة» للجميع بدون تحيز لأحد..

وتركت القاهرة هذه المرة، وأعماقى ممتلئة مع كل ماجمعته وأختزنته خلال تلك الزيارة.. ان هناك شيئا ما على الطريق.

-٧-

هناك أناس كزهور النرجس يبدون فى غاية الطرافة
يحسرون ويربحون وكما توجد الذئاب كذلك يوجد المجانون
الأوديسا - آراجون

١٧ يناير سنة ١٩٧٧

باريس .. باريس...

مدينة الأحلام والأحزان والثورة .. عروس الثقافة ، رائدة الابتذال ، وكر الحرية وقبر الأحرار الشجعان.. كانت دائما هى البادئة برفع رايات الثورة والتحرر ، وكانت دائما وفى نفس الوقت هى البادئة بالانسحاب والتراجع.. وكأنها ورثت كل صفات العاشق الجسور الجبان والذى سميت باسمه باريس الذى اختطف جميلة الجميلات هيلين فألحق الدمار بشعبه وبلده طرواده وجبن فى مواجهة أجاممنون و آخيلوس وأرليسوس..

* باريس التى قدست الجنرال بيتان يوما وجعلت منه بطلها القومى ثم ألحقت به العار والخزى، كررت ذلك مع نابليونها قبلا وديجولها بعدا .. جعلت من جان دارك قديسة ونبية ثم أشعلت فيها النيران وأحرقتها كساحرة شيطانية؛ فاتنة مزهوة بجمالها وشبابها رافعة شعارات مضيئة كالحرية والأخاء والمساواه ، وعند أول خطر يحدق بها تحرق أبناءها وتبيعهم بثمن بخس لكى تحافظ على نفسها كفانية تفتح أبوابها لكل مقتحم غازى..

فعلت ذلك عشرات المرات.. سلمت أبناء الكومونه الأولى ثمنا للغازى الألمانى بسمارك حتى لايشوه وجهها الجميل بمدافعه.. وارتمت تحت أقدام هتلر واختارته سيدا لها حتى لايقص شعرها الذهبى أو يجرى حروقا ونتوءات على جسدها.

باريس...

اللوفراغلى معبد فنى مقدس فى تاريخ البشرية، ومدينة، مونمارتر والهال حيث الانسان رخيص يباع لساعات قليلة بحفنة من الفرنكات..

كعبة الأدباء والفنانين، وملاذ الدجالين والنصابين والمشعوذين.. ومع ذلك يبقى لها سحرها المنفرد الذى يأخذك دائما مع أول خطوة على أرضها سواء كان ذلك فى محطة جاردى ليون أو فى مطار أورلى أو شارل ديجول..

كانت هذه هى المرة الثانية التى أزور فيها باريس وقد جاءت بعد عشر سنوات تماما من زيارتى الأولى لها سنة ١٩٦٨ حين انتهزت وجودى فى روما لحضور مؤتمر ثقافى لدول البحر

الأبيض المتوسط. وفى ذلك الوقت ركبت القطار إليها ولم يكن فى جيبى سوى ثمن التذكرة وتكفل الأصدقاء أنور عبد الملك وبهجت النادى وعادل رفعت أو محمود حسين بكل شيء بعد ذلك فى اقامتى التى أمتدت لأسبوعين..

ولكنى ذهبت الى باريس هذه المرة معززا مكرما بعد إلحاح من أمير اسكندريانه من غير المعقول أن أكون في برلين ولا أتى لزيارة مجموعة باريس، أو جماعة باريس..

كانت باريس قد بدأت تستقطب عدد من أفواج المثقفين المصريين فى رحلة الخروج التاريخى الذى بدأ فى منتصف السبعينيات .. فهاجر إليها البعض ممن كانوا قد استوطنوا بغداد أو بيروت وعواصم عربية أخرى لبضع سنوات ثم أدركوا عن قصد أو بدون قصد أنه يوجد فى تلك العواصم نفس العوامل التى أدت الى خروجهم من القاهرة بل وأكثر فرحلوا الى باريس...

كان من هؤلاء أمير اسكندر وعبد السلام مبارك وطاهر عبد الحكيم وغالى شكرى وأحمد عبد المعطى حجازى وجورج البهجورى ثم انضم إليهم مشيل كامل ومحمود أمين العالم وعدد آخر من شباب المثقفين.

مثلما استقطبت لندن عدد أخر من المثقفين المصريين جاءوا إليها هم الأخرون من بغداد وبيروت وطرابلس ولنفس السبب من أمثال أحمد عباس صالح ومحمود السعدنى وصبرى حافظ وعبد المجيد فريد ومجدى نصيف وبكر الشرقاوى والفريد فرج..

وربما كان الدافع الرئيسى وراء ذلك هو الحرب الأهلية اللبنانية التى كانت قد بدأت منذ أكثر من عام مما أدى الى انتهاء ظاهرة «بيروت» واحة الديمقراطية والنشر مثلما كان يطلق عليها فى العالم العربى ولجوء عدد كبير من الناشرين وأصحاب الصحف اللبنانية الى باريس ولندن واصدار صحفهم هناك جاذبين معهم جمهرة من المثقفين والكتاب المصريين الذين مثلوا فى الأغلب الأعم القاعدة الرئيسية لهذه المجلات تحريرا واخراجا.. فقد كان يصدر فى باريس فى ذلك الوقت من المجلات والصحف العربية واللبنانية عدد كبير منها الوطن العربى والمستقبل والمجلة والطريق.

وفي لندن كانت هناك الدستور والعرب والشرق الأوسط ولقد كشفت الحرب الأهلية اللبنانية القناع الزائف عن حقيقة ماكان يسمى بالواحة الديمقراطية الديكور الذى لم يكن سوى واجهة مزوقة وأحيانا مرسومة على جسد تنخر العوامل القبيلية والطائفية فى أكثر أشكالها تخلفا. بل ان الأحزاب نفسها، بما في ذلك الأحزاب القائمة على أسس عقائدية وعلمانية، ليست سوى تجمعات عائلية أو قبلية ومن الصعب أن تجد أساسا طبقيا أو فكريا أو مصلحيا متجانسا. فالأحزاب موزعة فى قيادتها وقواعدها توزيع قبلى وعائلى ورابطة القبيلة وتقاليدها بما فى ذلك عقيدتها الدينية هى الأساس فى التشكيل الحزبى.. حتى إن قيادة أى حزب من الأحزاب أصبحت وراثية يخلفها الإبن عن الأب.

وينطبق ذلك على حزب الكتائب مثلما ينطبق على الحزب الاشتراكى التقدمى، وهو نفس الوضع وان اختلف فى بعض تفاصيله فى الحزب الشيوعى أو فى أجنحة حزب البعث المختلفة والمتصارعة.

كل مجموعة من هذه الأحزاب الشكلية تعيش فى جيتو جغرافى.

مع تقسيم عمل مصلحى مرتبط ببلد عربى أو أجنبى أو مجموعة من هذه البلدان..

ولن تخطىء كثيرا اذا استبدلت كلمة حزب الكتائب بالمارونين والحزب الاشتراكى التقدمى بالدروز وأمل بالشيعة والشيوعى بالأقليات المسيحية الأخرى من الروم الأرثوذكس والأرمن. لقد كشفت الحرب الأهلية اللبنانية فى أن واحد عن حقيقة وبشاعة اقتصاد الترانزيت والذى يخفى وراءه أبشع أشكال التخلف الاقتصادى والفكرى...

تجمعنا فى تلك الليلة الباريسية الأولى بشقة أمير اسكندر فى الحى الثالث عشر «أفينى ديفرى» وهو الحى الشعبى الفقير والذى يضم غالبية العمال الجزائرين والمغاربة حتى أنك لتنسى فى بعض شوارعه وحواريه أنك فى باريس..

وافترشنا أرض الشقة التى كانت شبه خالية تماما إلا من بعض الآثاث الضرورى. وجاء طاهر الحكيم وعبد السلام مبارك وأديب ديمترى ومحمود أمين العالم وجورج البهجورى وغالى شكرى ومشيل كامل ووجيه سمعان وغالبيتهم كانوا يقيمون فى هذا الحى أو فى الحى المجاور «أفينى دى اتالى» كما كان هناك عبد الملك خليل الذى حضر من موسكو بالصدفة..

ودار الحديث حول الأوضاع في مصر ، وحكيت لهم مارآيته وسمعته ولمسته خلال زيارتى الآخيرة ، وكنت قد أصبحت أكثر ميلا للتفاؤل وخاصة بعد اجراء الانتخابات التى كان هناك شبه اجماع فى نظافتها النسبية والتى أدت الى حصول منبر اليسار على ٩٪ من الأصوات ودخول أربعة من أعضائه فى البرلمان منهم قبارى عبد الله وخالد محى الدين وأبو العز الحريرى ثم مالحق ذلك من اقرار تحويل المنابر الى أحزاب فى أول جلسة للبرلمان المنتخب وتغيير الدستور فيما يتعلق بنظام الاتحاد الاشتراكى واستبداله بالتعددية الحزبية.. راهن البعض على التجربة الليبرالية الوليدة مؤكدا أنه مع استمرارها وتعمقها فإن ذلك سيعطي فرصة حقيقية لحركة الجماهير بأن تؤكد نفسها فى الساحة بعد غياب طويل فرض عليها تحت مسميات كثيرة..

فى حين رأى البعض أن هذه الانفتاحة الليبرالية المحدودة تخفى وراءها انفتاحا اقتصاديا غير محدود ستؤدى فى النهاية الى تصفية انجازات ثورة يوليو وعودة الى سيطرة الطبقات القديمة وأبدى البعض تحفظهم ازاء ذلك مؤكدين أن السادات خرج من عباءة ثورة يوليو وواحد من أبرز أبنائها وسياسته امتداد طبيعى لخط التراجع الذى اتخذته قيادة الثورة بعد هزيمة سنة ١٩٦٧.

وتحدث البعض عن أزمة اليسار ليس فى مصر وحدها بل وفى العالم العربى كله لظروف ذاتية وموضوعية أما الذاتية فتتعلق بفشله فى الارتباط وتحريك القطاعات الواسعة من

الجماهير ممثله فى العمال والفلاحين والمثقفين كذلك الجمود والتخلف فى بعض الأحيان الذى أصاب الفكر الاشتراكى العالمى عامة والعربى بشكل خاص.

وأشار أخرون الى متغيرات جديدة تطرأ على واقع مصر والعالم العربى متمثلة فى التراكم الرأسمالى بوتيرته السريعة للدول النفطية والتى يمكن أن تحدث تغيرات هائلة وغير متوقعة فى التطور الرأسمالى للعالم العربى، الأمر الذى يضع الأساس الحقيقى لوحدة أو ثورة عربية موحدة..

فى حين رأى أخرون عكس ذلك تماما، وفسروا بداية الحقبة النفطية بأنها ستؤكد التخلف والتبعية وان قيم الثورة والصراع الطبقى والقومى ستحاصر بشدة وتخلى مكانها لقيم الثروة والكسب السريع والاستهلاك النزق والأخرق...

وخلص بعض الزملاء أن الرئيس السادات قد فتح الباب واسعا للنفوذ الأمريكى فى مصر والعالم العربى وإنه أجهض النتائج التى كان من الممكن أن يسفر عنها حرب أكتوبر وان رحلات كسنجر المكوكية واتفاقية الكيلو ١٠١ وزيارة نيكسون للقاهرة ثم فتح السوق المصرى للبنوك والشركات الأجنبية والأمريكية منها بشكل خاص، هى بداية لمرحلة جديدة من التبعية.

في حين أكد البعض الآخر أن هذا كلام سابق لأوانه بدليل أن القطاع العام والاصلاح الزراعى وكثير من الإجراءات التى اتخذت فى الستينيات لدعم الاقتصاد الوطنى مازالت قائمة تحميها حركة الجماهير التى بدا صوتها يعلو فى صياغة الأمور السياسية الاقتصادية...

ودار النقاش على هذه الوتيرة محتدما أحيانا هادئا أحيانا كثيرة ممزوجا بكثير من القفشات والضحكات حتى ساعات الصباح الأولى، كنت خلالها أشارك أحيانا وأنسحب مراقبا ومتأملا وأعود فيها بذاكراتى الى أيام المعتقل .. هناك فى قلب الصحراء فى الواحات منذ حوالى ١٥ عاما..

كثير من المشاركين فى هذه الليلة ، كانوا أيضا هناك وشاركوا فى سنوات الألم والأمل وظلوا يناقشون ويحلمون حتي خرجوا من المعتقل سنة ١٩٦٤ مع ماكان يبدو وقتها من أن الأحلام علي وشك التحقيق..

واليوم وبعد كل هذه السنوات تدور المناقشات مرة أخرى فى شقة صغيرة عارية من الأثاث في قلب باريس وعلى بعد الآف الأميال من الوطن.. وتكتشف أن كل الأحلام صارت مجهضة.

هل يمكن أن تكون الغربة لونا من ألوان الاعتقال.. كلاهما على آية حال يفرض العزلة ويبعد عن الواقع وتنمى جذورا ذاتية.

وأخذ الرفاق ينسحبون الواحد بعد الآخر الى بيوتهم أو زنازينهم الجديدة ، وبقيت أنا وعبد الملك خليل فى شقة أمير ونام كل منا على كنبة عارية فى الصالة..

وفى ظهر اليوم التالى اصطحبنى أمير الى شقة فى الدور الرابع فى احدى الشوارع المتفرعة من الشانزليزيه حيث توجد مكاتب مجلة الوطن العربى التى يعمل بها.. وهناك التقيت بوليد أبو ظهر صاحب المجلة ونبيل المغربى رئيس التحرير.

كان وليد أبو ظهر منذ عدة سنوات بعيد تماما عن مجال النشر والصحافة اذ كان يعمل بالتجارة التى تعتبر غريزة موروثة لدى اللبنانين، فإذا كنا نقول أن مصر هبة النيل ، فإنه صحيح تماما أن نقول أن لبنان هبة التجارة.. كانت كل صلته بالصحافة أنه شقيق للصحفى اللبناني الكبير هشام أبو ظهر الذى كان يصدر جريدة المحرر ذات الاتجاه الوطنى التقدمى والذى كان على علاقة وثيقة بالرئيس عبد الناصر، وحينما مات هشام، ذهب من أقنع الأخ الأصغر أن الترخيص الصحفى الذى تركه أخوه الأكبر يمكن أن يدر ربحا ونفوذا أكثر عشرات المرات من العمل التجارى الذى يزاوله..

ودخل وليد مجال الصحافة، وعندما نشبت الحرب الأهلية هاجر برأسماله الى باريس حيث أسس دار الوطن العربى للطباعة والنشر كشركة فرنسية برأسمال محدود..

قال وليد أبو ظهر حتى قبل أن أشرب فنجال القهوة الذى أمر به.

– اسمع يا أخ فتحى ، أنا راجل تاجر لاتهمنى الأيديولوجيات أو النظريات ، وقد عرفت من الزملاء المصريين أنك كاتب مقروء وأن كتابك الأخير قد طبع ثلاث طبعات فى أقل من سنة .. وهذا ما أريده .. فأنا أبحث عن البضائع الرائجة..

وقد عرفت أنك تقيم فى برلين الشرقية ، الشيوعية يعنى، مش مهم، المهم أن تكتب لنا أربع موضوعات كل شهر عن الأوضاع في مصر وسندفع لك ١٥٠٠ فرنك، تمام ياسيدى.. كان واضحا كرجل أعمال، لم يحاول اخفاء الحقائق أو الادعاء ومع ذلك كانت تشوب لهجته خفة دم لايخطئها من يجلس اليه..

قاطعته قائلا : أنا

ولم يترك لى الفرصة..

عارف ، المبلغ مش قد المقام، أعدك بعد شهر أو شهرين أن ترفعه، المهم تبتدى.. اشرب قهوتك بقى...

أحسست ببعض الامتهان وقررت أن أفرض نفسى عليه قلت .

– القضية مش بس قضية فلوس، أنا لن أكتب عن الاوضاع فى مصر لأنى بعيد عنها ممكن أكتب لك عن الاوضاع السياسية والثقافية فى ألمانيا، فى الشرق والغرب وهناك الكثير الذى يمكن أن يقال .

ورفع نظره يتأملنى لحظة وكأنها سمع شيئا لم يتوقعه ثم قال ضاحكا

– لاذكى، عامل حسابات كويس ، ماشى اكتب اللى انت عاوزه، برضه مفيد تكتب لنا

عن المصريين والعرب فى ألمانيا، أحوالهم وأوضاعهم .. سمعت أن عددهم يتزايد آهو نكسب القارىء العربى فى ألمانيا ... هما يطلعوا كام ..

- مين

- العرب فى ألمانيا

- فى برلين الغربية والشرقية حوالى ٥٠ ألف، لكن مش دا المهم، القضية مش حكاية أنى عامل حساباتى زى ماقلت، فعلا أنا لاأسطيع أن أكتب عن واقع أنا معزول عنه ..

- ياسيدى موافق خلاص .. اكتب اللى تكتبه، احنا كلنا آهو بعيد عن بلدنا عن اذنك مضطر اخرج عندى موعد الأن فى .... نبيل المغربى هيعطيك كل الاوراق المطلوبة

وتركنا فى الغرفة وخرج ....

وأخذت أتطلع الى غالى شكرى وأمير أسكندر بحثا عن تفسير وقال غالى

- هو كده وليد أبوظهر، مشغول دائما ... انما طيب وابن حلال ويحب مصر والمصريين ... دا سايب الشغل كله فى ايدينا ... حتى الافتتاحية، المهم عنده المجلة توزع ... قوم بينا نخلص مع المغربى .

بقيت يومين آخرين فى باريس، راحت كلها فى زيارات للأصدقاء ....

جلست مع محمود العالم فى قهوته المفضلة فى سان ميشيل فى الحى اللاتينى .....

وسهرت ليلة مع جورج البهجورى فى الأستوديو الذى يستأجره وسط عشرات من الابداعات الكاريكاتيرية التى ملأته والتى مزجت بين بساطته الصعيدية المعروفة وبين اللمسة الباريسية المستجدة فى الخطوط .

وتعشيت ليلة مع وجيه سمعان وطريف عبد الله وريمون دويك ... نجترذكريات الغربة ..وجلست مع ميشيل كامل فى مكتبه أشرح له أسباب رفضى للانضواء فى أى تنظيم سرى .

وقلت له بوضوح أنى ومنذ حل الحزب سنة ١٩٦٥ بعد الخروج من المعتقل فقد قررت ألا أرتبط بأى عمل تحت الأرض، وأن أدافع عن أفكارى بقلمى وعلنا، وأن هذا هو الدور الحقيقى لاى فنان وكاتب .

وذكرته بأن هذا الموقف ليس طارئا، فقد رفضت من قبل حتى الانضمام الى التنظيم الطليعى للاتحاد الاشتراكى، فلم أكن أفهم كيف تنشىء السلطة تنظيما سريا ؟!

وقلت له أن فهما موضوعيا للظروف فى مصر يجعل من وجود حزب علنى لليسار ممثلا فى حزب التجمع الوطنى التقدمى فرصة تاريخية لابد وأن تنجح وأنه ليس هناك أمل سوى فى تجمع حقيقى لكل القوى الوطنية والديمقراطية .

وبالرغم من احساسى بأن ميشيل لم يقتنع بتفسيراتى لموقفى الرافض للتنظيمات السرية الا أن ذلك لم يفسد للود بيننا قضية وخاصة وبغض النظر عن أى خلافات أو تحفظات، فقد كنت أحمل ومازلت لميشيل أطيب الذكريات كصديق مخلص وشهم وصادق .

...

وحينما انطلق بى القطار من محطة «جاردى أوست» أى محطة الغرب فى الطريق الى برلين عابرا ولمدة عشر ساعات أراضى فرنسية وبلجيكية وألمانية غربية، تزاحم على ذهنى المكدود المتقلب بين النوم واليقظة، كل الصور والاصدقاء الذين تركتهم خلفى فى مدينة النور .... حقيقة قضيت أسبوعا دافئا بين أصدقاء جمعتنى واياهم فى مصر رحلة الآمال والالام، كما تجمعنى بهم رحلة الغربة عن أرض الوطن .

ولكن ماكان يلح على دائما، وأنا أتذكر شقة أمير اسكندر الخالية من الاثاث، وجورج البهجورى، وحياة الكفاف التى يعيشها الأخرون فى تلك المدينة التى تعتبر من أغلى مدن العالم ... اننى ادفع ايجارا لشقتى فى قلب برلين ما لاتزيد عن ١٠٠ مارك أى أقل من ٥٠ جنيها مصريا فى حين يبلغ الايجار الشهرى لاقل شقة فى باريس مالايقل عن ٤٠٠٠ الآف فرنك وهو يساوى قرابة الألف جنيه مصرى فى ذلك الوقت .

وهم كلهم ليسوا من رجال التجارة والمال، لايملكون الا فكرا وقلما وبعض الصحف والمؤسسات اللبنانية التى يعملون فيها لقاء دراهم معدودات. ماذا يجرى لوطالت أيام الغربة...!!

سؤال كان يلح على و يزعجنى أحيانا لدرجة أن أقفز الى ممر العربة وأفتح النافذة لتغمرنى الرياح المشبعة بالثلوج والقطار ينطلق كالصاروخ فى اتجاه برلين .

وحين وصلت الى بيتى فى ساعات المساء الأولى، لم ينهض عمرو وياسر لاستقبالى كعادتهما بالترحيب الصارخ، بل كانا جالسين فى الصالة حول جهاز التليفزيون مستغرقين تماما فيما يرونه ... ولما لمحانى قالا فى صوت سريع مضغوم .

- تعالى بابا ... تعالى ... انهض ... شوف مصر بيجرى فيها ايه ...

-٨-

عندما تعصف السحب السوداء بالسماء ويدوى الرعد فى صخب هائل مطبق تحس كل القلوب بأنها فى قبضة قدر غادر

شيللر - عروس مينا

آخر يناير سنة ١٩٧٧

مرتان .. أحسست فيها وبشكل مكثف معنى العجز والاحباط .. ولجأت فيهما الى أحلام اليقظة ، كأى طفل صغير فأتصور أو أتمنى أن يكون لى جناحان فأطير بهما الى القاهرة.. قافزا فوق مرارة الواقع وعدم القدرة..

المرة الأولى حين كنت فى معتقل الواحات تبعدني عن القاهرة مئات الكيلومترات وأسوار السجن وسمعت عن مرض شديد ألم بوالدى.. وأيامها كنت أصرخ وأتمزق فى داخلى وفى صمت وكلى رغبة متفجرة فى أن أكون فى القاهرة الى جانبه حتى لو دفعت حياتى ثمنا. وهذه المرة ، وأنا أبعد عن قاهرتى آلاف الأميال ، وأرى وأسمع من خلال أجهزة التليفزيون والراديو مايجرى فيها...

كانت الأحداث التى بدأت فى ١٧ يناير قد فرضت نفسها على جميع الصحف والاذاعات والتليفزيونات فى العالم.

وقبعت الى جوار التليفزيون أرى تلك الأفلام الحية التى تصور مايجرى .. مظاهرات جماهيرية صاخبة بدأت فى الصباح مع اعلان الحكومة رفع الأسعار تنفيذا لتوصيات صندوق النقد الدولى ، وانطلقت كالعادة من حلوان وجامعة القاهرة.. أى من المركزين الرئيسين للعمال والطلبة.

وبعد الظهر كانت المظاهرات قد شملت القاهرة كلها ، ثم تردد صدى ذلك فى الأسكندرية والمنصورة والاسماعلية وأسيوط وأسوان وكل مدن مصر الكبرى..

اصطدامات بالبوليس، وضحايا يسقطون من الجانبين.. فأرى معركة في ميدان التحرير، وأخرى فى الأزهر ، وثالثة فى باب الشعرية .. ورابعة فى الأسكندرية ، وخامسة فى أسوان. عدد القتلى والجرحى يقدر بالمئات..

وأنتقل الى قناة أخرى وتليفزيون آخر، فلقد كان بأمكانى فى برلين أن أرى أكثر من ست قنوات تليفزيونية من الغرب والشرق بما فى ذلك قناة أمريكية خاصة تذيع فى وسط أوروبا.. الأمور تتطور بسرعة .. المتظاهرون لاينفضون فى المساء كالعادة بل يقيمون المتاريس فى

الشوارع، والشعارات تتطور من الشكوى من الغلاء والقوانين الجائرة، إلى المطالبة باسقاط الحكومة بل والنظام، وتتحول الهتافات من مطالب اقتصادية إلى مطالب سياسية..

عاوزين حكومة حرة.. العيشة صبحت مرة.

هما بيضربونا.. واليهود فى سينا

الشعب المصرى في كل مكان .. ضد سياسة الأمريكان

لم كلابك ياسادات .. يوم الشعب هو الآت.

وانتقل إلى راديو القاهرة الذى يمكن سماعه بوضوح بعد التاسعة مساءا، فأسمع بيانا مقتضبا من الحكومة عن بعض الشغب الذى أثارته قلة منحرفة من الشيوعيين وأصحاب المبادىء الهدامة استغلوا معاناة الشعب وحاولوا استغلالها، ثم اعلان حكومى مقتضب بإلغاء قوانين الأسعار الجديدة بناء على توجيهات الرئيس السادات ثم بيان آخر بأن الحالة هادئة تماما وأمكن القبض على بعض مثيرى الشغب.

ولكن الاذاعات الأخري فى لندن وأمريكا ومونت كارلو وبرلين تؤكد وحتي ساعة متأخرة من الليل أن الأمور تتطور بشكل سريع ، وأن الجماهير تسيطر بالفعل على مناطق كثيرة فى القاهرة والأسكندرية..

وأقضى الليل كله متنقلا من اذاعة إلى أخرى وأحاول الاتصال بالقاهرة والجريدة أو بالشرقاوى أو بأى من الأصدقاء ولكن الترنك الدولي يرد بأن الاتصالات مقطوعة .

وفي الصباح اتصلت بالصديق رؤوف غنيم المستشار الأول للسفارة المصرية فى برلين، ولم يكن لديه تفاصيل أكثر ، كل ماقاله أن الوضع يبدو خطيرا..

ثم بدأت الاذاعات وقنوات التليفزيون الأوروبية تحمل فى اليوم التالى موجات جديدة من الأخبار والتطورات المثيرة..

الثورة تعم مصر.. تمرد شعبى شامل ضد نظام السادات.. المتمردون يقيمون المتاريس، البوليس يرفض اطلاق النار وينضم الى المتظاهرين.. المظاهرات تهتف بسقوط السادات وأمريكا واسرائيل..

وأرى حوارا يجريه التليفزيون الألمانى مع ضابط بوليس.. على رأس فرقة من رجال الأمن فى حى الحسين والأزهر يعلن فيه الضابط رفضه لاطلاق النار على المتظاهرين لأنهم حسب تعبيره أهله وعشيرته ...

وتقرير مصور تذيعه محطة التليفزيون الأمريكى عن المظاهرات فى أسوان التى حاصرت الرئيس السادات وغموض حول مصيره..

ثم تذيع البى بى سى أن السادات قد غادر أسوان بالطائرة الى مكان مجهول ثم رسالة عاجلة من مراسليها فى القاهرة تؤكد أن هناك اشاعات فى أن السادات قد غادر مصر كلها الى بلد آخر غير معلوم..

وتقول «مونت كارلو» أن الثورة فى اليوم التالى قد شملت كل أقاليم ومدن مصر وأن المظاهرات الغاضبة قد أحرقت منزل السادات فى قريته ميت أبو الكوم.

ويقول صوت أمريكا انه من الواضح أن الذين يقودون المظاهرات هم الشيوعيون والناصريون الذين يعارضون سياسة السادات فى الانفتاح الاقتصادى والتقارب مع الولايات المتحدة. أما راديو موسكو فيذيع أخبار مصر التى احتلت صدر الأخبار فى الاذاعات العالمية فى آخر النشرة وبشكل مختصر وغير واف وبدون أى تعليق!!

ثم تنفرد «مونت كارلو» بنبأ خاص عن هروب السادات الى ايران فى ضيافة صديقه الشاه وبدأ الأمر بعد ظهر ذلك اليوم كما لو أن نظام السادات قد سقط .. ولكن فى نفس الوقت كان من الواضح أنه ليس هناك قيادات سياسية واضحة ومحددة تقود العمل الجماهيرى أو تنظيمه سوى بعض القيادات الشابة المتحمسة التى أفرزتها الحركة في هذا الموقع أو ذاك..

ولم يكن من الصعب ادراك أن حركة الجماهير حركة تلقائية وأنها فاجأت الأحزاب والقوي السياسية المنظمة حتى قبل أن تفاجىء الحكومة نفسها الأمر الذى كشف بوضوح أن هناك فراغا سياسيا هائلا فى مصر..

وكان هذا أخطر مافى الموضوع..

فلقد تعلمت من واقع العمل السياسى، أنه ليس من المهم أن تحتج أو تثور بل الأهم أن تعرف إلى ماذا تهدف بالاحتجاج أو الثورة .. وإلا تحول الأمر الى طلقة طائشة تنطلق بلا هدف ، بل وقد تصيب قوى الثورة نفسها.. أو صرخة احتجاج غير ناضجة قد تؤدى الى اجهاض الثورة وحصارها وقد تسفر عن نتائج عكسية تماما لما كانت تطمح له..

وكم من حركات جماهيرية واسعة أمكن حصارها وتصفيتها لأنها كانت تفتقد الهدف الواضح والقيادة الواعية، بل واستخدمت كمبرر لمزيد من تضيق الخناق على الجماهير وتسليح القوى المعادية لها بوسائل وأساليب أكثر فعالية.

وقد بدا لى ذلك واضحا فى بعض الأفلام التليفزيونية التى آراها فى صورة مجموعات غريبة من الغلمان والصبية تحرق الأتوبيسات وعربات الترام.. وأخرى تلقى الطوب والنيران على بعض المرافق والمنشآت..

وجماعات ملتحية يبدو أنها منظمة جيدا تلقى بالنيران الحارقة علي ملاهى شارع الهرم ودور السينما..

إذن فقد بدأت فرق التخريب المعروفة ليتحول الأمر كله من ثورة الى تمرد مجهض يسهل اتهامه بالتخريب والتدمير..

ولقد حدث نفس الشىء فى القاهرة فى ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ حين أمكن تحويل الاندفاعة الجماهيرية الوطنية ضد الملك والانجليز الى حرائق وتخريب وبالتالى الى أداة فى يد الملك والانجليز لضرب الحركة الوطنية بأكملها.

وفى المساء حملت الأخبار أنباء نزول الجيش الى الشوارع ليمسك زمام الموقف واعلان الأحكام العرفية وحظر التجول.

وأدركت ساعتها أن العصافير التى لم تستطيع أن تبنى عشها الآمن الجديد قد أصبحت فريسة سهلة مرة أخرى وبشكل مكثف لهجوم الحداه والصقر.

ثلاثة أيام لم أنم فيها سوى ساعات قليلة مابين السحر والفجر على «شيزلونج» فى غرفة المكتب، أتابع من خلال التليفزيون والراديو والتليفون مايجرى على أرض قاهرتى الحبيبة تتقاذفنى موجات مكثفة لانفعالات أسيرة، أصرخ أحيانا فى وجه جندى من رجال الأمن يضرب جماعة من المتظاهرين بشومة فى يده، وانهر فى أحيان أخرى بعض الصبية والغلمان وهم يحرقون الأتوبيسات ويقذفون زجاج المؤسسات بالطوب والحجارة .. وأصفق لضابط يرفض اطلاق النار على مواطنيه، وأكاد أحطم شاشة التليفزيون أمامى وأنا أرى وزير الداخلية فى ذلك الوقت وهو يعلن فى سذاجة وتبلد غريب أنها قلة منحرفة من الشيوعيين. مكررا بذلك اسطوانة مشروخة مستهلكة . وأضع يدى على وجهى حتى لا أرى صورة القتلى والجرحى.

أعيش الأحداث لحظة بلحظة بالصورة المرئية وبالكلمة المسموعة ، ولا أملك سوى انفعالات عاصفة محبطة. فما أصعب على النفس أن تكون متفرجا على مايجرى فى بلدك من أحداث ساخنة ملتهبة وأنت على بعد آلاف الأميال.

وغمرنى احساس ثقيل، بأن تلك الانتفاضة الشعبية المجهضة سيكون لها نتائجها الواسعة والخطيرة ، بل قد تكون بداية لمرحلة جديدة يندفع فيها الرئيس السادات فى خط مضاد تماما لأمانى الجماهير وطموحاتها.. بعد أن كان فيما يبدو مترددا يحاول ايجاد لون من ألوان التوازن فى العلاقات والقوى الاجتماعية بحيث يعترف الجميع له بالعمودية.. وتذكرت كلمات الشرقاوى وهو يصف طموحه الجامح وحساسيته المفرطة بالذات التى تجعل من ردود أفعاله وانفعالاته العاطفية ازاء الأحداث هى العامل المحدد لسياسته... انه مثل ابن الليل فى القرية، يجلس مع المجموعات السهرانه على القهوة ملكا فى القعدة، يثير النكات والقفشات ويملك ناصية الحديث ، وفى نفس الوقت، يدور فى ذهنه وفى خطوط متوازية أكثر من مشروع قابلة كلها للتنفيذ فى أعقاب انفضاض تلك الجلسة..

كيف سيطلق الرصاص على رأس هذا الجالس أمامه..

وكيف سيهدم جدار الحظيرة فى بيت الآخر ليمضى بما شيته ..

وكيف سيقفز على سطح البيت المجاور ليضاجع زينة النساء التى أعجبته.

ويعتمد كل ذلك على مزاجه الخاص فى تلك الليلة.

وقد بدأ ذلك واضحا حينما عاد الى الظهور الى مسرح الأحداث بعد الأيام الأولى وأدلى بتصريحاته الغاضبة الملتهبة عن «إنتفاضة الحرامية» كما كان يحلو له أن يسميها واتهامه الواضح لمن أسماهم بالناصرين والشيوعيين الذين قادوها.

ولم يكن من الصعب اكتشاف تلك النغمة المرورة العصبية والمتعصبة فى أحاديث السادات بعد ذلك والتى لازمته حتى النهاية فلقد كادت الانتفاضة أن تقضى عليه وعلى نظامه الذى لم يكن قد مر عليه أكثر من خمس سنوات.

وعندما سأله مراسل التليفزيون البى بى سى..

- : لماذا يطلق على ماحدث بأنه انتفاضة حرامية

قال : لأن الذين قاموا بها وشاركوا فيها مجموعة من الرعاع والأوباش.

وعندها قال له المراسل الانجليزى :

الاتجد تحرجا ياسيدى أن تطلق على شعبك بأنهم مجموعة من الرعاع والأوباش.

صرخ فيه السادات.

: - أننى أعنى ما أقول . فهم مجموعة من الرعاع والأوباش.

وبدأ النظام حملة صليبية جديدة ضد اليسار والقوى التقدمية والديمقراطية، كما صدرت بعض القوانين الجديدة التى تحد من الحريات وتشدد العقوبات بالنسبة للتظاهر وحرية العمل السياسى، وقدم مئات المواطنين الى المحاكم العسكرية . حتى عبد الرحمن الشرقاوى الذى كان السادات يحرص على علاقة معه باعتباره حلقة الوصل مع اليسار أخرجه من روزاليوسف بعد أن طلب منه أن يغير من سياسة المجلة ويطرد من أسماهم بالكتاب الشيوعيين والناصريين ورفض الشرقاوى واستقال.

عاد السادات الى الحكم هذه المرة مجروحا ممرورا ولديه احساس مركب بالاهانة بل والمهانة التى لحقت به أثناء الانتفاضة وأسقطت عنه طموحاته السابقة بأن يكون «عمده للجميع». وتركزت كراهيته وبالتالى عداؤه وتوجهاته السياسية بعد ذلك ضد اليسار بشكل لم يسبق له مثيل وتداعت سياساته ومنذ ذلك التاريخ فى خط بيانى متصاعد أفقدته حتى تلك الحاسة أو بمعنى أدق الرطانة الشعبية التى كان ماخوذا بها بعض الوقت، وبدا يبنى جدارا - سميكا من الافتتان بالذات والارتباط بأى قوة مهما كانت هويتها قادرة على أن تدغدغ سواسه وطموحاته الذاتية. وقد كانت هناك قوى كثيرة فى الداخل والخارج على استعداد لأن تلعب هذا الدور بل وتنتظره بل وأكاد أقول لعبت دورا أساسيا فى رسم السيناريو كله..

كانت هناك بقايا الطبقات أو الأسر القديمة التى اجترت طوال السنوات الماضية مخزونا هائلا من الآلام والأحقاد التى سعى السادات الى التصالح معها بل والتصاهر وزوج ابنته أحد رموزها.

وكانت هناك طبقات البيروقراطية والتكنوقراط التى شكلت لنفسها طوال الستينيات والسبعينيات وصفا خاصا متميزا وأصبحت تشكل فئة امتازت بالشراسة والنهم للمال والطموح الى السلطة وزوج ابنته الأخرى لأحد رموزها.

وكان هناك فئات البرجوازية الزراعية التى إستفادت بشكل مطلق من كل اجراءات ثورة يوليو وفرضت نفسها كطبقة محافظة تحكم الريف بديلا عن الاقطاع وشبه الاقطاع وقاهره للفلاحين.. وزوج ابنته الثالثة لأحدرموزها

كان هناك الأخوان المسلمون والتيارات الدينية التى كانت محاصرة وعاجزة أحيانا فمد السادات يده إليها ويقوه ووضع فى يدها السلاح لمواجهة قوى اليسار..

ثم كانت هناك قبل ومع كل هذا الولايات المتحدة الأمريكية.

وقد ظل السادات يعتقد بعد أن رأى الموت بعينيه أن اليسار هو العدو الذى يمكن أن يطلق عليه رصاصة الرحمة. ولم يكن يدرى أن الرصاصة ستأتى بعد ذلك من الاتجاه الآخر المعاكس تماما..

قال الله للانسان :
وحدك أنت لايقيدك قيد إلا اذا اتخذته بالارادة التى
وهبناك اياها.. وفى مركز الدنيا وضعتك ليسهل عليك أن
تتلفت وترى كل مافيها..
لقد صنعتك مخلوقا لا أرضيا ولاسماويا لافانيا ولاخالدا
لكى تكون خالق نفسك وتختار.

بيكوديلاميراندوا
كاتب فلورنسى قديم

مايو سنة ١٩٧٧

فردريش شتراسا .. أو شارع فردريك.. أغرب وأخطر شارع في التاريخ المعاصر.. تستطيع أن تقطعه بالسيارة فى أقل من ٢٠ دقيقة.. ولكنك لابد وأن تتوقف عند منتصفه لتقدم جواز سفرك وأوراق عربتك ثم تتعرض للتفتيش فهنا بوابة شارلى.. وهى أشهر بوابة تعبر من خلالها من برلين الشرقية الى برلين الغربية والعكس .. أقل من مائة متر ثم تخرج بعدها الى الجانب الآخر.. وعلي نفس الشارع وتستقبلك وجوه حرس جديد من قوات الحلفاء يلقون نظرة على الأوراق ثم تنطلق...

أنت الآن فى بلد آخر وعالم آخر تماما .. رغم أنها أيضا برلين ورغم أن الشارع مازال يحمل نفس الاسم.. فردريش شتراسا وهذا العبور الذى لايتسغرق أكثر من خمس دقائق ولايزيد بأي حال من الأحوال عن عشرين دقيقة ينقلك مرة واحدة من برلين الاشتراكية الى برلين الرأسمالية برلين حلف وارسو الي برلين حلف الأطلنطى .. برلين المتحالفة مع الاتحاد السوفيتى وبرلين المرتبطة بالولايات المتحدة.

ولعل التاريخ المعاصر بل والقديم لم يشهد وضعا خاصا وفريدا مثل وضع برلين الغربية - نعندما اجتمع الحلفاء فى مدينة بوتسدام التاريخية للبحث فى وضع ألمانيا بعد استسلام النازية ونهاية الحرب العالمية الثانية كان من رأى الرئيس الأمريكى روزفلت الذى توفى أثناء انعقاد المؤتمر وتولي ترمان مكانه أن تنقسم ألمانيا الى أربع ولايات رئيسية يشرف على كل منها دول الاحتلال الأربعة ، وهى أمريكا والاتحاد السوفيتى وفرنسا وانجلترا.. وكان رأي ستالين الذى قاد الوفد السوفيتى الى المؤتمر الإبقاء على وحدة ألمانيا ومساندة سلطة القوى

الديمقراطية الألمانية المعادية للنازية ، الأمر الذى رفضه بقية الحلفاء بشدة لأن ذلك معناه من وجهة نظرهم أن يسيطر الشيوعيون والاشتراكيون..

وبعد مباحثات طويلة ومتعثرة شارك فيها أربعة من أكبر القادة الذين عرفهم التاريخ المعاصر ستالين وروزفلت وتشرشل وديجول .. استقر الرأى الى تقسيم ألمانيا الى منطقتين أساسيتين، منطقة تخضع للاحتلال الروسى، ومنطقة تخضع للاحتلال الأمريكى الفرنسى الانجليزى المشترك يفصل بينهما نهر الإلبه وأصر الحلفاء فى نفس الوقت على تقسيم برلين نفسها رغم أنها ، أى المدينة تقع بالكامل فى وسط منطقة الاحتلال الروسى وذلك تحت دعوى ان عاصمة الرايخ الثالث لها أهمية خاصة، وكاد المؤتمر أن يتحطم بالكامل ازاء هذه النقطة التى رفضها الروس فى البداية.. وأخيرا تم الاتفاق على الوضع الخاص لبرلين بتحويلها الى مدينتين..

وحينما أعلنت جمهورية ألمانيا الاتحادية (الغربية) على منطقة احتلال الحلفاء ثم أعلنت جمهورية ألمانيا الديمقراطية (الشرقية) فى منطقة الاحتلال السوفيتى، بقت برلين الغربية تمثل جيبا عميقا داخل أراضى ألمانيا الديمقراطية باعتبارها ووفقا لاتفاقية بوتسدام تمثل وحدة سياسية مستقلة تخضع لاحتلال الحلفاء مع الاعتراف ببعض الروابط الادارية مع ألمانيا الاتحادية..

وحتى الآن وبالرغم من الاتفاقيات العديدة التى أبرمت بعد ذلك إلا أن وضع المدينة ظل من الناحية الرسمية وحدة مستقلة يحكمها سينات خاص بها (مجلس الشيوخ) ويرأسه عمدة المدينة وهذا الوضع الغريب والخاص قد خلق حول النصف الغربى للمدينة حساسية مرهقة وزائدة فأصبحت كلغم قابل للانفجار فى أى وقت أو بركان قد تنطلق منه الحمم القاتلة والمدمرة فى أى لحظة..

وقد كتم العالم أنفاسه مرتين حين تأزمت الأمور على الخط الفاصل بين برلين الشرقية والغربية وبدا للبعض كما لو أن شرارة الحرب العالمية الثالثة على وشك الانطلاق..

مرة فى أواخر الأربعينيات حين فرض السوفيت حصارا حول المدينة ورفض ضمها الى ألمانيا الغربية والتمسك بوضعها «كموحدة مستقلة» ويومها أعلنت القوات الأمريكية والفرنسية والانجليزية حالة التأهب القصوى ووقفت الدبابات الروسية والأمريكية ولعدة أيام فى حالة مواجهة مباشرة لايفصلها سوى عشرات الأمتار من الحزام الفاصل بين برلين الشرقية والغربية وفى انتظار الضوء الأحمر لأطلاق القذيفة الأولى...

ولكن التعقل ساد، ومن حسن الحظ فى النهاية، أمكن الاتفاق مرة أخرى على صيغة «استقلالية المدينة».

والمرة الثانية فى أوائل الستينيات حين فوجئ العالم والولايات المتحدة بشكل خاص فى صبيحة يوم من أيام أغسطس سنة ١٩٦١ أن ألمانيا الديمقراطية قد أقامت سورا متكاملا حول برلين الغربية يعزلها تماما عن برلين الشرقية وعن أراضى ألمانيا الديمقراطية ويمتد مئات الكيلو مترات. ومرة أخرى التهب الجو ووضعت القوات على الضفتين فى حالة استنفار كامل وتبادلت ألمانيا الغربية والشرقية ومن ورائهما الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى الاتهامات والانذارات..

فالغرب يقول أن بناء السور انتهاك صارخ لاتفاقية بوتسدام وفرض حصار على المدينة بقصد احتوائها والاستيلاء عليها..

والشرق يقول ان برلين الغربية تقع وسط أراضى ألمانيا الديمقراطية التى تحيطها من كل جانب وان من حق الأخيرة كدولة مستقلة ذات سيادة ان تحمى حدودها بشكل واضح ضد عمليات التخريب والاستنزاف التى يقوم بها الغرب من خلال هذه القلعة الرأسمالية المتقدمة فى أعماق المجتمع الاشتراكى..

وبالرغم من صيحة الرئيس الأمريكى فى ذلك الوقت روبرت كينيدى .. وبالرغم من كل التهديدات والانذارات وبعض الاجراءات المشحونة والانفعال الغاضب.. إلا أن الأزمة حوصرت في هذا الإطار، إذ لم يكن هناك من هو على استعداد لاشعال نيران حرب عالمية جديدة من أجل مدينة ألمانية حتى ولو كانت برلين..

وقد ظل هذا الوضع الخاص والمتميز لتلك القلعة الرأسمالية المتقدمة فى أعماق المجتمع الاشتراكى وحتى يومنا هذا وان كان قد فقد الكثير من الاثارة والسخونة والتوتر وخاصة بعد مجموعة الاتفاقات التى عقدت فى أوائل السبعينيات بين الألمانيتين والتى أدت الى اعتراف كل منهما بالأخرى ودخولها للأمم المتحدة، وكذلك الاتفاقيات التى أجرتها ألمانيا الغربية مع الاتحاد السوفيتى وتشيكوسلوفاكيا وبولندا والتى اعترفت فيها بالحدود التى أسفرت عنها الحرب العالمية الثانية باعتبارها حدودا دولية بعد أن ظل كونراد آديناور المسيحى الديمقراطيى المتعصب أول مستشار لألمانيا الغربية يرفض وفى عناد غريب طوال الخمسينيات والستينيات الاعتراف بالأمر الواقع..

وقد كان من الطبيعى أن ينعكس سياسة الوفاق والتعايش بين الألمانيتين على الوضع فى برلين الغربية التى ظلت محتفظة بطابعها «كوحدة مستقلة» مع اعتراف الجانب الآخر بشكل من أشكال الاشراف الادارى لألمانيا الغربية.

إلا أن برلين الغربية ظلت، وحتى اليوم، تلعب دورا خطيرا وبشكل خاص فى العلاقات الدولية وفى العلاقات بين الألمانيتين..

أحد هذه الأدوار أن عمدة برلين الغربية يعتبر من الناحية العملية المرشح الأول لتولى منصب الرئيس أو المستشار فى ألمانيا الغربية كلها..

وقد حدث ذلك فى أواخر الستينيات حين انتخب ويللى براندت عمدة برلين ورئيس الحزب الاشتراكى الديمقراطى مستشارا لألمانيا الغربية وقاد دفة الأمور في اتجاه الوفاق مع الشرق فيما عرف بعد ذلك بسياسة الأوستن بوليتيك..

كما حدث فى أوائل الثمانينيات حين انتخب ريشارد فون فايتسكه عمدة برلين فى السبعينيات، رئيسا لجمهورية ألمانيا الاتحادية..

أى ان برلين الغربية تحولت الى المطبخ الأساسى لاخراج القادة فى ألمانيا الغربية كلها .. ومن الناحية الأخرى فإن برلين الغربية التى كانت تمثل ازعاجا شديدا لألمانيا الديمقراطية ولدول المعسكر الاشتراكي كله طوال الخمسينيات والستينيات باعتبارها مركز للتجسس والتخريب داخل أراضيهم قد أصبحت مرتعا خصبا تمارس من خلاله ألمانيا الديمقراطية سياسة دولية فى التواجد النشط بل وحتى الاحتواء.

وتحس أن اسرائيل الألمانية كما وصفها لي أحد الصحفيين فى ألمانيا الديمقراطية فى الستينيات مشبها اياها بالوجود الاسرائيلى داخل الكيان العربى ، قد أصبحت بمثابة أرض محايدة «يطل فيها الشرق على الغرب» ومركزا للتفاعل والحوار وأحيانا للضغط وزيادة الدخل وعقد الصفقات..

أى ان مركز الانفجار والتوتر قد تحول الى رئة صحية للتنفس المزدوج بين المعسكرين. حتى أنه يقال اليوم انه لو لم يكن هناك برلين الغربية لسعت ألمانيا الديمقراطية الى خلقها.. ثمة دور آخر متميز لتلك المدينه اذ تعتبر اكبر مركز صناعى وتجارى فى المانيا الغربية رغم أن أقرب مدينه المانية غربية لها تبعد بما لايقل عن ٢٥٠ كيلو متر .. وقد اكتسبت برلين الغربية هذه الوضعيه نظرا لاهتمام الولايات المتحدة والدول الغربيه بشكل عام على أن تكون القلعه المتقدمة فى عمق الاراضى الاشتراكيه مرآة نموذجية لما يمكن ان يقدمه المجتمع الراسمالى وقد امكن التغلب على عزلتها الجغرافية بشبكة واسعة من الطرق والسكك الحديدية وبشبكة طيران مكثفة وصلت الى درجة ان مطار تيجيل فى المدينة يستقبل ويودع طائرة كل دقيقتين ..

الوجه الثالث البارز لتلك المدينة ان الجيوبوليتك «أو الجغرافيا السياسية» قد جعلتها مركز جذب خطيرة لنشاطات دولية متعددة ثقافية وسياسية وأمنية وتهريبية . يزدهر على ارضيتها الكوزموبوليتاية نشاطات ابداعية فكرية وادبية وفنية جنبا الى جنب مع مراكز المخابرات والتجسس العالمى للدول الكبرى بشكل عام ومركزا دوليا لتهريب المخدرات من جميع الالوان والاصناف .. كما جذب لها ذلك الوضع أيضا مئات الالآف من المهاجرين والنازحين بحثا عن

عمل أوعن دور أو هروبا من اضطهاد أو سعيا لخلق بؤر للنشاط الثورى أو الارهابى ..

فمن بين سكان المدينة التى يبلغ تعدادهم حوالى ٢,٥ مليون هناك حوالى ٢٥٪ من الأجانب غالبيتهم العظمى ممن يطلق عليهم «العمال الضيوف».. نصفهم جاءوا من تركيا منذ أواخر الأربعينيات والخمسينيات وأقاموا أحياء بأكملها على النمط التركى فى أسلوب الحياة والمعيشة والسكن وحتى أسماء الشوارع..

يليهم اليوغسلاف والأسبان والايطاليون الذين جذبهم الازدهار المبكر للمدينة فى أعقاب الخراب الشامل الذى خلفته الحرب العالمية، وفرص العمل الواسعة والمتاحة..

وفى السبعينيات بدأت تزداد الهجرة العربية التى تكونت فى البداية من عشرات الآلاف من الفلسطينيين واللبنانيين الذين قامت الحرب الأهلية واللبنانية يدور عامل الطرد الأساسى لهم ثم لحق بهم المصريون وبشكل مكثف منذ منتصف السبعينيات مع بضعة ألوف محدودة من عرب شمال أفريقيا..

والغالبية العظمى للعمال الأجانب، حتى من قضى منهم سنوات طويلة، يعيشون على هامش المجتمع فى المدينة ويقومون بالاعمال اليدوية الصغيرة التى كف الالمان منذ فترة طويلة عن القيام بها مثل اعمال النظافة والحراسة والخدمة فى الفنادق والمقاهى ورصف الطرق...

وحتى ذلك يتم فى اطار غير شرعى أى مايسمى بالعمالة السوداء، مع انعدام وجود عقود عمل قانونية لهم وبالتالى أى ضمانات أو تأمينات بحيث يسهل طردهم فى أى وقت وطبعا يتقاضون أجورا أدنى بكثير مما يتقاضى الألمانى عن نفس العمل......

ويمارس الوافدون الجدد وسلطات المدينة لعبة «اللجوء السياسى»..

فالوافد الجديد والذى يدخل المدينة دون تأشيرة دخول يقدم طلبا للاقامة للسلطات باعتبار أنه "لاجئا سياسيا" ويعطية هذا الطلب الحق فى الاقامة فى المدينة حتى تبت السلطات فى الامر....

وعندما تزايدت موجات الهجرة العربية وخاصة الفلسطينية واللبنانية فى السبعينات أعدت السلطات معسكرات خاصة لهم يقيمون فيها بين أشهر وثلاثة أشهر ويتعرضون فيها لاختبارات عده تدخل فيها إعتبارات أمنية وسياسية كثيرة........

وعلى ضؤ هذه الاختبارات ومدى التقدير لنوعية المهاجر واستعداداته للتفاهم يتم اتخاذ القرار أما بقبول الطلب الخاص باللجؤ، مجرد قبول الطلب وأما الطرد.....

وقد كان هذا فى واقع الامر أول موضوع أرسله لصحيفة الوطن العربى فى باريس بعد أن رأيت واختلطت بعدد من الفلسطينين واللبنانين الضائعين فى المدينة والذين وقع بعضهم فى براثن أجهزة الاستخبارات الأجنبية بما فى ذلك الموساد نفسه...

وهكذا تكونت بابل الجديدة

وتجاورت واختلطت الأجناس بشكل واضح مثلما تجاورت واختلطت المهام....

ففى قلب المدينة تجد مبانى جامعة برلين الحرة التى تعتبر احدى معاقل الفكر الثورى فى أوربا كلها والتى تحتضن حركات التحرر العالمى ابتداء من قضية فلسطين وجنوب افريقيا حتى ثوار تشيللى وجرينادا...

والى جوارها وفى وسط المدينة أيضا مراكز الاستخبار الأمريكية والاسرائيلية وجنوب أفريقيا والتى تنتشر فى المدينة كلها وبشكل مكثف...

وهناك قاعات الفيللى هارمونى والمسارح الكبيرة التى تقدم أعمال بريخت وشيللر وجوته وشكسبير وسارتر وماكس فريش ودورنمات وملاصق لها قاعات" العروض الجنسية الحية" ومسارح المتعة وبيوت البغاء العلنى.....

ويطل عليك المتحف المصرى العريق فى برلين والذى يضم آلاف القطع الاثرية النادرة بما فى ذلك رأس نفرتيتى الشهير... وعلى أطرافة تنتشر مقاهى الشواذ جنسيا ومحترفى تهريب المخدرات والأسلحة والبشر.

وتمضى فى شارع "الكودام" مأخوذا مبهورا بالحياة المتألقة على الجانبيين، ذلك الشارع الذى كان يريده هتلر أن يكون أجمل شارع فى العالم يتفوق على الشانزليزية فى باريس «وفيا فينيتو» فى روما....

ثم تعرج على ميدان المحطة والكنيسة المهدمة لترى عشرات السكارى المترنحيين أو النائمين على الأرصفة، المئات ممن يمكن أن يطلق عليهم "سقط المتاع" من بلطجية ونصابين وقوادين ونساء التهبت عيونهن وتعرت أجسادهن يتعاركن أو يتعاشقن على قارعة الطريق وتضطر إن تهرول وأنت تضع يدك على أنفك حتى لايصيبك رزاز من معاركهم أو رائحتهم.

وقد كان على أن أطرق ابواب بابل الجديده فى بعض الأحيان يوميا....

فلقد أدركت ومن الايام الأولى أننى ككاتب وكصحفى وكأنسان لايمكن أن أكتفى بالفرجة على هذا العالم الأخر فى زيارات متقطعة بين الحين والحين....

وذهبت الى مركز اتحاد الصحفيين الأجانب فى برلين الغربية أقدم طلبا لاعتمادى كمراسل للجمهورية وروزاليوسف والوطن العربى، ويضم هذا الاتحاد أكثر من ١٥٠ مراسلا يمثلون تقريبا كل الصحف ووكالات الأنباء وأجهزة الاذاعة والتلفزيون فى جميع أنحاء العالم من نيويورك تايمزحتى البرافدا ومن بى. بى سى حتى ايرلندا الحرة.

بل أنى عرفت بعد ذلك،

أن هذه الصحف ووكالات الأنباء العالمية تختار أفضل مراسيلها للعمل فى برلين الغربية وهو أمر طبيعى ومفهوم للمكانة العالمية الخاصة التى تحتلها أورشليم الجديدة حيث يعيش يهوذا ويسوع

وقد أتاحت لى عضويتى فى اتحاد الصحفيين الاجانب فى برلين الغربية، بالاضافة طبعا الى عملى كمراسل فى برلين الشرقية التى اقيم بها، فرصة ذهبية نادرة لأكون فى مركز الأحداث الساخنة والمتفاعلة على حدود التماس ليس فقط بين الدولتيين الالمانيتين بل وبين المعسكرين الشرقى والغربى.....

واعتقد أننى أول صحفى غير أوربى يحقق هذا التزاوج الصحى والغنى فى عمله وحركتة، ففى كثير من الأحيان كنت أحضر مؤتمرا صحفيا فى برلين الشرقية صباحا وآخر فى برلين الغربية بعد الظهر أو مسا ء وفى بعض الأحيان كانت تضطرنى ظروف العمل أن أعبر بوابات الحدود مرتين أو ثلاثة فى اليوم

ولابد وأن اعترفُ أن هذا الوضع كان ومازال واحدا من أهم الخطوط المؤثرة فى حياتى التى وسعت وعمقت بدرجة كبيرة استعدادى الدائم للتفتح على أى أفكار جديدة والحوار معها خارج الاطر التقليدية وبعيدا عن أى جمود ومقولات سلفية... فقد كان معروضا ومطروحا أمامى كل يوم نمط الحياة بكل ابعادها السياسية والاجتماعية والفكرية فى الشرق وفى الغرب أعايشها واراقبها وأتحاور معها أتعاطف مع بعضها وأنفر من بعض مظاهرها دونما انحياز أو تعصب سابق ومفروض....

كنت ألتقى مثلا صباح أحد الايام بهرمان كانت رئيس اتحاد الكتاب وواحد من أهم كتاب القصة المعاصرين فى المانيا الديمقراطية فى برلين الشرقية،وفى المساء أحضر ندوة فى جامعة برلين الغربية يحضرها جونترجراس ألمع كاتب فى ألمانيا الغربية، أو التقى بالرفيق لامبرز عضو المكتب السياسى للحزب الاشتراكى الألمانى الموحد وهو الحزب الحاكم فى ألمانيا الديمقراطية، وفى نفس اليوم قد يكون هناك موعد آخر فى برلين الأخرى مع فرانز جوزيف ستراوس رئيس الحزب المسيحى الاجتماعى ورئيس وزراء بافاريا فى المانيا الغربية....أو مع فيللى براندت رئيس الحزب الاشتراكى الديمقراطى ومستشار المانيا الغربية السابق. هذا الانتقال اليومى الغنى والمتنوع والذى لايمكن أن يتاح لك الافى بلد كبرلين يركز لك عصاره الواقع العالمى الراهن بمعسكرية فى بوتقة صغيرة أو قل من خلال عين سحرية نادرة.....

ولما كنت واحدا من المراسلين القلائل المعتمدين فى ضفتى برلين والوحيد من دول العالم الثالث، فلقد كان من الطبيعى أن ادرك، وبتلك الحاسية الخاصة التى نمت وتطورت عندى من خلال حياتى السياسية والاعتقالات والملاحقات، أننى موضوع تحت الملاحظة والرقابة المتصلة

وخاصة فى المراحل الاولى، كنت أشم دائما من هو ورائى، وان اختلفت العطور و الروائح من الشرق والغرب...

وذات يوم كنت عائدا من لقاء مع فون فايتسكه عمدة برلين الغربية فى ذلك الوقت نظمه اتحاد الصحفيين الأجانب فى برلين الغربية وقاربت بوابة شارلى حين سمعت ذلك الصفير المزعج والمتلاحق لعربة بوليس من خلفى، وتوقفت وجاء احد رجال البوليس وأعطيته أوراق العربة ورخصة القيادة متصورا أن هناك خطأ ما قد ارتكبته بالنسبة لقواعد المرور... ولكن رجل البوليس قال فى صوت آمر وجاد:

- جوازك....

واعطيته الجواز الذى أخذ يقلب فيه لحظه ثم قال:

تفضل، انزل من العربة وتعالى معى....

- الى أين؟

- مركز البوليس:

- لماذا ؟

- ستعرف هناك....

لم يترك فرصة لاحتجاجى وانفعالى الذى كان أغلبه بالعربى وقليلة بلغة ألمانية مكسره وركيكة، وفتح باب العربة وأمسك بزراعى فى شكل المقبوض عليه.

كان وجه الجندى الجامد ونظرته الحادة وشاربه البسماركى قد أصبح مألوفا لدى وحين رفع يدة بحيينى وهو يقبض على أبتسمت وأنا أتذكر ما قالته لى من أيام فتاة ألمانية وهى غارقة فى الضحك مشيرة الى أحد رجال البوليس الذى كان يقف كتمثال أمام أحدى البنايات

-: انظر.. انه كالدمية لكنه سعيد للغاية.. فالبروسى الحق لايجد نفسه الافى بدلة الجندى....

اخذنى الرجل فى عربة البوليس حتى كوخ شتراسا حيث المركز الرئيسى للبوليس فى برلين الغربية وقادنى الى الدور الثالث وسط ردهات وصالات وتعرجات هذا المبنى الكبير والذى كان ممتلئا ويعج بالمئات بل والالاف من البشر غالبيتهم من الاجانب...

وتوقف بى أمام احدى الغرف، ولأول مرة يتكلم منذ أن القى القبض على طالبا منى أن انتظره فى الخارج، ودخل الغرفة......

كنت طوال تلك الفترة أجهد ذهنى فى محاولة لفهم ما يحدث..... اى خطأ يمكن أن يكون قد ارتكبته... واحسست أننى تماما مثل "جوزيف ك" ذلك الرجل الذى وجد نفسه فى يوم من

الايام متهما فى قضية لا يعرفها مثلما صورة كافكا فى رواية "القلعة" و"التحقيق..." ولما لم يكن هناك ما أقلق بشأنه، اقنعت نفسى وببساطة أن هناك خطأ ما سرعان ما ينكشف ويتضح....

وفتح باب الغرفة وأشار لى الشرطى بالدخول، ووجدت نفسى فى مواجهة رجل مدنى قدم نفسه على أنه المسؤول عن الاجانب. كان الرجل بدينا ملتحيا يرد على التليفونات الكثيرة التى ملأت مكتبه بصوت رفيع حاد منفعل ذكرنى على الفور بصوت جوبلز وزير دعاية هتلر وبادرنى وهو يقلب صفحات جواز سفرى بعصبية...

– كيف دخلت الى برلين الغربية؟

– أننى صحفى معتمد هنا....

وقدمت له بطاقتى الصحفية الصادرة عن اتحاد الصحفيين الأجانب ولم يعرها التفاتا مما يؤكد أنه كان يعرف ذلك سلفا وواصل حديثه وبنفس اللهجة الجادة

:– ليس لديك تأشيرة اقامة فى المانيا الغربية

قلت وأنا لا أفهم حتى الأن مايهدف اليه

–: أننى صحفى اقيم فى برلين الأخرى فى المانيا الديمقراطية وعندك فى الجواز ما يدل على ذلك، كما أننى معتمد هنا أيضا كمراسل ولى الحق فى ذلك، لأن برلين الغربية لها وضع خاص قال منفجرا فى انفعالات موجهة بدقة وموزعه على صوتة ووجهه:

– ان برلين الغربية جزء من المانيا الغربية لابد ان تعرف ذلك جيدا ولايحق لك الدخول هنا بدون تأشيرة... لن أضيع وقتى معك.. المسألة ليست فوضى.... وبصم جوازى فى عصبية بخاتم أحمر كبير....

ثم اعطى الجواز للجندى وهو يردد فى ضيق شديد :

– هؤلاء الأجانب!!!

قلت وقد أحسست بخطورة الاجراء الذى اتخذه الرجل :

– ماذا فعلت...ماذا يعنى هذا الخاتم

قال وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة تشفى غريبة، وبألفاظ يقولها فى تأنى وكأنما سيصدر حكما على قاتل ابيه....

–:يعنى أيها الأجنبيى العزيز، انك شخص غير مرغرب فيه هنا وأن عليك أن تغادر برلين الغربية فورا ولاتعود اليها بأى حال من الأحوال.. أفهمت... اتفضل

وسحبنى الجندى من يدى مأخوذا ومذهولا وأنا أردد كلمات متقطعة... أرجوك... يبدو ان

هناك... مش ممكن.... ولكنه بدا واضحا أن الرجل والجندى كانا يعلمان جيدا ماذا يفعلان ويصران عليه

وفى دقائق كان الجندى قد أوصلنى بعربة البوليس الى بوابة شارلى القريبة... ولم يكن أمامى سوى أن أعبر البوابة الى برلين الشرقية حتى دون أن أتذكر أننى تركت عربتى فى أحدى الشوارع فى الغرب...

رميت بنفسى على أول كرسى فى مقهى فى شارع ليبزج وانا أحاول أن ألملم شتات نفسى وأسترجع ما حدث، وكلما وقع نظرى على ذلك الخاتم الاحمر الذى ملأصفحة كاملة فى الجواز واعيد قراءة ما هو مكتوب أسارع بغلق الجواز ويغلى الدم فى عروقى....ويمر شريط الاحداث فى ذهنى مثل حلم مزعج ويتجسد لى وجه ذلك الالمانى البوليسى فى أشكال غريبة نابضة بالكراهية والتشفى..

مامعنى هذه الكلمات الحمراء المشينه... عاجل.. غير مرغوب فيه... يغادر برلين الغربية فورا...

لقد جئت الى برلين الغربية عشرات المرات من قبل ولم يتعرض لى أحد، بل أننى ومنذ شهر اعتمدت كمراسل أجنبى فيها...

كتبت بالفعل اول موضوع لى عن العرب فى برلين الغربية هل يمكن أن يكون ذلك هو سببا لطردى بهذا الشكل المهين.....

وهل أمثل خطرا حقيقا على الوضع فى برلين الغربية لأطرد منها...وفورا..

هل وراء ذلك العداء التقليدى الألمانى وخاصة البوليس للأجانب والوافدين من العالم الثالث بشكل خاص...

أم أن السيطرة والنفوذ الصهيونى فى المدينة وراء ذلك....ولكن لماذا انا بالذات؟!

هل يمكن ان يكون هناك خطأ ما من جانبى او جانبهم... وانتبهت الى تليفون فى ركن المقهى....

واتصلت بالسفارة المصرية وسألت عن السفير فلم اجده فطلبت رؤوف غنيم المستشار الاول، وحكيت له ما حدث فى صوت متهدج وفى شبه انهيار....

وأبدى رؤوف استغرابه الشديد فهو يعرف مثلما أعرف أن الدبلوماسيين الأجانب والصحفيين المعتمدين فى الشرق يقومون بزيارات شبه يومية الى برلين الغربية فما بالك وأنا صحفى معتمد هناك أيضا....

واكد رؤوف انه سيتصل برئيس البعثة الدبلوماسية لالمانيا الغربية فى برلين الشرقية ليحتج على هذا التصرف ويطلب تفسيرا لذلك...

ولمعت فى ذهنى فكرة، وطلبت من رؤوف ان يؤجل هذا الاحتجاج حتى استكشف بنفسى

الموقف... فلقد كنت اعرف الهر جيس رئيس البعثة والتقيت به اكثر من مرة فى بعض الحفلات. وضعت السماعة واتجهت فورا الى شارع فردريش حيث يقع"البيت الألمانى الأبيض" مثلما يطلق عليه سكان برلين الشرقية وهو مقر البعثة الدبلوماسية لالمانيا الغربية...

وطلبت ان التقى بالهر جيس وهو بمثابة السفير وان كان يطلق عليه الممثل فوق العاده لجمهورية المانيا الفيدرالية فى المانيا الديمقراطية.. وهى تسمية اتفق عليها الطرفان الالمانيان كبديل عن تبادل السفراء....

استقبلنى الرجل فى مكتبه، وقد كان معروفا عنه دماثة الخلق اضافة الى انه يعتبر واحد من اهم الكوادر السياسية للحزب الاشتراكى الديمقراطى الحاكم فى المانيا الغربية واحد المقربين الى هيلموث شميت مستشار المانيا الغربية، واستمع الى حكايتى ولاحظ بالتأكيد أنفعالى رغم انى جاهدت فى أن اكون هادئا ومتماسكا.... وسألنى وقد بدا على وجهه اهتمام واستنكار لما حدث

-: هل تعرف هذا الرجل

-: شخصيا لا... ولكنه قدم نفسه على انه المسؤول عن الأجانب او مدير ادارة الجوازات والهجرة... شئ من هذا القبيل..

وأخرج الهر جيس تليفونا خاصا من أحد الادراج فى مكتبه غير تلك التليفونات المتراصه امامه وطلب أحدهم فلم يجده ثم طلب رقما اخر.. وكان على الطرف الأخر فيما يبدو شخصيه هامة للغاية.... والتقطت من حديثه الطويل الذى اتخذ طابع الحدة بعض الشئ انه يروى حكايتى ويؤكد ان هناك غلطة كبيرة فى حقى وانه يعرفنى كواحد من انشط الصحفيين ويطالب بتصحيح الامر فورا...

ثم قال وهويضع السماعة وفى ابتسامة ودوده...

-: انا اسف جدا ياهر فتاح لما حدث... يمكنك أن تذهب فورا الى برلين الغربية... ان الرئيس العام للبوليس فى انتظارك وهناك لتصحيح الخطأ وستنال حقك تماما... اطمئن.. وقبل ان انطلق بكلمات اهتزت لها شفتاى قال

-: كنت اود ان اتى معك لولا موعد وشيك فى الخارجية هنا ولكنى سارسل معك المستشار الاول.. ارجو ان تعذرنى.. وتصافحنا فى مودة حقيقة.

وركبت مع مستشار البعثة عربة الليموزين السوداء وعبرنا البوابة، وفى دقائق كنا فى مكتب رئيس البوليس وهو الشخصية الثانية فى برلين الغربية بعد عمده المدينة وذلك فى الدور الرابع لمبنى البوليس المركزى فى كوخ ستراشا.

نفس المبنى الذى طردت منه شر طردة منذ ساعة.

واستقبلنا الرجل بترحاب شديد وبود بالغ وقال هو يضع يده فوق كتفى.

-: اذن فانت صديقنا المصرى المجنى عليه.... وضغط على زر فى مكتبه وجاءت سكرتيرته الحسناء وطلب منها إحضار الهر... مدير ادارة الجوازات....

ودخل الرجل مهرولا وهو يمر بيدية على ازرار الجاكيت....

وحالما لمحنى المجد نحوى فورا فى انحناءة ذليلة، اى والله ذليلة وفى صوت مستعطف مستضعف ذكرنى ببعض النماذج الفجة لمديرى مكاتب الوزراء ورؤساء مجالس الادارة عندنا...

- انا اسف.. اسف جدا ياهرفتاح لما حدث... لقد ارتكب جريمة شنعاء فى حق رجل شريف اعذرنى، فالعمل كثيف عندنا، عشرات الالاف كل يوم تصورا!.. حدث سؤ فهم فظيع ارجو ان تغفر لى هذا الذنب... اننى تحت امرك وعلى استعداد لان أعوضك بالشكل الذى تريده..اننى...

سيل من الاعتذارات المذلة الخانعه لرجل كان يعاملنى ومنذ ساعة واحدة مثلما يعامل السيد الأبيض فى جنوب افريقيا عامل اسود فى مناجم الفحم أو مثلما عامل نيرون عبيد روما الثائرين... وتحول الاسد المتعصب القادر الى ثعلب يتماوت فى ارض الغرفة بل الى فار صغير يثير الشفقة والرثاء وهو يرتعد امام قط كبير...

وأنهى رئيس البوليس هذا الموقف الذى اثار سخريتى وتقززى بأمر حازم لمرؤسه الصغير

-: خذ جواز الهر فتاح، واعطيه اقامة لمدة عام فى المانيا الغربية تتجدد تلقائيا مع استمرار عمله كمراسل صحفى

واستغرق اللقاء كله حوالى النصف ساعة عاملنى فيها رئيس البوليس كما لو كنت ممثلا فوق العادة للشعب المصرى مع تأكيد بان مكتبه مفتوح دائما لى فى أى وقت الأمر الذى أعاد ترتيب الأمور بشكل رائع فى أعماقى وازال تماما أثار العدوان والصدمة الداخلية التى لم يكن قد مضى عليها وقت طويل... بل أننى قد حققت فى واقع الأمر مكسبا كبيرا لم يكن يخطر لى على بال ولم أطلبه.. فلربما أصبحت الوحيد من بين الصحفيين الاجانب فى البرلينيتين الذى يملك اقامة دائمة فى الالمانيتين شرقا وغربا...وقبل ان يودعنى الرئيس على باب غرفته، قلت لـــه

-: ماذا كان يعنى ذلك الخاتم الاحمر الذى الغى...وضحك الرئيس فى إستغراق قائلا

:- كان يعنى انك واحد من اثنين، اما مهرب دولى كبير، أو ارهابى خطير...وقد كان ذلك يعرضك للقبض عليك فى أى دولة من دول السوق الاوربية المشتركة....

ووجدتنى اصرخ فى انزعاج وبدون وعى

-: يخرب بيتك.....!!

ضحكة ضائعة.. طقس كاذب جارف وجميل
حفل راقص وبدون راقصين وبدون ترانيم وبلا
جدوى

لويس اراجون - العيد

نوفمبر سنة ١٩٧٧

مرة اخرى وفى عام واحد.. تقطع قنوات التليفزيون الالمانى والاوربى برامجها لتعرض احداثا عن مصر.. ويتجمع الناس فى برلين حول اجهزة التليفزيون ليروا من خلال عرض حيى مباشر بالاقمار الصناعية زيارة الرئيس المصرى انور السادات لاسرائيل..

بدأت الحكاية بكلمة لم ينتبه اليها احد، ثم توالت التكهنات التى كانت تاخذ احيانا شكل الحواديت ثم أصبحت وفى خلال يومين فقط حقيقة واقعة.. وتحس انك امام مؤلف مسرحى قادر ومتمكن درس كل قوانين المسرح وتطوراته منذ ارسطو حتى اشكال مسرح اللامعقول واحيانا الفارس..

والممثل البارع والذى يقوم بدور الفتى الأول ماثل امام عيون العالم كله يؤدى دورا فريدا ومتميزا..

والممثلون الاخرون مناحم بيجن وعزرا وايزمان وجولدا مائير يقفون على سلم الطائرة ليتكامل واحد من اهم الاحداث التاريخية على الاقل فى النصف الثانى من القرن العشرين. وهو حدث تاريخى ولاشك ومسرحى ايضا..

ولكن القضية هو الى اى لون اوجنس يمكن تصنيفه فالاحداث التاريخية الهامة مثلها مثل الاعمال المسرحية فيها التراجيديا المأساوية و فيها الكوميديا الانسانية وفيها ايضا"الفارس" او المسرح المبتذل، ولاشك ان الاجابة الحقيقية على كل هذا ليست فى يد الممثل الأول ولاحتى بقية الممثلون..

فلقد كان هناك وراء كل هذا مخرجا محترفا وكاتب سيناريو يتقن صنعته من هو؟..

منذ ايام فقط وقف الرئيس انور السادات فى مجلس الشعب المصرى ليعلن فى خطاب إفتتاح الجلسة وبحضور ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية أنه على استعداد ان يذهب الى اسرائيل بحثا عن السلام العادل فى الشرق الاوسط، وايقن كثيرون حتى اكثر الناس

تشككا فى سياسة السادات انها مناورة بارعة لتاكيد السعى الحقيقى للسلام واظهار اسرائيل بمظهر الدولة المعتدية والمتعنتة.. حتى وزير الاعلام فى ذلك الوقت حذف الجملة حين أعيد اذاعة الخطاب فى نفس اليوم ثم تطورت الاحداث فى شكل موجات من الصدمات الكهربائية المتلاحقة والسريعة مرسومة جيدا وباتقان تخللها رحلات مكوكية للرئيس السادات لدمشق وعمان لتبدأ احداث المأساة او الملهاه أو الفارس أوسمها مثلما شئت.. لكنها ورغم كل شئ حدث تاريخى..

يعلن رسميا أن السادات قرر زيارة اسرائيل ويستقيل وزير خارجية مصر، وينفجر الخبر قنبلة متوهجة فى جميع الصحف ووكالات الانباء والاذاعات العالية.. واخيرا تصل الطائرة الى مطار اللد"بن جوريون" فى اسرائيل وهاهو الرئيس مصطحبا معه سيدة مصر الاولى ورجل اعمال مصر الأول يهبط سلم الطائرة.. ويدق التليفون، الصديق عادل الجبار من برلين الغربية.

-هل ترى ماأراه..

-طبعا.. ارى كل شيئ بوضوح

-على اى قناة

- كل القنوات عندى ممتلئة به

- انظر اليه جيدا.. الاتلاحظ شيئا من القلق والرهبة على وجهه

- مارايك فيما يجرى؟

- هل هذا وقت الرأى دعنا نرى ما يحدث

ويتقدم السادات يصافح رئيس اسرائيل ثم مناحم بيجن الذى يقدمه الى جولدا مائير وموشى ديان..

ويدق التليفون، هذه المرة من باريس، يقول امير اسكندر- هل سمعت ماقاله لجولدا مائير عندما جلجلت ضحكته، انا لم اسمع بوضوح.

ويصافح السادات اسحق رابين وعزرا وايزمان ويدور حوار سريع..

ويدق التليفون، هذه المرة من موسكو، ويصيح عبد الملك خليل- انى اتابع من خلال الراديو، تليفزيون موسكو لا يذيع الزيارة على الهواء، هل كل شيئ واضح عندك.. قل لى كيف يبدو السادات.. هل يبتسم، هل هو متجهم.. هل يبدو عليه القلق.

- بعدين يامك.. بعدين يامك الزمان

هكذا ولمدة يومين شاهد العالم كله وتابع سواء كان بشغف وسعادة ام بهموم وتوتر ذلك الحادث التاريخى المسرحى الحى المتحرك.. السادات فى القدس، يصلى فى المسجد الاقصى

يخطب فى الكنيست الاسرائيلى..

كل الصحف والاذاعات وقنوات التليفزيون فى اوربا لاهم لها الا تغطية احداث هذه الزيارة..

والعناوين الكبيرة مثيرة فى الصحف الغربية "السلام على ارض الانبياء" "اخيرا التقى فرعون وموسى" " لقاء تاريخى لاقدم حضارتين".

وصور السادات وسيدة مصر الاولى فى كل مكان.. ومعها مناحم بيجن وجولدا مائير وموشى ديان وحاييم هرتزوج وعزرا . وايزمان..

قلت للسفير المصرى ونحن نتابع خطاب السادات فى الكنيست فى منزله فى برلين.

لعلها المرة الاولى التى تحتل اخبار مصر وتحركات رئيسها العناوين الرئيسية فى اجهزة الاعلام الاوربى ولمدة ايام متوالية..

قال السفير ابو جبل فى هدوء

– حدث ذلك من قبل مرتين.. حينما امم عبد الناصر قناة السويس واثناء العدوان الثلاثى على مصر..

واستدرك فى ابتسامة هادئة

– مع الفارق طبعا..

كان خطاب السادات وبغض النظر عن ملابسات الزيارة، قويا ومتماسكا صاغه من صاغه فى عبارات دقيقة استهدف به مخاطبة العقل الاوربى.. دافع فيه عن الحقوق المشروعة لشعب فلسطين وعن مفهوم السلام الشامل والعادل.. ووضع فكرة الارض مقابل السلام وهاجم فكرة البحث عن حل منفرد بين مصر واسرائيل، قال انه لم يأت لاسرائيل من موقع الضعف وان قرار السلام ربما كان اخطر من قرار الحرب..

لكن بيجن لم يترك له الفرصة حتى فى بناء الاحلام.. جاء خطابه حادا ومحددا عبر فيه وبشكل مباشر عن روح المنتصر وهو يستقبل عدوا مهزوما جاء يطلب الصلح فالضفة الغربية وقطاع غزة هما يهودا والسامرا، وعلى من يريد السلام ان يأتى ليجرى حوارا مباشرا... وبدون شروط.. وعلى عكس صورة البطل والفارس ورجل العصر التى كانت تضفيها اجهزة الاعلام الغربية على السادات، كانت هناك صفات اخرى تنهال عليه من كل العالم العربى.. الخائن.. العميل اليهودى.. ويهوذا..

وتبرأت كل الانظمة العربية من الزيارة، حتى المغرب والسعودية التى كان فيما يبدو لهما دور فى المراحل التمهيدية للاعداد لهذه الزيارة سواء من خلال اللقاءات السرية التى تمت فى

المغرب مع موشى ديان وزير الخارجية انذاك وبحضور ممثلين مسئولين مصريين او الدور الخاص الذى لعبه الملياردير السعودى عدنان خاشقجى فى اعداد لقاءات فى قصره الاسطورى فى مايوريكا باسبانيا

وراحت السكرة وجاءت الفكرة... وماذا بعد؟

فالزيارة نفسها وعلى قدر ماأثارت من ضجة عالية، لم تسفر عن شيئ على عكس كثير من التوقعات والتحليلات.. اللهم الا اعلان تقليدى عن تبادل الزيارات واستمرار الحوار..

ومناحم بيجن اعلنها بوضوح فى اول تصريح له بعد الزيارة انه ليس على استعداد لان يبيع امن اسرائيل!! مقابل زيارة مثيرة وعاطفية.. فالامر ببساطة ان السادات طلب زيارة اسرائيل فاستقبلناه.. وبدون شروط.. اما السادات نفسه فقد اعلن انه قام بهذه الزيارة لكسر ما اسماه بالحاجز النفسى بين العرب واسرائيل، وان فكرة الزيارة قد لمعت فى ذهنه مثل الوحى وهو فى الطائرة على ارتفاع أكثر من ٣٠ الف قدم بعد لقائه مع الرئيس الرومانى شاوشيسكو..

واعلن البيت الابيض استعداد الولايات المتحدة المشاركة والمساهمة فى دفع الحوار المباشر بين مصر واسرائيل..

فى حين حرصت كل الانظمة العربية على ادانة الزيارة وغسل ايديهم من تبعاتها بما فى ذلك الاردن والمغرب وتونس والسعودية، وهو الامر الذى كان لا يتوقعه الرئيس السادات فيما يبدو.. ولكن الحقيقة التى تكشفت بعد ذلك سواء من خلال مذكرات برجنسكى مستشار الأمن القومى للرئيس كارتر او سيروس فانس وزير خارجيته أسقطت اسطورة الوحى كما كشفت عن دور بعض الأنظمة العربيه، واكدت ان مهندس الوحى الساداتى وكاتب السيناريو للقفز فوق الحاجز النفسى هى الولايات المتحده نفسها.

وفى ندوه نظمها اتحاد الصحفيين الأجانب فى برلين الغربية حول أهداف الزيارة ونتائجها كنت فيها ضيف الشرف قلت فيها ردا على عشرات الأسئلة التى امطرنى بها الزملاء أعضاء الاتحاد والتى لم أكن فى واقع الأمر املك اجابات لها..

– ان القضية لم تكن ابدا وفى اى يوم من الايام هى عدم الرغبه فى السلام.. فالشعوب العربيه وبغض النظر عن اخطاء واحيانا تواطؤ حكامهم لم تنمو بها اى مشاعر عنصرية او حواجز نفسيه كما زعم البعض، فلقد كان ومازال العالم العربى ومصر على وجه خاص نموذجا فى التعايش والتآخى الوطنى مع كثير من الاديان بما فيهم اليهود وتحت شعار اخذ شكل التقديس فى مصر هو، "الدين لله والوطن للجميع"

ولكن القضية كانت ومازالت فى العدوان المرسوم والمتعمد والمستمر ليس فقط لمحو شعب تاريخى كامل مثل الشعب الفلسطينى بل واخضاع المنطقة كلها لقوى البغى والعدوان ولذلك

فأنى اعتقد ان هذه الزيارة مجرد فصل اول فى عملية متكاملة لعبت وستلعب فيها اطراف دولية وعربية ادوار محددة..

وحين سئلت وما هو هذا الخطر الذى تراه وشيكا قلت وبلا تردد..

عزل مصر عن المنطقة..

كان هذا هو الشيئ المؤكد الواضح فى ذهنى.. فبينما كان الجميع بمافى ذلك المراسلين العرب فى الاتحاد وقد كان هناك سته منهم، يتساءلون عن امكانية اسهام هذه الزيارة فى ايجاد حل لمشكلة فلسطين وانهاء الاحتلال الاسرائيلى للارض العربية المحتلة، كان ذهنى يجرى وراء خيط رفيع احسست به قبل ان اراه واضحا وتراقص امامى وانا اتابع الزيارة.. خيط اعادنى الى ذكريات بدأت منذ نزول قوات نابليون بونابرت الاسكندرية منذ مايقرب من مائتى عام..

فمنذ ذلك التاريخ كان اى مخطط استعمارى فى المنطقة يستهدف اخضاعها لابد وان يبدأ بالسيطرة على مصر.. وقد جاء ذلك نتيجة دراسات ووعى وادراك من جانب هذه القوى الاستعمارية باهمية هذا الكيان الجغرافى والبشرى المتماسك تاريخيا وحضاريا ودوره فى تجميع شتات واجزاء الكيانات الاخرى الصغيرة والمتفرقة فى المنطقة باكملها. ولقد نبهت تجربة محمد على المبكرة فى انشاء دولة عصرية متقدمة على أرض مصر ثم توسيع قواعد الوحدة بين الكيانات العربية المجزأه حساسية مبكرة لدى قوى الغرب الاستعمارى واكدت له تجارب الماضى حين فشلت كل غزوات العصور الوسطى على المنطقة ابتداء من الصلبيين حتى التتار والمغول لانها فشلت فى اخضاع مصر..

ولذلك اجتمعت اوربا كلها، والتى كانت متحاربة فيما بينها، لتضرب تجربة محمد على ولتلحق به الهزيمة فى نفارين وتعرض عليه معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ والتى تنص بشكل واضح لا لبس فيه على ان تقبع مصر داخل حدودها وان تنفض يدها من قضايا ومشاكل جيرانها.. وبعدها فقط عاث الاستعمار الاوربى فى المنطقة العربية فسادا وفرض سيطرته المطلقة ابتداء من عدن والخليج حتى تونس والجزائر

وعندما حاولت مصر نتيجة ظروف تاريخية معينة وايام اسماعيل ان تعيد سيرة النهوض والتقدم واسفر الموقف عن ثوره شعبية لبناء دوله عصرية تعتمد على العلم والدستور تدخلت القوات البريطانية بمباركه شامله من الغرب الأوربى بما ذلك فرنسا التى كانت فى تنافس حاد فى ذلك الوقت مع الانجليز..

وقد تكرر ذلك مع تجربة عبد الناصر التى حاولت ان تبعث تجربة محمد على فى ظروف دولية متغيره. أى ان ضرب وتصفية اى محاولة جاده للأنبعاث على الأرض المصرية وعزلها عن المنطقة قد اصبح استراتيجية دائمه لقوى الغرب الاستعمارى..

كان ذلك هو الضوء الذى حاولت فى ظلاله ان اشرح زيارة السادات للقدس.. كان من الواضح ان الكثيرين من المراسلين لايوافقونى على ذلك او على الاقل لم يستوعبوا ما قلته. الوحيد الذى ابدى تفهما لبعض هذه الاراء هو مراسل اذاعة ال بى بى سى ببرلين والذى سألنى هل يصح هذا القول مع بروز عدة دول نفطية تتمتع بثراء اسطورى فى المنطقة..؟!

قلت.. ان الحقبة النفطية التى نحن بصددها قد جعلت من هذا القول ضرورة.. اكثر.. ولربما اصبحت هناك حاجة مشتركة وملحه لدى الغرب ولدى البعض فى العالم العربى فى ضرورة عزل مصر وفى هذا الوقت بالذات..

ولكن مراسلا عربيا كان يعمل فى الاصل ممرضا فى احدى المستشفيات الالمانية انتفض هائجا ثائرا وهو يقول

انهم دائما كذلك المصريون.. يتحدثون عن مصر وكأنها مركز الكون.. لقد انتهت مصر ياصديقى لابد ان تعرف ذلك.

ولم يكن المراسل او الممرض العربى يدرك انه حتى بكلماته المنفعلة كان يؤكد الهواجس التى كانت تدور فى ذهنى..

***

وجاء خالد محيى الدين الى برلين لحضور اجتماعات مجلس السلام العالمى ودعيت عددا من الاصدقاء المصريين العرب للقاء فى منزلى على شرف الضيف الكبير بما فى ذلك السفير المصرى فى برلين الاستاذ صلاح ابو جبل واعضاء السفارة. فخالد محيى الدين ليس فقط القائد السياسى البارز فى مصر والعالم العربى واحد ابطال ثورة يوليو بل انه رئيس لحزب شرعى فى مصر هو حزب التجمع الوطنى.. واعتذر السفير عن الحضور قائلا :

:- كان المفروض ان اذهب الى المطار لاستقبله فرئيس اى حزب فى مصر لابد وان تكون له حيثية قومية، والسفراء هنا يذهبون الى المطار لاستقبال رؤساء احزاب المعارضة.. كان بودى ولكنك تدرك الظروف، لقد غضبوا على سفير مصر فى فرنسا لانه استقبل محمد حسنين هيكل.. بلغه تحياتى الحارة وايضا تقديرى.

وحضر مجموعة من الاصدقاء اذكر منهم عبد الحكيم قاسم الكاتب القصصى وعادل الجيار الذى كان يعد رسالة الدكتوراه فى جامعة برلين الغربية ودكتور ناجى نجيب استاذ الأدب المقارن فى الجامعات الالمانية ونبيل السلمى رسام الكاريكاتير المعروف ومصطفى هيكل المثقف المصرى الذى يعيش فى برلين واخوه دكتور فتحى هيكل الاستاذ بالجامعات الالمانية وأحمد حسن الخبير بالمعهد القومى للتخطيط والذى كان يعد رسالة الدكتوراه فى الاكاديمية الاقتصادية ومنى الخميسى وعدد اخر من المصريين سواء العاملين او الدارسين فى البرلينيتين الشرقية والغربية..

وشرح خالد محيى الدين وجهة نظره ووجهة نظر التجمع فى اسباب ونتائج زيارة القدس ورفضة ورفض الحزب لهذه الزيارة وادانته لها واثار خالد فى رده على التساؤلات عدة قضايا منها

* ان السادات بهذه الزيارة خرج على نصوص الدستور المصرى الذى يحرم اى اتصال بالاعداء بانفراده بالقرار فى قضية مصيرية كهذه كما انه خرج على ميثاق الجامعة العربية.

* ان الجماهير المصرية التى خرجت تستقبل السادات لدى عودته من القدس واقعة تحت تأثير ظروفها الاقتصادية والاجتماعية الحادة وتحت عملية تضليل واسعة النطاق حاولت ان تحمل القضية الفلسطينية والعرب بشكل عام اسباب المعاناة الاقتصادية التى تعايشها الجماهير اذ ان السلام يمكن ان يفتح الطريق لحل المشاكل والرخاء.

* ان التجمع هو القوة الوحيدة فى مصر التى ادانت الزيارة فى حين ان كل الاحزاب والقوى السياسية الاخرى اما ايدتها او لم تفصح عن معارضتها الواضحة بما ذلك حزب الوفد الجديد والاخوان المسلمين ولذلك ركز السادات اجهزة اعلامه فى الهجوم على حزب التجمع وجريدته بشكل خاص مستفيدين من عملية التضليل الواسعة وخلق احلام كاذبة عن الرخاء وانتهاء المشاكل واعطى خالد محيى الدين أمثلة من اشكال الهجوم الشخصى عليه والذى جاوز الحدود..

وقد احسست بصوت خالد يتهدج ويمتلئ بالتأثير العميق حتى خيل الى انى المح دموع التأثير المتحجرة فى عينيه وهو يعطى امثلة من اشكال الهجوم الشخصى عليه والذى تمتلئ به الصحف والمجلات واجهزة الاعلام بشكل عام عليه ويوميا.. وبعد انتهاء العشاء والجلسة قمت بتوصيل خالد بعربتى الى فندق شتات برلين الذى يقيم فيه..

قلت له وانا اوصله الى غرفته

– عاهدتك دائما مناضلا صلبا لايلين حتى فى اصعب الظروف لكن يبدو ان هذه المرة قد نجحوا فى اثارة اعصابك..

وانفجر هذا الصديق الكبير الذى احببته وعملت معه فى بداية عملى الصحفى فى جريدة المساء واختلفت ايضا معه بعد ذلك فى عدد من المواقف

– نعم لابد ان اعترف، انت لاتتصور مدى هذه الحملة المسعورة التى تتجدد صباح كل يوم مستغلين عزلة الحزب فى الموقف الذى اتخذه واعلنه لقد عانيت كثيرا من قبل واختلفت مع عبد الناصر فى اوج مجده ونفيت انا وعائلتى لسنوات وقاسيت اياما مرة كثيرة..ولكن الخلاف لم يصل ابدا الى تلك الدرجة.. هل تتصور اننى احيانا احاول ان اخفى الجرايد والمجلات التى تمتلئ بالشتائم والادعاءات الوقحة عن زوجتى وابنتى..

قلت له وقد مس اعماقى صورة البطل المصلوب الذى ظل يدافع عن حقوق الناس وإذا به يضرب امامهم بل وبسهامهم احيانا..

- ولايهمك.. كل تلك الغمة ستنكشف وسيتضح فيما بعد صحة الموقف المبدئى الذى اتخذته..

وقال فى عفوية قدرية عرف بها

نحن مقبلون على ايام سوداء مثل قرون الخروب.. ربنا يسهل.. ويقدرنا

انت ماهـر فى الرقص ياولدى جسدك رشيق
مطواع وفى داخلك شيئ يريد ان يخرج كأنه
النقمة او الغضب مع انك لاتشكو شيئا
حنامينا - الشمس فى يوم غائم

١١ مارس ١٩٧٨

أنتردن لندن..

تحت ظلال الزيزفون..

شارع عريض ممتد، فى وسطه وعلى الجانبين اشجار الزيزفون تضفى لمسة شاعرية هادئة وايحاءات رومانسية فياضة وخاصة مع نسمات الربيع وارهاصاته حين تنفض الاشجار العارية عن افرعها نتف الثلوج وتخضر براعم الاوراق على الاغصان وتبدو الزهور الشابة المتعشة بالوانها البنفسجية والمبانى الممتده على الجانبين يتداخل فيها تناغم واتساق العمارة الجرمانية التاريخية التى اختلط فيها الفن القوطى والرومانى باعمدته الباسقة وصالاته الفسيحة وقبابه المتداخلة جنبا الى جنب مع العمارة الحديثة بواجهاتها الزجاجية واشكالها المستطيلة. فهناك مبانى جامعة همبولت وهى واحدة من اقدم الجامعات الاوروبية ومبنى الاوبرا وقصر الضيافة ومتحف برجامون والكاتدرائية القديمة.. وهى كلها تكاد تكون من المبانى التاريخية النادرة التى لم تدمر تماما اثناء الحرب العالمية وامكن اصلاحها مع الحفاظ على تراثها ومعمارها القديم الذى يرجع بعضه الى القرن الخامس عشر. ثم هناك ايضا القصر الجمهورى الحديث الذى بنى على احدث طراز وبرج وزارة الخارجية ونصب الجندى المجهول وبعض المبانى الجديدة لعدد من السفارات والمراكز الثقافية ثم ينتهى كل ذلك عند بوابة براندنبرج الشهيرة والعملاقة والتى تقع تماما عند الحد الفاصل بين برلين الشرقية والغربية.

فى هذا الشارع العريق الذى يتبلور فيه التراث البروسى كان هتلر يستعرض قواته العاصفة وسط الصيحات الهيسترية والاحلام المجنونة التى اثارها فى السيطرة على العالم. وفى هذا الشارع الحديث الذى يمتلئ بالمكتبات وصالات الفنون والموسيقى تتوهج شعلة لا تنطفئ يقف امامها جنديان ينتصبان دائما طيلة الليل والنهار فى ذكرى ضحايا الحرب ودفاعا عن سلام باسم مشرق. وعند تقاطع انتردن لندن مع شارع فردريك الذى لا يقل عنه اصالة وحداثة يقبع فندق صغير انيق وحديث يحمل اسم شارع احببته وارتبطت به منذ البداية..

كانت كافتيريا الفندق التى اتخذتها مقرا لمواعيدى ولقاءاتى قد اصبحت بمثابة مكتب لى اقرأ فيها جرائدى ورسائلى والتقى فيها مع اصدقائى واكتب فيها مقالاتى..

وقد اغرانى على ذلك الهدوء الذى كان يسود الكافتيريا اغلب الوقت اضافة الى الموقع الممتاز الذى تستطيع فيه من خلال الزجاج ان ترى اهم ناصية يلتقى فيها شارعين تاريخين.. كما ان وجودها فى موقع قريب من كل الاماكن الهامة التى احتاجها قد جعل منها شبه مكتب دائم لى، فعلى بعد عشرات او مئات الامتار هناك المركز الصحفى العالمى وادارة الصحافة بوزارة الخارجية واشهر بوابتين للانتقال الى برلين الغربية والقطار العلوى..

ثم هناك وعلى مرمى النظر الاوبرا ومسرح برلينر إنسامبل مؤسسة بريخت الشهيرة ومسارح الدوتش تياتر، وفريدرك بلاس ومسرح جوركى واتحاد الصحفيين الالمان والمركز الثقافى المصرى

وفى اقل من عامين ومن خلال تلك القاعدة الثابتة فى كافتيريا انتردن لندن كنت قد استطعت ان ابنى شبكة واسعة من العلاقات مع الالمان بين صداقات حميمة الى اشكال العلاقات القائمه على الود والاحترام وشملت كتابا وصحفيين ومفكرين وسياسيين وفنانين وممثلين وحرفيين واطباء بعضهم او بعضهن من الاسماء اللامعة المعروفة وتشعبت تلك العلاقات الى مدن المانية اخرى فى ليبزج وفايمر ودرسدن وروستوك بل وحتى بعض القرى

ووصل الامر الى أن الركن الذى كنت اجلس فيه قد اصبح محجوزا بشكل دائم بورقة معلقة عليه لا يرفعها الجرسون إلا عندما احضر او عندما ياتى احدهم ليسأل عنى فيقوده الجرسون الى الركن قائلا..

:- هنا مكتب هرفتاح.. تستطيع ان تنتظره

على ان اهم عامل لاختيارى كافيتريا هذا الفندق هو بعدها عن مركز التجمعات العربية فى المدينة. ولم يكن ذلك من قبيل الرغبة فى العزلة عن هذه التجمعات ولكن الامر اننى منذ بداية عملى فى المانيا كنت قد وطدت العزم والرغبة على ان اعيش واعايش المجتمع الألمانى واحاول الغوص فى اعماقه واعماق التجربه مستغرقا ومجربا لابعادها الثقافية والاجتماعية متفتحا على التجربه فى محاولة لاستعيابها وهضمها من خلال جزورها ومنابعها دون الاكتفاء مثلما يفعل الكثيرون من المصرين والعرب فى اوربا حين يتجمعون ويلتقون فى اماكن معينه تتحول الى شبه جيتو مغلق عليهم ويعيشون دائما على السطح فى انعزال عن المجتمعات التى يعيشون ويعملون بها..

وقد كان فى برلين حلقات اوجيتو عربى فى اماكن اصبحت معروفه عنهم ومغلقه عليهم..

فالعراقيون مثلا يجتمعون فى كافتيريا اوبار فندق شتات برلين حتى اطلق البعض على الفندق اسم شتات بغداد.. والليبيون يلتقون يوميا فى كافتيريا وبار فندق "بيرولينا" حتى انك تسمع حوارهم العالى الصارخ احيانا وانت على اعتاب الفندق وقد اطلق بعض الالمان على الفندق اسم "بيروليبيا" والسوريون واللبنانيون كونوا شبه مركز دائم لهم بفندق "البالاست".. والفلسطينيون والمصريون يتجولون بين هذه المراكز الثلاثة وغالبيتهم يلتقون ليلا فى المراقص والنوادى الليلية لهذه الفنادق.

لقد كانت المجموعات العربية فى برلين الشرقية محدودة يتكون غالبها من اعضاء السفارات ومن الطلبة الدارسين فى الجامعات الالمانية ولكن هذه المجموعات كانت تتضخم عندما ينضم اليها العرب الذين يفدون يوميا من برلين الغربية والذين وصلت اعدادهم الى عشرات الالاف وغالبيتهم من العمال العاطلين او الذين يمتهنون بعض المهن بعض الوقت فى الغرب ثم يقومون برحلة شبه يومية الى الشرق حيث يتوافر الاكل والشراب وايضا النوادى الليلة باسعار زهيدة للغاية. ولقد كنت طبعا بين الحين والاخر اطل على هذه التجمعات اشارك فى مناقشاتهم احيانا أطرح آرائى فى هدؤ وايضا بوضوح وبدون انفعال اوصياح حتى اننى اصبحت معروفا بينهم"ب الاخ الكاتب المصرى الهادى" وتكونت لى علاقات وصداقات مع بعض المثقفين العراقيين والسوريين والفلسطنيين واللبنانيين ولكن وفى نفس الوقت كنت حريصا على الا اغرق فى عالمهم وخاصة انه فيما عدا قلة محدوده فالغالبيه منهم لم تكن تشغلهم هموم ثقافيه او فكريه حقيقيه.....

كما أنى لم اكن على استعداد لأن اشغل نفسى بالصراعات التى كانت تنشا بينهم احيانا تحمسا للبعث العراقى او البعث السورى او انحيازا لهذه المجموعه الفلسطينيه او تلك، او اندفاعا فى ابراز التجربة الجماهيرية الشعبية والكتاب الاخضر او الهجوم عليها. لكل ذلك حافظت وبشكل متعمد على تلك المسافة والابتعاد فقد كان واضحا لدى اننى لم اتى لالمانيا لاعيش فى جيتو عربى او لاقود الصراعات العربية المستعره على بعد الاف الاميال. على انى وجدت نفسى مرتين فى ظروف دفعتنى دفعا الى ان اخرج على تلك المعادلة الدقيقة فى الابتعاد والاطلال..

المرة الاولى كانت فى الاسابيع التى اعقبت زيارة السادات للقدس، فقد كنت احضر حفل استقبال فى النادى الدبلوماسى دعى اليه السفير الفلسطينى فى برلين الدكتور عصام كامل والذى كانت تربطنى به علاقة صداقة وتعاطف فكرى وهو واحد من المع الكوادر الفلسطينية.

وحضر الحفل كالعادة عدد كبير من القادة فى الحزب والدولة فى المانيا الديمقرطية كما حضر اعضاء السلك الدبلوماسى العربى والاجنبى الذى يعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية وقد كنت

اعرف غالبية الحاضرين بما فى ذلك بعض السفراء العرب الذى ربطتنى ببعضهم علاقة ود واحترام.. وكان موضوع زيارة القدس والاثار المترتبه عليها وخاصة بالنسبة للقضية الفلسطينية هو الذى كان يجرى بين المجموعات التى حضرت حفل الاستقبال وكنت منهمكا فى مناقشة مع عدد من الكتاب والصحفيين الالمان حول الموضوع ثم اخذت ادور بين مجموعات الحاضرين، وناداني الدكتور عصام كامل الذى كان يتوسط مجموعة من السفراء العرب وكان بينهم القائم بالاعمال الجزائرى الجديد والذى لم نكن قد تعارفنا من قبل.. وقدمه لى الدكتور عصام كامل ثم قدمنى اليه ككاتب مصرى. وفجاة وجدت القائم بالاعمال الجزائرى يسحب يده بسرعة وعصبيبة قائلا-: انا لا اصافح مصريا بعد ما قام رئيسهم بزيارته الخيانية للقدس...

قالها فى انفعال اضافت الى لهجتة الجزائرية وعربيته الضعيفة لكنه غريبة بين الفرنسية والعربية ووقفت ويدى نصف ممدودة وقد احسست للحظات بامتهان شديد. واسرع الدكتور عصام كامل يشرح للقائم بالاعمال الجزائرى اننى كاتب يسارى وطنى معروف واننى ممن يعارضون زيارة القدس ثم اخذ عصام بدوره يعتذر لى ويحاول ان يخفف عنى ولكن يدى ظلت نصف ممدودة وذهنى يتحرك ينفعل يشتعل يكاد يمد يدى لتهوى على صدغ الرجل..

ويبدو ان الدكتور عصام قد لمح ذلك بسرعة ووقف بينى وبين القائم بالاعمال الجزائرى مواصلا محاولاته لتهدئتى وارضائى..

ولكن الكلمات انطلقت من فمى مثل زخه رشاش سريع الطلقات بالعربية احيانا وبالالمانية احيانا اخرى مما ادى الى تجمع الحاضرين حولنا.. قلت له..

:- لو انك جزائرى وطنى حقا لقبلت كل يد مصرية، لان مصر هى التى ناضلت وعانت وتعرضت لعدوان مدمر على ارضها من اجل اشعال الثورة فى ارض الجزائر ومساندتها.. ولو كنت جزائرى عربى حقا لكان الاجدى بك ان تعرف لغتك العربية ثم تعرف ادابها واخلاقياتها.. وما قلته الآن هو تعبير عن الجزائر الفرنسية وليس الجزائر العربية. اننى لا اتكلم باسم حاكم مصر بل واختلف معه علنا، لكنى على يقين انك لن تختلف فى يوم من الايام مع اى حاكم فى بلدك ،أيا كانت السياسة التى يتخذها واخشى ما اخشاه هو ان امثالك سيكملون المخطط الذى بدأه السادات..

كنت منفعلا بل وفى غاية الانفعال فلقد عبثت كلمات القائم بالاعمال الجزائرى بجرح كان مازال يدمى فى الاعماق مثلما جسدت كل المخاوف التى كنت أتحسب لها..

***

أما المرة الثانية فقد جاءت فى اعقاب مأساة مطار لارناكا التى اغتيل فيها المرحوم يوسف

السباعى الكاتب المصرى ورئيس تحرير الاهرام فى ذلك الوقت والسكرتير العام والدائم لمنظمة التضامن الاسيوى الافريقى وما اعقب عملية الاغتيال من محاولة فرقة خاصة مصرية القبض على المتهمين مما ادى الى مزيد من الضحايا وشحن الجو بكثير من التعقيدات الدولية..

لقد اغتال السباعى مجموعة من الفلسطينيين الذين يتبعون ابو نضال القائد الفلسطينى الذى انشق على فتح ومنظمة التحرير الفلسطينية وكان السباعى يوم اغتياله فى قبرص على راس وفد منظمة التضامن لحضور اجتماع للنظر فى الهجمة الامبريالية على العالم العربى..

ولقد كان مثيرا ومحيرا حقا ان يقع الاختيار على السباعى بالذات تحت دعوى انه من انصار السلام مع اسرائيل.. فالسباعى وبغض النظر عن الاختلاف او الاتفاق معه فى قضايا سياسية او فكرية هو احد الكتاب المصريين اللامعين والذين تختلط فى رواياتهم النغمة الرومانسية مع لمسة وطنية صادقة وله جمهوره ومحبيه، فهو ليس رجل أمن ولايمكن ان يعد بأى معيار من الوجوة القبيحة التى ارتبطت بسياسة التحالف مع اسرائيل او الولايات المتحدة.

بل إن السباعى ومن خلال عمله كسكرتير عام منظمة تضامن الشعوب الاسيوية والافريقية كان ومن الناحية العملية يلعب دورا تقدميا عربيا وعالميا. فمن المعروف ان تلك المنظمة التى اعلن جمال عبد الناصر انشاؤها على ارض القاهرة فى اول يناير ١٩٥٨ تضم اكثر من ٨٠ لجنة تضامنيه فى اسيا وافريقيا وبعض الدول الاوربية ومن مهامها ملاحقة الاستعمار والامبريالية والعنصرية والصهيونية وعقد المؤتمرات والندوات العالمية دفاعا عن حركات التحرر العالمى وتأكيدا لمصالح الدول النامية.

وزاد الامر اثارة وغرابة وريبه ذلك الحماس الزائد الذى نشرت به بعض الصحف العربية الخبر وكانه عمل تحررى.

وتأكد اكثر من ذى قبل ان هناك ايد خفيه كثيره بدات تلعب على الساحه لأستكمال المخطط الأمبريالى الصهيونى الواضح لعزل مصر. وكانت زيارة السادات للقدس بمثابة اطلاق شرارة البدأ..

وقد سمعت انه فى بعض النوادى الليلية التى كان يتجمع فيها الجماعات العربية وخاصة هؤلاء القادمين من الغرب جرت احتفالات صاخبة بهذه المناسبه فتحت فيها زجاجات الشمبانيا والكونياك احتفالا بمقتل "الكلب المصرى" مثلما اطلقوا عليه.

وزعم احدهم انه اشترك فى عملية لارناكا وقد كان ذلك مدعاة لتأكيد شكوكى إزأء الدور الحائر والغريب الذى يمكن ان يلعبه عشرات الالأف من الشباب الفلسطينى واللبنانى الذين توافدوا بشكل مكثف على برلين الغربية وخاصة بعد اندلاع الحرب الأهليه اللبنانيه..

فغالبييهم يسجل نفسه فى ملفات البوليس فى الغرب باعتباره لاجئا سياسيا للحصول على اقامه مؤقته، وغالبيتهم لا يحترفون مهنا معينه او محدده ويفتقد الى النضج والوعى السياسى ويقومون احيانا ببعض المهن الوضيعه التى تتيحها لهم السلطات فى برلين الغربية، ويمارسون كل اشكال الضياع والحاجه والرحلات اليوميه التى يقومون بها من برلين الغربية الى الشرقية مستفيدين من رخص الأسعار والحياه السهله فى الشرق...

وقد لفت نظرى من قبل خطورة هذا الوضع وكتبت عنه فى مجلة الوطن العربى وتناقشت حوله مع عدد من المسئولين فى منظمة التحرير ومع السفير الفلسطينى فى برلين، على اساس ان هذا الجيش العاطل والتائه من الشباب الفلسطينى والذى يقضى حياة ضائعه بين المخدرات والنساء والتهريب لا يحرم القضية الفلسطينية من قدراتهم وطاقاتهم فحسب ولكن يعطى أيضا صورة مشوهه وغير صحيحه عن الشعب الفلسطينى ازاء الغرب بل ويجعلهم فى ظروف تعرضهم لانحرافات واغراءات اخطر فى بلد تنشط فيه مراكز التجسس والمخابرات الدولية وخاصة الموساد الاسرائيلى...

وكان الشئ المؤكد والواضح لدى بعض المسئولين الفلسطينيين ان بعض الانظمه العربيه تنشط بشكل واسع بين تلك المجموعات وتجند اعدادا منهم للعمل معهم واستخدامهم فى بعض العمليات الخاصه..

وفى اثناء انشغالى وبحثى وسعيى لجمع اكبر قدر من المعلومات والوثائق حول هذا الموضوع تعرفت على احدى الفتيات فى برلين الشرقية والتى كانت صديقه بعض الوقت لأحد زعماء هذه المجموعات(أحمد أبو....) وقدمت لى معلومات مثيره وخطيره حول نشاطهم قمت بنشر جزء منها..

كان مما قالته الفتاه انها تعرفت على الشاب الفلسطينى فى احد النوادى الليليه ولأنها كانت تتعاطف بصدق مع قضية الشعب الفلسطينى وتعرف مأساتة وما يتعرض له على ايدى العنصريه الصهيونيه فقد حاولت ان تقوم بدور ما لمساعدته...

فتحت له بيتها بل اعطته المفتاح ليأتى فى اى وقت يشاء هو اصدقائه..

وكانت تترك له احيانا اكثر من نصف مرتبها مساعدة له لمواجهة المهام الثوريه التى كان يدعى القيام بها... وفى اكثر الليالى كانت تأتى الشله الثوريه من برلين الغربية الى بيتها يأكلون ويشربون ويمرحون ثم يذهبون الى احدى النوادى الليليه لأستكمال السهره..

وكانت الفتاه الالمانيه الشرقيه(آنجليكا) والتى تعمل فى احد المراكز التجاريه سعيده بهذا الدور الذى تلعبه مقتنعه به وتعلنه فى جرأة وتحدى فى مواجهة بعض المتاعب والمضايقات التى

اثيرت فى الحى وفى العمل على اساس انها تفتح بيتها للأجانب، وقد صرخت فى وجه رئيسها فى العمل ذات يوم وهوينبهها الى ما تفعله قائله...

:- نحن بلد اشتراكى يدافع عن حقوق الأنسان فى كل مكان ثم يضايقك انى استضيف فى بيتى شبابا حكم عليه الأستعمار والصهيونيه بالتشرد والطرد من بلده.. هل انت اشتراكى حقا ام ان الأمر مجرد شعارات....

وقد ظلت انجليكا على موقفها المتحمس والمدافع عن هذا الشاب الفلسطينى الى ان جاء يوم كان من المفترض الاتأتى الى بيتها لأنها تقضى هذا اليوم دائما مع امها الوحيده، ولكن امها كانت قد دخلت المستشفى، فعادت انجليكا الى بيتها على غير عاده وفتحت الباب..

كان الزعيم هناك ومعه بعض افراد شلته فى حاله من السكر الشديد... والأنبساط الزائد وتسمرت عند الباب وهى تسمع وترى اشياء لا تصدق على لسان الزعيم نفسه، واكتشفت ان الزعيم والشله يتاجرون فى المخدرات والحشيش وانهم اتخذوا من بيتها وكرا لتخزين البضاعه وتصريفها..

واكتشف ايضا ان الزعيم يعمل بلطجيا فى "اوربا سنتر" وهو واحد من مراكز لعب الورق الشهيره فى برلين الغربيه...

وعرفت من لسان بعض افراد الشله ان البعض يستأجرهم احيانا لعمليات سرقة ونهب بل والقتل احيانا...

بل ورأت الزعيم نفسه يخرج من دولابها بعض الحقائب التى اودعها عندها تحت دعوى انها تحوى اسرار ووثائق هامه خاصه بالثورة الفلسطينيه ليخرج منها طرب الحشيش والكوكايين والهيروين والحبوب المخدره لتوزيعها على افراد الشله محددا لكل منهم المكان الذى يسوقون فيه بضاعتهم..

وساعتها صرخت فيهم وهى فى حاله من الأنفعال الشديد...

:- بره.. اخرجوا بره.. بره..

وحالما انتبهوا الى وجودها اسرع افراد الشله بالخروج حاملين معهم البضاعه، بينما بقى الزعيم وحده وبعد ان تأكد من خروج الشله والبضاعه...

واقبل عليها فاردا يديه فى محاوله لإحتضانها وتهدئتها..

ولكنها صدته بعنف وطلبت منه وبنفس حالة الانفعال الشديد بأن يخرج فورا والايريها وجهه ثانية...

وحينما ادرك الزعيم انها جاده فيما تقول وانها لم تعد مثلما كان يظن خاتما فى اصبعه، أسقط من على وجهه مسحة البراءه والطهر التى كان يدعيها وظهر بوجهه الحقيقى كبلطجى محترف.. فأنهال عليها ضربا فى قسوه حتى أحدث بها بعض الكسور فى مفصل اليدين والركبه وكسر لها سنتين ثم قال وهو يلقى بها كومه مهدوده يمتزج الدم بالكدمات على كل جسدها....

:- اسمعى أنا خارج، ويمكنك ان تبلغى البوليس، ولكن ثقى أن ذلك يعنى كارثه بالنسبه لك، فأنت مشتركه معى فى كل شئ والكل يعرف ذلك ومعى الصور والوثائق.. كما أن رجالى قادرون على الوصول اليك وكتم انفاسك فى اى مكان... اذهبى ياشاطره اذن وبلغى البوليس....

كانت أنجليكا تحكى لى ذلك وجسدها كله يرتعد بالخوف والرهبه والصدمه رغم مرور اكثر من سته اشهر على الحادث، ورغم انها كانت قد بدات تثق فى من خلال العائله الألمانيه الصديقه التى قدمتنى اليها وتدرك انه ليس بالضروره ان يكون كل عربى من طراز هذا الزعيم البلطجى، وان العالم العربى والشعب الفلسطينى بشكل خاص زاخر بألاف الشباب المناضل والمثقف والواعى والأنسان، ورغم ذلك فقد كانت تكرر الرجاء وخاصة وقد عرفت انى كاتب صحفى بالا أنشر شيئا من ذلك. وعرفت منها انه هو وشلته مازال يأتى الى برلين الشرقيه، ولقد كف عن محاولة الاتصال بها بعد ان صدته ولكنه لا يكف بين الحين والاخر عن الاتصال بها تليفونيا ويجدد تهديداته ووعيده مستعرضا قدراته ونفوذه الواسع فى الشرق والغرب على حد زعمه. وعبثا حاولت ان أقنعها بأنه من الخير لها ولكل الشعوب العربيه والشعب الفلسطينى ان تفضح هذه العناصر التى تعطى صوره مشوهه عن العرب وتضر بالمصالح الحقيقيه والمشروعه للشعب الفلسطينى، وان كشف هذه العناصر سيكون حمايه لها مثلما هو حمايه للوجه الحقيقى للثوره الفلسطينيه وان أمثال هؤلاء البلطجيه اضعف مما تتصور حينما يجدون من يواجههم ويتصدى لهم...

ولكنها كانت تقول دائما وقد اكتسى وجهها برعشه خفيفه..

- انت لا تعرفهم... انهم وحوش

إلتزمت بوعدى مع انجليكا، وحينما نشرت سلسلة التحقيقات عن الشباب الفلسطينى الضائع فى برلين الغربيه اكتفيت بأعطاء بعض الأمثله المهمه واكتفيت فى ذكر الأسماء بنشر الحروف الأولى. ولقد احدثت تلك التحقيقات صدى واسع واتصل بى رئيس تحرير الوطن العربى ليشكرنى باسم مجلس التحرير على الجهد الواضح الذى بذلته كما اكد لى السفير الفلسطينى ان المسئولين فى منظمة التحرير قد اهتموا بشكل خاص بما اوردته من حقائق وانهم

يدرسونها.. بينما ابدى الكثير من المثقفين المصريين والعرب المقيمين فى البرلينيتين تقديرهم لتفجير تلك القضيه.

وهنأنى الصديق سعيد السعدى الصحفى العراقى المقيم فى برلين ومدير مكتب وكالة الانباء العراقيه على شجاعتى فى تناول هذا الموضوع وان كان قد قال فى لهجه بين المزح والجد
- بس من هنا ورايح تخلى بالك شويه.. دول مش سهل.. ووراهم بلاوى..

على انى بعد ذلك نسيت الامر كله، وان كنت قد حرصت بين الحين والاخر ان التقى.. بالجيليكا ربما لتحسين صورة العرب عندها وربما لتبديد مخاوفها وربما لأحساس كان يتحرك فى اعماقى اشفاقا عليها وتقديرا واعجابا بها...

ومرت الشهور الى ان جاءت زيارة القدس ثم اغتيال يوسف السباعى... وقد زارنى فى تلك الفتره الصديق علاء الطاهر، وهو احد الاصدقاء الذين توطدت علاقتى به منذ فترة الدراسه فى الجامعه، بالرغم من انه كان دائما ممن ينأون بأنفسهم عن السياسه والعمل بها، الا أنه ونظرا لكفاءته الشديده فى العمل واتقانه للغة الأنجليزية فقد وجد نفسه فى اواخر الستينات مديرا لمكتب ضياء الدين داوود عضو اللجنه التنفيذيه العليا للاتحاد الاشتراكى. فمنذ ذلك الوقت الذى رأه عندما كان وزيرا للشئون الأجتماعيه أخذه معه الى الأتحاد الاشتراكى وكان من الطبيعى ان يتعرض علاء للفصل والاضطهاد بعد احداث مايو سنة١٩٧١ والقبض على ضياء الدين داوود والمجموعه الناصريه الاخرى فيما عرف ايامها بمراكز القوى...

وقد ذهب علاء إلى السعودية بعد ذلك للعمل مدرسا للغه الانجليزيه، ولكنه بعد فتره وكالعاده برز فى عمله مما دفع احد امراء الاسره المالكه السعوديه الى اختيارة سكرتيرا له ومديرا لاعماله وحينما عرف بأنتقالى الى برلين والعمل بها، كان ينتهز اى فرصه يكون فيها فى مهمه فى اوربا ويمر على ليوم او ليومين نجتر فيها ذكرياتنا الحلوه والمره ونمنى النفس بالعوده الى القاهره مره اخرى..

وفى تلك المره دعيت انجليكا وذهبنا الى احد النوادى الليليه نحتفل بعيد ميلاد علاء فلقد احسست وبعد كل هذه التوترات التى عشتها انى بحاجه لان اقضى ليله مع الموسيقى والرقص، مع صديق عزيز قديم ومع صديقه المانيه احسست معها بالتعاطف والود..

كان مرقص موسكو وهو احد المراقص المشهوره فى برلين، ممتلئا كالعاده فى ليلة نهاية الاسبوع حيث يهرع الالمان الى تلك المراقص وخاصه فى الشتاء يعوضون بالمرح والموسيقى والرقص كل متاعب العمل طوال الاسبوع...

وجلس ثلاثتنا الى منضده قريبه من مكان العرض الفنى الذى يقدم وبناء على طلب علاء الذى كان يقول ضاحكا..

– حرام عليكوا طول السنه فى الصحرا والمجتمع الرجالى خلونى املأ عينى بالفرجه على العالم الحلو واعمل رصيد ينفعنى زى الجمل فى ليالى الصحراء الناشفه..

كان المكان غارقا فى الضوء الاحمر الخافت واصداء الموسيقى والرقص والضحكات والمرح تمسح من على النفس ادران الهموم والجهد وتضفى لونا من السعاده وحب الحياه.. وسحبت آنجليكا الى البيست.. نرقص على نغمه موسيقيه احبتها..

وفجاه احسست بجسد آنجليكا ينتفض بين يدى ويكتسى وجهها بتعبير مخيف ثم تسحبنى الى المنضده حيث يجلس علاء وهى تقول فى توتر بالغ

-* هيا بنا نبحث عن مكان اخر...

-* لماذا..؟

-* دعنا نترك هذا المكان فورا...

-* ايه الحكايه.. اتكلمى.. مالك..

-* انه هنا هو وشلته.. يجلسون على البار.. وقد رآنى..

-* هذا الوغد..

والتفت ناحيه البار ورأيت مجموعه من الشباب العربى يحتلون ركنا كاملا.. لا اتبين وجوههم بوضوح فى ظل الضوء الخافت ولكنى استطعت ان اميز بينهم الزعيم بجسده الممتلئ وشاربه الكث وشعره الاسود اللامع الذى يصففه على فورمه الكانيش، تماما مثلما وصفته انجليكا من قبل وامسكت بيد انجليكا اهدئ من قلقها وانفعالها...

-* دعك منهم.. انسيهم تماما.. انهم لاشئ..

لكنها عادت تصر على ترك المكان رغم محاولاتى انا وعلاء. وفى اثناء ذلك لاحظت ان الزعيم الكانيش ترك البار واقترب من المنضده واخذ يدور حولنا مركزا ومتنقلا بنظراته بينى وبين أنجليكا وهو يبتسم فى محاولة تمثيلية فجه ويضرب بشئ ثقيل على يده...

واخذت بدورى اتأمل هذا الكائن الغريب عن قرب والذى كان فى شكله وجسده وتحركاته نموذج مجسد لصورة البلطجى التقليدى ببلادته وحيوانيته والادعاء المبالغ فيه فى الثقة الكاذبه بالنفس وضحكت قائلا لعلاء....

-* بس ياعم... اهو جالك فريد شوقى ولا محمود المليجى...

وضحك علاء قائلا....

-* يارجل... دا ماينفعش يكون اسماعيل يس

وانسحب الزعيم الكانيش بعد ان حولنا تمثليته الغبيه الى كاريكاتير ضاحك... ولكنه عاد بعد دقائق ومن خلفه اثنين من شلته وتقدم الى انجليكا قائلا..

-* هودا بقى الواد الصحفى المصرى اللى نشر الكلام اياه..

قومى معايا نرقص وسيبك منه.. واحنا لسه الاسبوع الماضى مخلصين على نقيب الصحفيين المصريين.. ديته زاخر رصاصه..

تقليد سيئ للغاية وغير متقن لنمط البلطجى الذى قدمه فريد شوقى فى السينما المصرية وتحاملت على نفسى بقدرة خارقة وناديت الجرسون القريب طالبا منه ان يطلب من ذلك السيد ان يبتعد عن السيدة وعن المنضدة.

كنت اضع فى اعتبارى وانا افعل ذلك كراهية الالمان الشديدة لاى عراك او تشابك بالايدى فى تلك الاماكن وايضا السمعة السيئة عن العرب فى هذا المجال والتى جعلت بعض المراقص تمنع دخولهم اليها. وحاولت بكل جهدى ان اتجنب ذلك ولكن الزعيم لم يترك لنا اى فرصة فامسك بيد انجليكا محاولا جرها وحينما حاولت ان ادفعه او اوقفه هجم الاثنان الاخران على وأوسعونى ضربا بالقبضات الحديدية فى ايديهم.

وتفجر الموقف وزاد الهرج والصراخ وصاحت احدى الالمانيات.. العرب يتشاجرون مرة اخرى.وكل الذى اعيه فى تلك الليلة التى مازالت مخضرة فى عقلى وقلبى اننى اندفعت نحو الزعيم الكانيش وقد تفجرت داخلى كل الالام والتوتر والكراهيه واستطعت ان اشل حركته بضربة قاضية بقدمى المنفعل فى بطنه وأيقظت صرخاته اعماق بربرية سحيقه داخلى لم اكن قد مارستها وأهاجت كل احساسيس الكراهية والحقد على كل الجلادين والطغاة. واخذت اضربه وانا اتصوره عميل لمن اغتال اطفال مدرسة بحر البقر ومن قتلوا العمال الابرياء فى ابى زعبل ومن ذبحوا الاطفال فى دير ياسين ومن شردوا شعبا باكمله وطردوه من ارضه، ومن يعملون الآن لعزل مصر عن اشقائها ومن وضعونى فى المعتقل لسنوات طويلة.

بينما كان علاء وهو قدير ومشهور له فى ذلك المجال، يتكفل بالاثنين الاخرين. وحينما حاول اخرون من الشلة انقاذ زملائهم تعرض لهم الالمان الذين رأوا وسمعوا كل شيئ بوضوح وكانوا حتى هذه اللحظة يأخذون موقفا سلبيا مما اضطر العصابة الى الفرار والهروب من المكان..

اما أنجليكا فلقد فعلت تماما مثلما تفعل بنت البلد المصرية، فخلعت حذاءها واخذت تضرب الزعيم على راسه ووجهه وهو يحاول الافلات والهرب هو الاخر مرددا صيحات الالم

التى لم تنقطع منذ تلقى الركلة فى بطنه.وأسفر الموقف عن تمزيق ملابس وكدمات ثقيلة فى وجهى ووجه علاء وفرار الزعيم وشلته بينما وقفت انجيلكا تشرح للالمان وللبوليس الذى جاء متاخرا تفاصيل الموقف.

وعاد الالمان الى مقاعدهم وعادت الموسيقى تملأ المكان من جديد وامتلأ البست بالراقصين والراقصات.. وكأن شيئا لم يكن.. وراحت انجيلكا تتحدث بارتياح شديد ممزوج بفرحة تلمع فى عينيها وكأنما ازاحت من على كاهلها حملا ثقيلا وذكريات مريرة بينما استرد علاء مرحه التقليدى وضحكاته المشرقة وهو يقول مداعبا..

:- يخرب بيتك.. دا انا اكتشفت الليلة دى انك مقاتل جسدى شرس مش بس مقاتل فكرى... وطبعا لم يتملكنى شعور بالزهو والانتصار فلقد كان الموقف كله بالنسبة لى سخيفا بل وأكاد أن اقول مقززا. ورأسى ممتلئ بل مشتعل بما جرى وفى اعماقى تموج مشاعر مختلفة ومختلطة من الاسف والخجل والحزن. فأيا كان الامر فلقد كانت خناقة عربية لعلها تعبر وتجسد نوعية هذه الخلافات المستعرة والتافهة التى بدأ يغرق فيها العالم العربى. وتوافد الى ذهنى وجه القائم بالاعمال الجزائرى المعروق وجسد يوسف السباعى فى مطار لارناكا ينزف دما والوجه الغبى والمتبلد للزعيم الكانيش والضحكات الخشنة المصطنعه للسادات على سلم الطائرة فى مطار اللد والصرخة التى اطلقتها السيدة الالمانية.. العرب يتشاجرون مرة اخرى وانتابنى هم وحزن ثقيل..

لم يكن ذلك حزنا على ما كان، بل تحسبا واشفاقا مما سيكون..

عشقوها كالبحارة يقبلون ويذهبون

يتركون وعدا ولايعودون ابدا

وفى كل ميناء امرأة تنتظر

بابلونيرودا-الوداع

يوليو سنة١٩٧٨

خذنى الى البلد الذى تشرق فيها الشمس دائما..

وتتفتح فيها ازهار الليمون

واكتشفت سر الخلود

هذه الامنية التى عبر عنها شاعر المانيا الكبير فولف جانج فون جوته على لسان بطله المأساوى "فاوست" الذى تحرق شوقا لرؤية مصر فى اندفاعته البكر وشغفه المشروع فى حب الحياة والمعرفة، ترددت فى قلبى وانا أتأمل ذلك الصباح الباكر هذا الكم الكبير من السواح الاجانب الذين ملأوا طائرة الايرفرانس المتجهة الى القاهرة.. والغريب انى كنت المصرى الوحيد عليها.. ظاهرة جديدة.. ولكنها اثارت فى نفسى دوامات اخرى غريبة. وطوال ثلاث ساعات والطائرة تسبح فوق السحب البيضاء احيانا والداكنة احيانا اخرى وانا اسمع همسات وحوارات بلغات مختلفة الانجليزية والفرنسية والالمانية وحتى العبرية، ولكن ليس من بينها العربية. حتى تسرب الشك الى نفسى لحظة فى اننى ربما اكون قد اخطأت الطائرة. ووجدتنى اسأل المضيفة فى خجل

-* السنا متجهين الى القاهرة....!!

توقفت لحظة تتأملنى ثم قالت ضاحكة

-* بالتأكيد..

سؤال غبى اثار ولاشك دهشة المضيفة الحسناء بل واثار دهشتى انا نفسى واستغرابى لان يخطر ذلك على بالى.. وتذكرت الحدوتة التى تناقلناها صغارا عن فلاح بلدنا الذى ركب القطار الى الاسكندرية ليزور ابنه اثناء الحرب العالمية الثانية ولكن حظه العاثر اوقعه فى قطار امتلأت عرباته بالجنود الانجليز والاستراليين

وحينما سألهم للتأكد عن وجهة القطار، قالوا له ساخرين انه ذاهب الى الجحيم فالقى الرجل بنفسه من نافذة القطار..

ولكن طبعا لم افكر فى ان القى نفسى من نافذة الطائرة.. هاجس كان يقتحم على ذهنى محاولاته للهدوء والاسترخاء ولكن اى هدوء وأى استرخاء والرحلة كلها من بدايتها وحتى نهايتها كانت انتهاكا صارخا لأى هدوء واستقرار.

طوال تلك السنوات الماضية كانت الطائرات المنطلقة من القاهرة تحمل اعدادا غفيرة من المصريين تذهب بهم الى ارجاء الدنيا؛ فى العالم العربى وفى اوربا وامريكا واستراليا وكندا.

فلاحون ومثقفون وعمال ورجال اعمال وجميع المهن والتصنيفات الفئوية والطبقية يجربون وربما لأول مرة فى التاريخ خروجا جماعيا للمصريين من مصر ساعون الى الرزق والى مواطن المال والبترول والثروة او باحثون عن ملجأ او مهجر يأوى افكارهم وطموحاتهم.. وكأنما فقد الوادى ولاول مرة سحره الطاغى عليهم وجاذبيته الآسره التى جعلت من مصر وحتى هذه الايام النموذج الوحيد على الاقل فى دول البحر المتوسط الذى لم يسعى اهله الى الهجرة او النزوح الى الخارج..

بالعكس لقد ظلت مصر دائما مركز للجذب البشرى فى المنطقة وفى كل حوض البحر المتوسط. وطوال القرن التاسع عشر وحتى منتصف العشرين كانت هناك هجرات جماعية ومنتظمة تتوافد على ارض النيل من فرنسا وايطاليا واليونان بالاضافة طبعا الى البلدان العربية حتى كونوا اقليات كبيرة لها دورها فى الحياة المصرية فهل بدأ ياترى عصر الخروج..!!

لقد جاء على لسان موسى فى سفر الخروج فى التوراه

" لان البلاد التى تذهبون اليها ليست مثل ارض مصر التى خرجتم منها والتى كنتم تلقون البذور فى حقولها وتروونها باقدامكم ولكن الارض التى تذهبون اليها لتضعوا ايديكم عليها هى جبال واودية تسقيها مياه امطار السماء"

لقد قال موسى ذلك لبنى اسرائيل وهم بخرجون من مصر.. ولكن أى نبى كاذب قد جاء هذه المرة ليخرج المصريين.. من مصرهم..

اى نبى كاذب قد بشر هذه المرة بعودة الاسرائيليين الى مصر.. فى اى كتاب وفى اى سفر..

هواجس وخواطر مزعجة متداخلة غير واضحة فى احيان كثيرة.. أثارتها تلك المجموعه الأجنبيه التى كان غالبيتهم من يهود اوربا الغربيه والبعض من إسرائيل نفسها وهم يذهبون الى القاهرة لاول مرة.. وضاعف منها تلك التعليقات والصور والكاريكاتير التى حفلت بها الصحف الاوربية بعد زيارة مناحم بيجن للقاهرة فى فبراير من هذا العام لحضور مؤتمر

ميناهاوس.. وزيارته لمنطقة الاهرام والتصريحات التى نقلتها عنه وكالات الانباء بما يوحى بان اليهود كان لهم الفضل فى بناء الاهرام. حتى ان مجله مثل ديرشبيجل الالمانية نشرت صوره لابى الهول بوجه مناحم بيجن وتحتها عنوان.. لقد عدنا.. مع ان اليهود او بنى اسرائيل لم تاتى لهم ذكرى فى التاريخ الابعدما لايقل عن ١٥٠٠ عام من بناء الاهرام..

اى عودة؟.. واى خروج؟.. وعودة لمن؟.. وخروجا لمن؟.. ومن هو موسى؟.. ومن هو فرعون؟..

احلام يقظة مزعجة او اقل هلوسة مصرى محموم مهموم تتداخل فى ذهنه المرئيات والتصورات فى اشكال خيالات مجسدة يختلط فيها الواقع بالتاريخ مع قدر ليس بالقليل من الفانتازيا. إننى لم اكن فى يوم من الايام معاديا لليهود، بالعكس، لقد كان اول نبض حقيقى للقلب مع فتاة مصرية يهودية من السكاكينى ايام الجامعة كما أن لى صداقات حميمة مع بعض اليهود المصريين الذين امضوا معى اكثر من خمس سنوات فى معتقل الواحات..

ورفضوا العرض الذى قدم اليهم فى ذلك الوقت ليخرجوا من المعتقل الى الطائرة خارج مصر..

...صادق سعد، ريمون دويك، يوسف درويش..

بل مازالت اذكر بانفعال حى وعميق صيحة ريمون دويك فى قائد المعتقل وهو يلقى فى وجهه بجواز السفر قائلا..

-* انا مصرى اكثر منك ياابن الـ ..

لكن اليهود شيئ، والصهيونية العنصرية شيئ آخر

استيقظت على صوت المضيفة وهو يطلب ربط الاحزمة والتوقف عن التدخين فالطائرة بصدد الهبوط على ارض مطار القاهرة الدولى..

كانت زيارة لم تكن فى الحسبان ولم أستعد لها..

بدأت بتليفون من باريس كان المتحدث نبيل المغربى رئيس تحرير الوطن العربى يطلب منى القيام برحلة صحفية الى القاهرة لاكتب عن تطورات الاحداث هناك..

وحينما حاولت ان اعتذر نظرا لارتباطاتى فى برلين ولان الاولاد وحدهم قال المغربى:بشكل قاطع

* استاذ.. هناك اجماع من لجنة التحرير أنك الوحيد الذى يمكن ان يقوم بتغطية موضوعية لما يجرى فى القاهرة.. معى الاستاذ وليد ابو ظهر وامير اسكندر وغالى شكرى وجورج

بهجورى وعبد السلام مبارك كلهم مجمعون على ذلك.. ارجوك ان تحضر عندنا باريس غدا لنناقش الموضوع..

وذهبت من برلين الى باريس وكلى يقين اننى لن اسافر الى القاهرة وقلت هذا لانجيلكا التى توطدت علاقاتى بها بعد حادث المرقص والتى كانت قد اخذت ترعى الاولاد. وطلبت منها ان تبقى معهم يوما او يومين على الاكثر سأعود بعدها..

وفى باريس واجهت باصرار من جانب اصحاب المجلة وكل الزملاء والاصدقاء على ضرورة سفرى، فالاحداث تتوالى والمجلة معزولة عما يجرى فى القاهرة..

قال وليد ابو ظهر بصراحة.

* اسمع سبق وقلت لك اننى تاجر، والكل هنا بما فيهم اصدقاءك يجمعون على انك كصحفى وككاتب سياسى له علاقاته الواسعة اقدر من يقدم صورة عن الاوضاع السياسية هناك.

إن عيون العالم كله مركزه على القاهرة الان، ولايمكننى كمجلة عربية ان اكتفى ببعض التقارير الباهتة التى يرسلها مراسلون شبان ليسوا على قدر وعيك ودرايتك..

وانا فى النهاية تحت امرك.. كل ما تطلبه مجاب تذاكر السفر جاهزة.. النقود.. المجلة كلها ستخصص من الاسبوع القادم لكل ما تكتبه.. هل لك شروط اخرى..

وضاعت كل اسبابى واعتراضاتى فى موجة الحماس الشديد الذى تولاه الاصدقاء المصريين وتعهد امير اسكندر بأنه سيطمئن يوميا على الاولاد بالتليفون وعاد وليد ابو ظهر يقول..

لقد احترمتك كثيرا حينما رفضت ان تكتب عن مصر وانت على بعد الاف الاميال والآن اذهب الى هناك لترى الحقيقة ليس فقط لنطلع القراء عليها، ولتراها انت بنفسك...

وربما كانت هذه الكلمة الاخيرة هى التى حسمت فى النهاية ترددى.. اننى ايضا فى حاجة ماسة لان اعرف الحقيقة.

كانت هذه اول زيارة لى للقاهرة بعد زيارة القدس وماتلاها من احداث.. رغم انه لم يكن قد مر على اكثر من عام، الااننى احسست وكأنه قد مضى على سنوات، الشوارع اكثر إزدحاما والمرور اكثر اختناقا حتى ان رحلتى من منزلى فى العجوزة حتى مبنى الجريدة صباح ذلك اليوم قد استغرقت اكثر من ساعة. فاغلب الشوارع غارقة في مياة المجارى او يجرى العمل فيها اما لحفريات عميقة أو لإقامة كبارى علوية. وعلى طول الطريق تغيرات وتطورات على واجهات المحلات مع زيادة ملحوظة لمحلات الكوافير والبوتيكات وحتى محلات البقالة العادية وضع اغلبها عنوان كبير "سوبر ماركت". وقد افزعنى للغاية أن شارع احمد عرابى الذى كان ساكنا غارقا فى الخضره يوم سكنت فيه اواخر الستينات والتى كانت تمتد المزارع والحقول عند اطرافه

قد امتلأ بالاساسات الخرسانية وببعض الانشاءات والابراج التى كان العمل يجرى فيها على قدم وساق مع ضجة الاوناش الكبيرة والات الدق العملاقة والمزعجة وتراجعت بل واختفت المزارع والحقول على مرمى البصر..

كما كان من السهل ان ترى عشرات اليافطات المعلقة على واجهات العمارات بما فى ذلك عمارتنا الصغيرة تعلن عن شركات جديدة للمقاولات والاستيراد والتصدير وكلها تنتهى بلفظ كو.. "مندوركو للآستثمار" "انوراركو" للاستيراد والتصدير "ايوب كو" للاستثمار.. ثم مراكز السماسرة.. اما الاسعار فقد كانت مفاجأة بالنسبة لى فكل شيئ تقريبا وفى خلال ذلك العام قد تضاعف سعره تقريبا مع توافر كبير لكل السلع وبشكل خاص السلع الترفيهية والمستوردة..

وفى السوبر ماركت المجاور لمنزلى كانت هناك اكثر من عشرين صنف من الجبن من هولندا وبلجيكا وفرنسا والنرويج واسبانيا وكندا حتى استراليا ولم يكن بينها على اى حال صفائح الجبن الدمياطى الذى كنت أتوق اليه..

كما لاحظت تنوعا كبيرا فى اصناف البارفانات والعطور وادوات الزينة.. وقد ظللت اليوم الأول كله اتجول فى الشوارع ربما لشوق زائد لاعادة التعرف على قاهرتى الحبيبة وربما سعيا للتحقق بنفسى من افكار تتردد بين الحين والحين بان سياسة الانفتاح وزيارة القدس قد اجرت او بدأت تجرى تغييرات واسعة فى حياة الناس وافكارهم.

وان الابواب قد تفتحت لمزيد من الكسب بل والرخاء الذى كانت تبشر بها اجهزة الاعلام الرسمية. ورغم تلك المظاهر التى لا يستطيع احد أن يتجاهلها وخاصة اذا كان مغتربا مثلى الاانى احسست بالارهاصات الاولى للخطر على الاقتصاد القومى كله. فمن الواضح ان الابواب اصبحت مفتوحة تماما لاستيراد كل شيئ من الخارج من استراليا الى كندا والبرازيل كما ان الهجرة المصرية الى الخارج وخاصة الى بلاد النفط قد احدثت نوعا من الانتعاش الاستهلاكى كذلك زادت ايرادات البترول بدرجة ملحوظة نتيجة ارتفاع اسعاره..

لقد شهدت البدايات الاولى لهذه السياسات قبل ان اسافر الى المانيا بل كان عجزى وتوجسى من نتائجها احد اسباب قبولى للسفر وفى كل زياراتى السابقة المس تلك التغيرات الوافدة، ولكنى لم اراها تنعكس بوضوح على الناس والشوارع بقدر ما رايتها هذه المرة..

فهل هناك بالفعل مرحلة من الرخاء والانتعاش الاقتصادى.. وفى المساء كنت على موعد مع احمد طه وقبارى عبد الله فى كافتيريا بفندق ناسيونال. وتوافد على الجلسة فى تلك الليلة الدكتور محمود القاضى واحمد مجاهد وكلهم كانوا اعضاءا فى مجلس الشعب ويلعبون دورا بارزا فى قيادة المعارضة سواء بالنسبة لزيارة القدس ام بالنسبة لسياسة الانفتاح..

كان محمود القاضى يخوض ايامها معارك مع النظام وخاصة مع عثمان احمد عثمان صهر

السادات والمخطط للسياسة الاقتصادية لحزب مصر وهو الحزب الحاكم فى ذلك الوقت وفضح بالارقام بعض مظاهر سياسة الانفتاح والنزيف الذى يسببة للاقتصاد المصرى وخاصة فى صفقات مشبوهة مثل استيراد الاتوبيسات من ايران والعمولات الكبيرة التى يحصل عليها المستوردون.. كما كان يسعى فى ذلك الوقت لانشاء حزب الجبهة الوطنية مع ممتاز نصار وكمال الدين حسين..

وكان قبارى عبد الله واحمد طه لا يكفان عن تقديم الاسئلة والاستجوابات عن الاوضاع الاقتصاديه وهجرة العمالة الفنية الى بلدان النفط مما يؤدى فى واقع الامر الى خسارة اقتصادية مزدوجة والإفتقاد الى كثير من الخبرات والكوادر الفنية الامر الذى ادى من ناحية اخرى الى استيراد كوادر وخبراء اجانب لسد الفراغ يحصلون على اجور عالية.. كان احمد مجاهد يركز على الخلل الذى حدث فى الزراعة والافتقار الى العماله الزراعية المدربة التى هاجرت باعداد واسعة للعمل فى بلاد نفطية سعيا وراء الرزق مما ادى الى انتشار ظاهرة تبوير وتجريف الارض وفوضى كاملة فى الانتاج الزراعى الامر الذى يمكن ان يؤدى الى كارثة قومية قال احمد طه: إن بلدان النفط العربية تستورد العمالة المنتجة ثم تصدر الينا الانماط الاستهلاكية

وعلق قبارى ضاحكا..

-: على اى حال فهم ليسوا على استعداد لاستيراد المعارضة من امثالى وامثالك

ولكن القاضى قال فى جدية وحسم

-: لاتتعجل فانا على يقين من انهم سيسعون لاستيراد المعارضة حسب المقاس

واعلن القاضى ليلتها توجسه من موقف الدول العربية وخاصة دول النفط من زيارة السادات للقدس والمباحثات التى تجرى من اجل عقد اتفاقية سلام مع اسرائيل فبالرغم من انها أدانت الزيارة وتلك السياسة الا انها لم تتخذ سياسة او مبادرات معينة لمواجهتها

وحينما ساله قبارى عما يمكن ان تفعله هذه الدول قال القاضى..

-:إن جوهر المشكلة اقتصادى ومن الواضح ان السادات يتجه الآن بكل ثقله الى امريكا واسرائيل كحل للمشكلة الاقتصادية.. ان فى مقدور هذه الدول لو ارادت ان تقوم بمبادرات اقتصادية فعالة مثل تقديم معونات ملموسة او الاسهام بشكل واضح فى مشاريع التنمية فى مصر

ولكن يبدو لى ان الدول العربية والنفطية منها بشكل خاص ليست معنية بذلك بل ربما كان بعضها يسعى بشكل مباشر او غير مباشر الى بيع مصر لامريكا ولاسرائيل

والتقط القبارى الخيط وقال فى تساؤل مدهش بدون محاولة للتنظير

-: ولماذا نلوم الدول العربية وحدها على هذا الموقف.. الاترون ان الاتحاد السوفيتى يتخذ

هو الاخر موقفا يكاد يكون سلبيا للغاية خلاصته دعنا ننتظر لنرى تاركا الساحة باكملها لاسرائيل وامريكا..

اما احمد طه الذى كان صامتا حتى تلك اللحظة فلقد ابدى بعض التحفظ على ملاحظات قبارى الخاصة بالسوفيت وحتى اعتبارات القاضى الخاصة بالدول العربية قائلا..

*- ان السادات يندفع فى استراتجيتة الخاصة واضعا الجميع فى خانة اليك وظهره للحائط

ولكن قبارى انطلق فى غضب صادق

*- اذا كان مقبولا بالنسبة للدول العربية. فهو ليس مقبولا باى حال من الاحوال من دوله كبرى وصديقة مثل الاتحاد السوفيتى انه يتخذ موقف الادانة والفرجة فقط واخشى ما اخشاه ان يكون بصدد تنفيض يده من مصر والبحث عن بدائل فى المنطقة

قال احمد طه فى انفعال

*- ليس هناك مايصلح ان يكون بديلا عن مصر ان لها ثقلها الخاص والسوفيت لا شك يدركون هذا تماما

قال قبارى مستسلما مع عدم اقتناع

*- ارجو هذا

واخذت اتطلع الى وجه قبارى الاسمر والابتسامة الحلوة التى كانت دائما علامة هذا الوجه تضيع وسط موجة من القلق والتوتر الذى ارتسم عليه. وتذكرت موقفه الصعب منذ اكثر من عام وفى اعقاب الانتفاضة الشعبية فى يناير من العام الماضى حينما اختاره السادات فى مجلس الشعب ليجرى معه حوارا أو بمعنى اخر استجوابا علنيا فى جلسة اذاعها التليفزيون على الهواء..

كان السادات يومها يهاجم فى عنف ومرارة اليسار المصرى من شيوعيين واشتراكيين وناصريين ويتهمهم بالتخريب وبالعمل ضد مصلحة مصر

ووقف القبارى يومها ليقول للسادات

*- ان اليسار هو اكثر القوى الوطنية حرصا على مصر ودفاعا عن مصالحها.

وكانما إستشار بذلك غضبه الضبع الجريح فراح السادات يوجه له اسئلته الغريبة والمثيرة عن موقفه اذا هاجم مصر بلد من البلدان وما رايه فيما يذيعه راديو موسكو عن مصر وهل هو مع مصر ام مع موسكو..

وقبارى يرد فى ثبات أن اليسار المصرى سيكون اول من يدافع عن مصر اذا تعرضت لأى

هجوم من الخارج سواء كان من موسكو او من واشنطن او من تل ابيب ولكن هناك فرق بين مهاجمه أو ادانة سياسة معينة تتبعها ادارة او سلطة معينة وبين مهاجمه مصر نفسها..

والسادات باصراره المعهود لا يترك الفرصة لقبارى ويصر على ان يجعل من نفسه وسياستة تجسيدا لمصر كلها وبالتالى فأى هجوم عليه وعلى سياسته هو هجوم على مصر... اكثر من نصف ساعة اذاعها التليفزيون على الهواء والسادات بكل ما يملك من سلطة يحاول ويعمل على حصار قبارى والنيل منه وقبارى يعلوا بصوته بين الحين والاخر مؤكدا موقفه احيانا بسمع واحياناً كثيرة يضيع فى ضجة نواب الحكومة ومقاطعاتهم... لقد سمعت من قبارى نفسه تفاصيل ما جرى ووجهه يموج بانفعالات حادة وصوته صادر من اعماق وفى عينيه دموع لاتسقط.. نصف ساعة وانا اقف وحدى فى مجلس الشعب بين السادات الذى يجلس على المنصه ويكيل التهم والكلمات المنتقاه جيداً ولا يترك لى فرصة للرد وبين نواب الحكومة وضجيجهم ومقاطعاتهم حتى ان احدهم جذبنى من الجاكيت قائلا

*- اتنيل واقعد.. انت مين علشان ترد على رئيس الجمهورية

ولكن كل ذلك يهون.. المصيبة بل والكارثة ان البعض داخل حزب التجمع هاجم قبارى بعنف بعد هذه الجلسة على اساس ان موقفه كان ضعيفا متخاذلا أمام السادات

وكان قبارى يقول فى حدة

قل لى بصراحة هل كان موقفى ضعيفا وهل هناك خطأ فيما قلته

وكنت اقول له

ان الظروف وضعتك فى موقف صعب للغاية لكن موقفك كان عظيما.. اما هؤلاء الذين هاجموك من اليسار من مناضلى الشعارات فلاتلتفت اليهم..

تذكرت كل هذا وانا اتأمل هذا العامل البسيط الصديق الذى اجتاح الانتخابات مرتين متتاليتين فى دائرة قصر النيل قافزا فوق كل العقبات والسدود والحواجز التى وضعها النظام امامه وكلى لهفه ورغبة فى أن امسح من على وجهه سحب اليأس القاتمة التى كانت تتجمع لتحاصر ابتسامته المتفائلة التى كانت تميزه. وحينما اوصلنى قبارى بعربته فجر تلك الليلة الى منزلى فى العجوزة قال فى هدوء

*- اننى حائر بالفعل فموقف السادات واضح فهو يمضى فى الاعتماد على امريكا واسرائيل ولكن الذى يحيرنى هو موقف الاخرين انهم لا يفعلون شيئا سوى الصياح والادانه فهل اتفق الجميع على دفع مصر الى الهاوية..

لقد كانت تساؤلات مشروعة بل واكاد اقول صادقة واكثر تعبيرا عن الحقيقة..

فى اليوم التالى كنت على موعد مع عبد الرحمن الشرقاوى فى مكتبه فى الاهرام.. وكان

الشرقاوى بعد استقالته من روز اليوسف العام الماضى وفى اعقاب انتفاضة١٨ ١٩ يناير التى دافع عنها كما دافع عن اليسار فى مواجهة الهجمة البربرية التى تعرض لها فى ذلك الوقت قد نقل كاتبا فى الاهرام ثم وقع عليه الاختيار بعد اغتيال يوسف السباعى سكرتيرا عاما لمنظمة تضامن الشعوب الاسيوية والافريقية. وقد تحمس السوفييت لهذا الاختيار باعتبار ان الشرقاوى واحدا من ابرز الكتاب التقدميين المصريين والعرب كما انه يكاد يكون الوحيد من ذلك التيار الذى مازلت له علاقة بشكل او باخر برأس النظام فى مصر..

وقد التقيت فى مكتب الشرقاوى بكل من لطفى الخولى وعبد العزيز عبد الله ومكرم محمد احمد

كان الشرقاوى فيما هو واضح مختلفا مع توجهات السياسة الرسمية وخاصة فيما يتعلق بامريكا واسرائيل وكان فى كل لقاءاته مع السادات لا يتردد فى التحذير من مغبة هذه السياسة التى ستؤدى من وجهة نظره الى عزل مصر عن الدول العربية وعن اصدقائها التقليديين. وكان السادات بالرغم من ذلك بل وربما من اجل ذلك حريصا على ابقاء الطريق بينه وبين الشرقاوى مفتوحا بعد ان أوصد كل الابواب تقريبا مع كل قوى اليسار بل ومع العناصر التى كانت تختلف معه فى توجيهاته وافكاره

وكان الشرقاوى متحمسا فى ذلك اليوم لدعوته التى نشرها فى الاهرام من اجل جبهة وطنية تضم كل القوى بما فى ذلك حزب مصر وهو الحزب الحاكم لوضع ميثاق عمل وطنى جديد تلتزم به.

وكان منطق الشرقاوى ان ذلك قد يعيد الثقة من جديد لدى السادات حتى لا يمضى فى سياسته الخطرة التى ينتهجها معتمدا على وجود قوى وطنيه داخل الحزب الحاكم نفسه منها ممدوح سالم رئيس الحزب ورئيس الوزراء وعبد العظيم ابو العطا السكرتير العام للحزب كما كان يراهن على تعثر المفاوضات بين مصر واسرائيل وامريكا نتيجة التعنت والصلف الذى يتخذه الجانب الاسرائيلى..

اما لطفى الخولى والذى كان قد اثار ضجة واسعة فى صفوف اليسار المصرى والعربى بسلسلة مقالاته فى الاهرام عن مدرسة السادات السياسية فقد أخذ يردد وجهة نظره من انه حاول ان يوضح دائما ان السادات وبغض النظر عن الاختلاف مع سياسته هو وحده الذى يقدم حتى الآن استراتيجية واضحة المعالم ترتكز على الاعتماد على الولايات المتحدة والتصالح مع اسرائيل بينما تفتقر القوى الاخرى وبشكل خاص اليسار الى استراتيجية بديلة متكاملة وهذا فى رايه هو مكمن الخطر. فكل القوى التى تختلف مع السادات تقوم على سياسات رد الفعل فقط دون ان يصاحب ذلك خط او استراتيجية سياسية مواجهة..

ولقد تصور البعض من اليسار كما تصور السادات ان لطفى يدافع عن سياسته الى درجة ان السادات حاول ان يقربه له ودعاه ذات ليلة الى منزله بالقناطر وطلب منه ان يقوم بكتابة

مذكراته.. الامر الذى اعتذر لطفى عنه فى ذكاء موضحا انه يختلف مع الرئيس السادات سواء فى توجيهاته السياسية ام الاقتصادية ولم يغفر السادات للخولى ذلك ابدا..

ولقد ظل لطفى الخولى يردد ان البعض وخاصة فى اوساط اليسار قد فهم مقالاته وافكاره بطريقة عكسية وانه مالم تنتبه القوى الوطنيه واليسار بشكل خاص فى مصر والعالم العربى الى ذلك الخلل فان السادات سيمضى بسياسته الى النهاية الحزينة. وكاد أن يكرر بالحرف المخاوف التى عبر عنها قبارى عبد الله بالامس.

كنت اتابع تلك المناقشة التى يتبادلها الشرقاوى والخولى وانا اتأمل مكرم محمد احمد الذى جلس صامتا اغلب الوقت..

ولقد توطدت علاقتى بمكرم بل واكاد اقول تعرفت عليه بشكل حقيقى حينما شملنى واياه مع عدد اخر من الكتاب والصحفيين قرارت الفصل المعروفه التى اصدرتها لجنة النظام فى الاتحاد الاشتراكى سنة١٩٧٣

ولقد اكتشفت فيه طاقة وامكانية مقاتلة ومتحركة إذ كان له دور بارز فى تلك الايام ونحن نجلس فى النقابة نتدبر الامور فى تنظيم اشكال واساليب الاحتجاج الذى لم نكف عن القيام به حتى اصدر السادات قراره بعودتنا الى العمل قبل اسبوع واحد من معركة اكتوبر المجيدة.

واذكر حينما ذهبت مجموعة منا بعد قرار العودة للالتقاء بعدد من الشخصيات التى تعاطفت مع قضيتنا ولعبت دورا فى حلها من اجل شكرهم وكان من بينهم السيد حافظ اسماعيل مستشار الرئيس للأمن القومى فى ذلك الوقت والسيد شفيق غربال وصديقى العزيز عادل الجيار الذى كان يعمل فى ذلك الوقت فى مكتب المعلومات فى رئاسة الجمهورية والاستاذ محمد حسنين هيكل رئيس تحرير الاهرام..

وقد التقينا بالاستاذ هيكل فى مكتبه بالاهرام وقال كلاما كثيرا مؤداه اننا كنا مثل كورة فى ملعب يحاول البعض من خلالنا ان يسجل اهدافا لصالحه..

كان هيكل يتكلم بطريقته المعهودة السريعة ويلعب بقلم فى يده وحينما ساله بعض الزملاء فيما اذا كان هذا القلم هو الذى يكتب به مقالاته يوم الجمعة..

قال هيكل انه سيهدى هذا القلم الى من يتوسم فيه القدرة على ان يكون تلميذا حقيقيا له قريبا منه ومن افكاره.. وكان هيكل يقول ذلك وعينه على مكرم محمد احمد. وحينما خرج هيكل من الاهرام وانفض كثيرون من حوله لم ينسى مكرم مقوله هيكل التى اشعلت فيما يبدو طموحه المشروع..

وقد وجد مكرم فى صحبة الشرقاوى فى ذلك الوقت بعض العزاء والأمل فقد كان بينهما من الناحية النسبية تقاربا فكريا يعوض ذلك الاغتراب الذى احس به مكرم مع القيادات التى جاءت بعد هيكل..

وحينما انتهى اللقاء مع الشرقاوى وانفردت بمكرم اساله عن رايه فى كل ما يجرى قال ضاحكا

*- الدنيا تتغير ياابو الفتوح ولم تعد الاساليب والوسائل القديمة تكفى. هناك مخاطر حقيقة ولايكفى موقف الفرجة والادانه..

*- ماذا تعنى؟

*- اعنى ان الانسان يمكن ان يلعب دورا فعالا من داخل الظاهرة وليس من خارجها

***

ولكن اين حزب الوفد الجديد واين فؤاد سراج الدين من هذا كله. هذا ما كنت احاول ان ابحث عنه

لقد كان موقف القوى الاخرى واضحا

اليسار إبتداء من حزب التجمع حتى بعض شخوصه المستقلين يواجهون السياسة الجديدة باساليب تقليدية ويقفون وحدهم فى الساحة رافعين الصوت بالمعارضة ومعرضين فى نفس الوقت لهجمات متلاحقة من جانب السلطة فى مصادرة صحيفتهم الاهالى وفى هجوم اعلامى مركز من الصحف والاذاعة والتليفزيون..

والناصريون مقسمون بين التجمع وبين بعض الجماعات الصغيرة التى يقودها كمال احمد يقلل من تاثيرهم الهجوم المكثف المستتر احيانا والواضح فى احيان كثيرة من جانب النظام على عبد الناصر ونظامه.. وكذلك غياب رموزهم الحقيقة داخل السجون بعد انقلاب القصر فى ١٥ مايو سنة١٩٧١..

وحزب العمل الاشتراكى الذى يرأسه ابراهيم شكرى يعيش حالة انعدام وزن بعد ان لعب السادات بذكاء دورا فى تبنيه له حينما كان اول الموقعين على انشائه كما فرض صهره محمود ابو وافية سكرتيرا عاما له..

اما حزب الاحرار الصغير ففى حالة تاييد متصل للسادات.. اما الجماعات الدينية التى بدأ وجودها محسوسا ملموسا بعد ان قدم النظام لها كل المساعدات الممكنة لابرازها فى مواجهة اليسار فى الجامعات والنقابات فهى تعيش فى حالة وفاق مع النظام يشوبه بين الحين والاخر انفلاته فى بعض الجماعات المنشقة عن الاخوان المسلمين مثلما كان الامر فى صالح سرية ومحاولته السيطرة على الكلية الفنية العسكرية بوسائل بدائية او جماعة شكرى مصطفى واغتيالها الشيخ الذهبى. ولكن الرؤوس المفكرة والقائدة للأتجاه الدينى المتمثلة فى جماعة الاخوان المسلمين وبعض رموزها الواضحة مثل التلمسانى وصالح عشماوى وابو رقيق كانت فى هذه اللحظة تحرص على علاقة حوار طيب مع السادات مرددة بين الحين والاخر فضله عليها فى اخراجهم من السجون وتمكنهم من إصدار جرائدهم ومجلاتهم مثل الدعوة والاعتصام موجهة كل سهامها ضد اليسار والناصرين بشكل خاص.

وبالرغم من تحفظهم المعلن ازاء زيارة القدس الا انهم ظلوا يعيشون فى حالة انتقام من الماضى دون محاولة جادة حتى ذلك الوقت لاستشفاف المستقبل..

ولكن اين حزب الوفد الجديد من هذا كله

كنت اتابع فى برلين المحاولات التى كانت تبذل من اجل اعادة تشكيل هذا الحزب فى تعاطف ايجابى.

فمن فى جيلنا يستطيع ان ينسى الدور الكبير الذى لعبه حزب الوفد فى حياة مصر الوطنية والديمقرطية وفى مواجهة الاستعمار والملكية المستبده. ومن منا لم يبدأ خطواته الأولى فى العمل السياسى بين صفوف هذا الحزب العريق. وحينما مات مصطفى النحاس١٩٦٦ كنت واحدا من مئات الالوف التى ذهبت تودع هذا الزعيم الوطنى العظيم الذى اعتبره واعتقد ان التاريخ سيؤيدنى فى ذلك واحد من أهم إن لم يكن أهم زعيم وطنى فى حياة مصر فى النصف الأول من القرن العشرين. ربما كان الزعيم الوحيد الذى امتزجت فيه الابعاد الثلاثة البعد الوطنى والبعد الديمقراطى والبعد الاجتماعى

ولقد كان يحلو لى دائما ان اقدم نفسى مازحا.

- وفدى النشأه اشتراكى الهوى والعقيدة...

ولقد سعدت للغاية حين عرفت أن الصديقان احمد طه وقبارى عبد الله قد وقعا لحزب الوفد الجديد مساهمة منهم فى اخراجه من الازمة التى واجهها لاستيفاء الشرط الذى وضع لاعلان احزاب جديدة حيث لم يستطع ان يستكمل قائمة العشرين نائبا المطلوبين.. ولذلك رحت ابحث عن الزملاء والاصدقاء من شباب الطليعة الوفدية فى الخمسينات والتى كانت تمثل الجناح اليسارى الاشتراكى فى حزب الوفد والذين خطوت معهم اولى خطواتى فى العمل السياسى وانا بعد ازغب يروض الجناح ...

وفى السابعة مساء توجهت ومعى سيد البكار واحمد ترابای للقاء مع الباشا...

فؤاد سراج الدين السكرتير العام لحزب الوفد الجديد.

جلسنا وحدنا فى غرفة من غرف القصر فى جاردن سيتى والذى كان يموج بالعشرات بل والمئات من القادمين والرائحين.. ولم ينسى الباشا ان ينبه سكرتيره انه مشغول ولمدة ساعة.. وهكذا حدد من البداية مدة اللقاء.. ولكنه استغرق فى واقع الامر اكثر من ساعتين..

اخذت اتامل الرجل الجالس امامى وقد تعدى السبعين بمزيج من الحب والاعجاب وايضا التحفز واود ان أضيف ايضا بعض الرهبة التى تحس بها فى حضور شخصية آسره تملك كل مقومات الكاريزم.

لقد رايته اربع مرات من قبل.. وعن قرب..

المرة الاولى فى ميت غمر فى انتخابات سنة١٩٤٩ وكان عمرى وقتها لا يتعدى العاشره كان يقوم بجولة انتخابية لمساندة المرشح الوفدى.. وذهبت مع والدى الذى كان احد المسئولين فى الوفد فى لجنة المركز وظللت طيلة الخطاب الذى استمر اكثر من ساعة اركز على وجهة الممتلئ وتلك الحسنة الكبيرة على صدغه وهذا السيجار المنطفئ اغلب الوقت الذى يضعه بين يديه وكلماته الهادئة التى كانت تنتزع دوما تصفيقا ساخنا وهتافا ممتدا.. وقلبى يخفق بحب كبير له وللنحاس الذى كان هو سيد الناس فى ذلك الوقت..

والمرة الثانية فى سنة١٩٥١ فى منزل النحاس فى جاردن سيتى حين تجمع عدد من قيادات العمل الطلابى فى الجامعة والمدارس الثانوى وكنت احد القلائل الذين يمثلون المدارس الثانوية للالتقاء بالزعيم مصطفى النحاس للاحتجاج على اعتقال بعض شبان الطليعة الوفدية فى ذلك الوقت. وتقدم زعماؤنا الى الزعيم الجليل الذى كان يقف الى جواره فؤاد سراج الدين وزير الداخلية فى ذلك الوقت مطالبين بالافراج الفورى عن هؤلاء الشبان..

وقال النحاس: مش ممكن.. كيف يحدث اعتقال فى عهدى..

ورد سراج الدين.. ليس هناك اعتقال انهم مجموعة من الشبان الذين اثاروا بعض الشغب وكلهم شيوعيون.. وقد احتجزتهم الاقسام يوما او يومين وامرت بالافراج عنهم..

وهنا تعالت صحيات زعمائنا: لا لا مازالوا فى الاقسام انهم وفديون.

وهنا قال النحاس بحسم طيب.

*- افرج عنهم يافؤاد فورا.. وفديون ولا شيوعيون ولا حتى هباب ازرق..

مش كفاية عليهم الانجليز.....

وهتفنا فى مرح: يحيا الهباب الأزرق...

وضحك الجميع بما فى ذلك فؤاد سراج الدين..

والمرة الثالثة فى مستشفى سجن مصر بعد الانفصال السورى سنة ١٩٦٢ كنت مرحلا من معتقل الواحات الى مستشفى القصر العينى للعلاج بعد ان تدهورت حالة عينى فى الصحراء ووضعت فى مستشفى سجن مصر بعض الوقت.. وهناك رايته وجالسته وهالنى بل واعجبنى ثباته ورباطه جأشة وتحمله لمشاق السجن بل وتعايشه مع المساجين على عكس البعض من السياسيين القدامى الذين كانوا فى حالة انهيار كامل وعاشوا فى عزلة فى عنبر مستشفى السجن.

ويومها أيقنت وبغض النظر عن اى خلاف او اتفاق معه اننى امام سياسى من طراز خاص لاتنقصه القدرة على النضال..

والمرة الرابعة: فى اواخر الستينات حينما كنت اقوم بجولة وسط البلد وجذب نظرى تجمع حول احد محلات المزاد وكان المعروض بعض العاديات والتحف الاثرية الجميلة ووجدت فؤاد سراج الدين جالسا يشارك فى هدؤ فى المزاد وبخبرة واضحة فى الممارسة وانحنيت له من بعيد ومضيت..

واليوم اجلس إلية بعد تلك السنوات لاجرى معه حوارا باعتباره سكرتيرا عاما لحزب الوفد الجديد.

اتفقت معه ووافقنى على ذلك بان نبعد عن صيغة الاسئلة والاجوبة وبأن يجرى حوارا متكاملا حول الظروف الراهنة..

برنامج الحزب الجديد مدى ارتباطة او ابتعاده عن قيم الحزب القديم.. الديمقراطية الليبرالية.. العلمانية.. الانتماء العربى ومواجهة الاستعمار والصهيونية.

الاوضاع الاقتصادية والموقف من انجازات ثورة يوليو وخاصة الاصلاح الزراعى والقطاع العام والعدالة الاجتماعية.

واخيرا زيارة السادات للقدس.. والتقارب المصرى الامريكى الاسرائيلى.

وتحدث سراج الدين كما لم يتحدث من قبل وكما لم يتحدث من بعد

ساعتان كاملتان نشرتهما بالكامل فى عدد خاص من مجلة الوطن العربى فى يوليو سنة١٩٨٧..

كان اهم ما قاله

* ان الحزب الجديد هو امتداد طبيعى للوفد واضعين فى الاعتبار الظروف والاوضاع المتغيرة على الساحة المحلية والاقليمية والعالمية خلال اكثر من ٣٥ عاما توقف الحزب فيها عن النشاط..

* انه حريص بل وسعيد ان يكون فى الحزب الجديد تيار يسارى واضح ممثلا فى عدد من أعضاء الهيئة العليا مثل د/ محمد انيس ود/ حلمى مراد وعدد اخر من قيادات العمل فى لجان المحافظات والاقسام فذلك كان وسيظل تراث الوفد باعتباره ممثلا للتيار الوطنى الديمقراطى العريض..

* ان الديمقراطية والعلمانية والانتماء العربى ومواجهة الاستعمار والصهيونية هى القواعد الاساسية لبرنامج الحزب القادم وللوفد تراث كبير فى هذه المجالات وليس من المعقول ان يتخلى الحزب عن هذه المبادئ وخاصة بعد ان ثبت فعاليتها وضرورتها

* ان الخلاف بين الوفد وثورة يوليو كان خلافا مصطنعا لعبت فى تعميقه عوامل كثيرة..

فالوفد هو الذى كان يقود النضال ضد الاستعمار والملكية.. كما كانت العدالة الاجتماعية او فلنقل الاشتراكية الديمقراطية هى احد اهدافه الرئيسية. فالوفد هو الذى اصدر التشريعات العمالية وحق تشكيل النقابات كما كان دائما متعاطفا مع مطالب الفئات الشعبية وصغار الموظفين كما ان الوفد كان هو الذى قدم قوانين الضريبة التصاعدية والحد من الملكيات الزراعية الكبيرة وقوانين من اين لك هذا.. ومجانية التعليم وتقديم الخدمات الصحية والتعليمية المجانية لجماهير الشعب ومد القرى بالمياة العذبة الصالحة..

ولذلك كله فالوفد كان اقرب الاحزاب ومازال الى مبادئ ثورة يوليو ولكن التطبيق ذهب بهذه المبادئ وانحرف فيها فى كثير من الاحوال..

* اننا مع القطاع العام المنتج ولكننا ضد احتكار الدولة لكل النشاط الاقتصادى ومع الاصلاح الزراعى ولكن ضد فوضى الانتاج والتفتيت الشديد فى الملكية الزراعية الذى يؤثر على الانتاج..

* واذهب وحلل جميع نتائج الانتخابات التى اجريت قبل سنة١٩٥٢ من كان يمثل القاعده الانتخابيه للوفد.. العمال والفلاحون والمثقفون وصغار الموظفين والرأسماليه الوطنيه اليس هذا صحيحا..

* ان الوفد يقدر للرئيس السادات انهاؤه لنظام الحزب الواحد وفتح الباب امام تشكيل الأحزاب المختلفه والذى هيئ الفرصه الموضوعيه لقيام حزب الوفد الجديد، لكن القوانين المعمول بها مازالت ابعد كثيرا من ان تحقق الديمقراطيه الحقيقيه، واعتقد أن المسيره ستكون شاقه وطويله فى هذا المجال ففى خلال الثلاثين عاما الماضيه تشكلت فئات داخل السلطه تعادى الديمقراطيه وتعمل للحفاظ على مواقعها وامتيازاتها..

قلت قرب نهاية الحديث..

*- ولكن السكرتير العام لحزب الوفد الجديد، لم يقل حتى الان رأيه فى زيارة السادات للقدس والتقارب المصرى الامريكى الاسرائيلى..

ضحك الباشا وطلب للجميع فنجانا اخر من القهوه ثم قال

* اسمع يا اخ فتحى.. اعرف انك واقعى النظره.. اننا حزب يقوم وينهض بعد٣٥ عاما من الحظر والجمود واحيانا الملاحقه.. ومن الطبيعى ان يكون الهم الاول لنا هو اعادة تشكيل الحزب وارساء بنيابه...

اما زيارة السادات للقدس فأن احدا لم يستشيرنا قبلها، ولذلك اخذنا موقف الانتظار والترقب.. ولكن موقفنا واضح بالنسبه للدفاع عن حقوق شعب فلسطين فى اقامة دولته المستقله وبقيادة منظمة التحرير الفلسطينيه، كما اننا سنقف ضد اى حلول جزئيه لا تقدم حلا

شاملا للمشكله بما فى ذلك انسحاب اسرائيل من الارض العربيه المحتله..

اما بالنسبه لتطوير العلاقه مع الولايات المتحده الامريكيه فنحن بالطبع لسنا ضدها ولكننا نطالب فى نفس الوقت بأجراء توازن فى العلاقه مع الدولتين العظميين اى نطالب ايضا بعلاقات جيده مع الأتحاد السوفييتى، ونحن نقدر جيدا المساعدات التى قدمها السوفييت للشعب المصرى..

ولاتنس ان حزب الوفد هو الذى اقام العلاقات الدبلوماسيه مع الاتحاد السوفييتى كما اننا رفضنا فى اوائل الخمسينات الحلف الدفاعى الذى اقترحته امريكا وبريطانيا فى ذلك الوقت كما اننا رفضنا الاشتراك فى الحرب الكوريه التى كانت تقودها امريكا واخذنا موقفا حياديا ولذلك فالحياد او عدم الانحياز هو مبدأ ثابت واصيل لدى الوفد...

كان سراج الدين طوال الحديث الممتد يتكلم فى هدوء وثقه وايضا فى بساطه مسترجعا بين الحين والاخر بعض الذكريات والاحداث السياسيه التى يعود تاريخ بعضها الى أكثر من.. اربعين عاما..

والغريب ان هذا الشيخ الذى جاوز السبعين عاما، لم يبد عليه اى شكل من اشكال الارهاق بالعكس كانت الكلمات تتدفق منه حيه نابضه وبأحساس شاب بالمستقبل

وقبل ان اصافحه بل واقبله مودعا قلت

هل يرد فى تصورات فؤاد سراج الدين امكانية ان يرأس وزاره مصريه فى المستقبل؟! وضحك حتى اهتزت وجنتاه واختفت عيناه قائلا..

*- ليس ذلك هو المهم، لكن الاهم اننى ظللت طوال تلك السنوات الماضيه احلم بهموم مصر ومشاكلها، ولم اسقط فى هوة اليأس والالام..

ولست ارى اى سبب اليوم لان اكف عن تلك الاحلام...

كنت احلم يوما بأنى جان دارك التى انقذت وطنها ،
ولكنى عندما افكر فى الرجال الذين عرفتهم أسأل
نفسى كيف يستطيع مثل هؤلاء الرجال ان يحاربوا
دون ان تلحق بهم الهزيه

فتحى غانم- زينب والعرش

نوفمبر ١٩٧٨

سوق عكاظ.... فى بغداد..

امم شتى من جميع الجنسيات والالوان واللغات، اكثر من ٧٠٠ صحفى ومراسل اجنبى يتجمعون صباح ذلك اليوم من ايام نوفمبر البارد فى ساحة المركز الاعلامى على الضفه الاخرى من نهر دجله جاءوا ليشهدوا واحد من اهم واخطر مؤتمرات القمه العربيه ان لم يكن اخطرها على الاطلاق كانت ومازالت له اثاره وبصماته على العالم العربى كله..

لقد وقعت الواقعه وكان ما كان وتم توقيع اتفاقية كامب ديفيد منذ ايام.. وهنا اى بعد وقوع الكارثه تنادت عدد من الدول العربيه لعقد مؤتمر طارئ للقمه العربيه، اما قبل ذلك وفى الفتره بين زيارة القدس حتى توقيع الاتفاقيه وقد مضى عام كامل توقفت فيه المفاوضات اكثر من مره وواجهت تموجات عنيفه متناقضه لكن احدا من الانظمه العربيه لم تحرك ساكنا اللهم الا الأدانات اللفظيه والمباريات الاذاعيه والاعلاميه..

هل هو المنهج العربى التقليدى فى تناول الأمور الذى ينتظر دائما وقوع الفعل ليبنى رد فعله ام هى الاراده الامريكيه المهيمنه بشكل او بأخر على غالبية الانظمه العربيه فحالت دون اتخاذ مبادرات او تحركات عمليه من جانب تلك الانظمه حتى تكون لها مشيئتها..

ام ان السوفييت وهى القوه الاخرى والتى كان لها حتى عهد قريب دورا ايجابيا مؤثرا قد وقعوا او وقعت قيادتهم فى خلل اخر وقد تركوا الامور تمضى تحت مقولة فلننتظر ونرى..

متأثرين فيما يبدوا ، بل وربما منفعلين، بتجاوزات سياسة السادات ضدهم، تاركين الساحه فى نهاية الامر لأمريكا واسرائيل..

سوق عكاظ مع فارق اساسى انه ليس هناك معلقات شعريه تنقش على استار الكعبه..

ولكن مبالغات لفظيه وخطابات تتراوح بين لهجه الغضب المنفعل والادانه الشكليه تلقى فى قاعة قصر الرياسه فى بغداد..

والقبائل المتحدثه بالعربيه وزعمائها وصحفييها يشكلون حلقات فى ساحة قصر الاعلام...
هذا شيخ قبيله جاء ليعلن مساندته ومعاضدته...
وهذا شيخ قبيله يصيح ويقول... لقد حان الوقت لنعرف من هم العرب العاربه ومن هم العرب المستعربه.. من هم عرب امريكا ومن هم عرب فلسطين..
وينهض احد الشيوخ من اهل الشرق صائحا...
على مهلكم ياقوم، فلربما يكون الوقت لم يفت بعد والفرصه لم تضع، فوضوني واقيموا معى القسم لاذهب الى القاهره التقى بسلطانها المارق الابق لعلى استطيع ان اعيد رتق ما تمزق واصل ما كان قد انقطع...
واعروبتاه... واأسلاماه.... وافلسطيناه....
كيف تجرأ هذا الرجل على توقيع اتفاقيه مع اسرائيل المزعومه؟
ياللهول وياللدمار.. والاعلام الاسرائيليه سترفرف فى القاهره.. ياللعار..
والشعب المصرى.. ساكن ضائع، بل مؤيد.. الويل لهم جميعا.. هؤلاء الفراعنه انهم ليسوا عربا عاربه. اخذوا بالسيف.. بل الجوع والفقر..لا.. تموت الحره ولا تأكل بثديها... ولماذا يبيع هذا الرجل السمسم المقشور بغير المقشور.....
فى كامب ديفيد قضى الأمر.. الويل لمصر وللمصريين.. لننبذهم كما نبذنا اسرائيل... المقاطعه.. المقاطعه
ويأتى قائد عربى همام شارعا سيفه ممتطيا حصانا عربيا اصيلا.. ليلتقى بأهل الاعلام وليقول دعونى وانا احرر لكم القدس والقاهره وواشنطن...
اتبعونى وساقود بكم البحار والاهوال، اهديكم النصر المظفر...
وزعيم اخر، وضع امواله وتجارته بل ومصيره الشخصى مع امريكا، يترك القمه المنعقده منذ الصباح الباكر ليأتى الى قصر الاعلام ليعلن انه قد آن الاوان للجهاد المقدس.. وانه شخصيا قد اعلن هذا الجهاد وتصفيق متصل وهتافات بحياة الزعيم الابدى....
وثالث ورابع وخامس...
كلهم يتركون قاعة الاجتماعات ليلتقوا برجال الاعلام وليقولوا تصريحات ناريه .. فيها من الويل والثبور وعظائم الامور...
مولد واصحابه ليسوا متغيبون.. انهم موجودون ومغيبون.. مولد كبير ورهيب يختلط فيه الدراويش بالسحره والمشعوذين، تجد فيه الشيخ والمسيخ الدجال، وعيسى ويهوذا ومحمد ومسيلمه...
والحقيقه ضائعه فى موجه من الأنفعال الحماسى الاصيل او المصطنع، والكل غارق فى حالة الدروشه الانفعاليه..

وكل ساعه، بل وبين الساعه والساعه، يأتى زعيم ليلقى خبرا.. المقاطعه.. لمن.. لمصر تكوين جبهة الصمود والتصدى.. ضد من؟.. ضد النظام المصرى.. لا وضد كل من يؤيد من الشعب المصرى؟

وامريكا والمصالح الامريكيه... نعم نعم.. سننظر فى هذا فيما بعد...

طوال اليوم وانا ادور حدائق وممرات قصر الاعلام، صامتا اغلب الوقت، مشتركا احيانا فى بعض المناقشات مع صحفيين مصريين وعرب واجانب، ارى واسمع واراقب اذهب الى الكافيتريا لأتناول فنجانا من القهوه فى محاوله لفهم ما يجرى...

وانتابنى احساس غريب ومرير.......

ان دور مصر التاريخى، ذلك الدور الذى تواصلت فيه عوامل جغرافيه وبشريه وطبيعيه ليجعل منها مفتاح المنطقة بأكملها، هذا الدور الذى استمر وفرض نفسه وطوال عدة قرون متواليه وممتده فى اعماق التاريخ، هذا الدور الذى استوعبه تحتمس ورمسيس....،

وحرصت عليه كيلوباترا وشجرة الدر.. والمعز لدين الله الفاطمى وصلاح الدين والظاهر بيبرس واكده محمد على واسماعيل، وابرزه مصطفى النحاس وجمال عبد الناصر...

هذا الدور التاريخى الرائد والقائد......

بدا لى اليوم وكأنه يطرح فى المزاد العلنى..

وحينما جاء محمود رياض سكرتير عام الجامعه العربيه بعد ظهر ذلك اليوم الطويل الى ساحة قصر الاعلام ليعلن قرار القمه كان وجه الرجل يقول كل شئ..

التف حوله مئات الصحفيين يمطرونه بوابل من الأسئله والاستجوابات.... هل وصلتم الى قرار؟ كيف تستمر وانت مصرى سكرتيرا عاما للجامعه العربيه؟..

من الذى انتصر عرب المهادنه.. ام عرب الصمود والتصدى؟..

جلس الرجل صامتا بضع الوقت فى مواجهة عشرات التصايحات والاستفسارات التى لم تخلوا من استفزاز شخصى له.. ثم اخيرا اعلن القرار المؤقت الذى توصل اليه القاده المجتمعون بأرسال وفد يضم ثلاثه من الرؤساء والملوك العرب الى القاهرة للالتقاء بالرئيس السادات فى محاوله اخيره لاثنائه عن طريق كامب ديفيد....

وكيف؟ بعرض معونه عاجله تقدمها الدول العربيه الى مصر وتقدر ب ٣ مليار دولار ومتى؟ أن الوفد فى طريقه الان الى القاهره فى طائره خاصه، ومن المنتظر أن يعود هذه الليله.. والقمه فى حالة انعقاد دائم حتى يعود..

وهاج قصر الاعلام وماج بخليط من الاراء والانفعالات بين مؤيد ومعارض.. لا هذه رشوة للسادات.. بل هذا عين العقل فالشعب المصرى فقير ومحتاج.. اذا كان جوهر المشكله اقتصادى فلماذا لم يتحرك احد من قبل انها محاولة لتمييع قرارات المؤتمر.. هناك طابور خامس للسادات فى داخل القمة العربية.. وماذا لو رفض السادات؟..لا.. بالتاكيد سيقبل..

صح.. غلط.. سيرفض.. سيقبل.. مراهنات تجرى كما لو كنا فى ساحة سباق الخيل.. او فى احد كازينوهات القمار المعروفة.. ورئيس تحرير احدى الصحف العربية يؤكد لمن حوله انه لو كان قد كلف بهذه المهمه لعاد ومعه توقيع السادات بالغاء كامب ديفيد..

ومراسل رويتر يملى تقريرا له بالتليفون للمركز فى لندن ليقول ان مجرد ارسال هذه البعثة يعنى ان مؤتمر القمة لم يستطيع ان يتفق على قرار موحد بشأن الموقف من مصر والساداذات..

والزميل فتحى خليل الصحفى المصرى الذى يعمل فى العراق منذ سنين يقترب حاملا معه فنجانا من القهوه متسائلا..

-: ترى هل يوافق؟

-: من؟

-: السادات

-: على ماذا؟

-: حيلك.. انت مش هنا خالص.. على ذلك العرض العربى..

-: هل اصبحت القضية بيع وشراء.. اذا كان الامر كذلك فامريكا واسرائيل اقدر...

وتسرى الشائعات والاخبار.. البعثة وصلت مطار القاهرة.. السادات استقبلهم.. اللقاء استمر وقتا طويلا.. هناك مايؤكد ان السادات قبل.. بل انه سياتى معهم لحضور القمة فى بغداد.. ويضيع ذلك فى خبر اخر..لا.. السادات رفض لقاءهم اصلا.. الوفد العربى فى مطار القاهرة لايعرف اين يتجه..

ويتجه الكثيرون الى اجهزه الراديو، يضبطون المؤشر على راديو القاهرة..

فالسادات فى طريقه الآن الى مجلس الشعب ليلقى خطابا هاما لابد وانه سيقول شيئا عن وفد القمة التى قابلها او التى لم يقابلها.. ولم يكن هناك احد فى موقع ليؤكد او ينفى كل هذا لكم الهائل من التوقعات او الشائعات او الرغبات التى يحولها البعض الى اخبار. واخيرا بدأ السادات خطابه فى مجلس الشعب.. وراح كعادته ينتقل من الهدوء المشحون الى الانفعال المتفجر ويسرد الروايات والحكايات التى ادمنها فى كل لقاءاته وخطاباته والتى يجسد فيها رغباته واراؤه على انها رغبات واراء الشعب المصرى برمته. واخذ يقدم تبريراته بتوقيع كامب ديفيد مشيدا بدور امريكا والرئيس كارتر ثم معرجا على رد الفعل العربى وخاصة مؤتمر القمة المنعقد فى بغداد..

وهنا جال السادات وصال كما لم يفعل من قبل واستنزل اللعنات على العرب اجمعين واصفا اياهم ببعض الالفاظ الخارجة ثم اعلن رفضه بلقاء الوفد الذى ارسله مؤتمر القمة وانهى خطابه كالعاده وسط تصفيق متصل من مجلس الشعب..

واحسست حقيقة بالضياع.. بل تواصل هذا التصفيق الحاد والمتصل فى مجلس الشعب فى

ذهنى بذات هذا التصفيق الحاد والمتصل الذى كان يجرى لبعض الزعماء العرب المجتمعون فى بغداد.. نفس المنهج، نفس الاسلوب، كان الامر قضية ذاتية خاصة يتبادلها هؤلاء الذين يتلقون التصفيق المتصل الحاد، اما شعب مصر اما شعب فلسطين اما الشعوب العربية كلها فلهم الله او الشيطان..

اما الحقيقة نفسها فقد ضاعت ولم يهتم بها احد..

وتاكدت فى لحظة كل توجساتى وهواجسى منذ زيارة القدس. ان المطلوب هو عزل مصر، قام السادات بالخطوة الاولى بكامب ديفيد وهناك فى العالم العربى على ما يبدو من كانوا فى انتظار تلك اللحظة لاستكمال المخطط..

عزل مصر.. وفى تلك الفترة بالذات التى تتراكم فيها الثروات البترولية الهائلة فى العالم العربى والتى تتيح من الناحية الموضوعية فرصة تاريخية لاتعوض لتحضير وتحديث وتطوير الوطن العربى..

فى تلك الفترة الفريدة التى يتوافر بها لبلدان المنطقة ثروات هائلة يمكن من خلالها ومن خلال بعض الترشيد والتعقل توجيهها لاقامة مشاريع التنمية والتطور التى يمكن ان تغير من الوضع العربى الزاهن تغييرا جذريا.. فى تلك الفترة بالذات تاتى كامب ديفيد لتقدم مبررا موضوعيا وجاهز لمن يريد ان يفصل القلب عن الجسد..

واذا تم ذلك فهناك الدمار المحقق.. وهناك الضياع لكل شيئ.. ليس فقط لفلسطين بل والاموال والانسان والأمانى المشروعة والطموحات الغالية التى جالت وتعمقت وتعتقت لسنوات فى عقول واحلام المثقفين العرب.

ومضى كل شيئ فى بغداد على الطريق الذى كان يبدو انه مرسوم ومحسوب بدقة.

وفى اليوم التالى صدرت القرارات التاريخية قرارات تنحصر كلها فى كلمة المقاطعة..

* مقاطعة النظام المصرى....
* نقل مقر الجامعة العربية من مصر....
* نقل الاتحادات والمنظمات الجماهيرية من مصر....

ثم كلمات عامة وغير محددة عن التشاور والتباحث لتوحيد الصفوف العربية فى مواجهة كامب ديفيد والمؤامرة الامبريالية الصهيونية.

ولم يدرك المجتمعون انهم بتلك القرارات كانوا واقع الامر يدشنون تلك المؤامرة ويعمقونها..

ولم يكن احد ليستطيع ان يقدم لى تفسيرا مقنعا فى ذلك اليوم وانا أصيح واكاد اصرخ لمن حولى، كيف يمكن محاصرة المؤامرة الامبريالية والصهيونية بعزل الاتحادات والمنظمات الجماهيرية فى مصر..كيف يمكن ان يكون هناك اتحاد عمال عربى فعال بدون اتحاد عمال مصر..وكيف يمكن ان يكون هناك اتحادا للصحفيين العرب مع عزل نقابة الصحفيين المصريين..

اى منطق هذا الذى ساد، لقد كان المطلوب والمتوقع وفى مواجهة كامب ديفيد هو دعم المنظمات والهيئات الجماهيرية فى مصر ومساندتها الى الحد الاقصى لكى تقوم بدورها فى محاصرة ومواجهة اثار ونتائج كامب ديفيد..

ثم ماذا بعد قرارات الشجب والادانة والمقاطعة.. التى كانت كلها من نصيب نظام السادات ومصر بشكل عام.. اين امريكا والمصالح الامريكية.. وهى منتشرة ومنتعشة ومتحصنه فى اعماق التجمعات العربية..

تلك المليارات المؤلفة التى تستثمرها بعض الانظمة العربية وتودعها فى البنوك الامريكية والتى تصرف منها ومن فوائدها على اسرائيل وعلى كل ما يحاصر ويضرب المصالح العربية الحقيقة..

وتلك الواردات الهائلة من السلع الامريكية التى تغرق العالم العربى وتستنزف طاقاته ومدخراته وتصل نسبتها فى الموازنة التجارية لعديد من البلدان العربية الى اكثر من ٧٠٪.... ولكن جرى عن عمد تجميد بل واكاد اقول تحييد لدور امريكا واسرائيل واصبح المذنب الأول والوحيد هو نظام السادات الذى لم يكن فى واقع الامر يختلف جوهريا عن الغالبية لكل الانظمة العربية الموجودة على الساحة فى ذلك الوقت..

وهكذا انتهت قمه بغداد او هوجة بغداد دون قرارات حقيقية فعالة سوى القرار التاريخى بمقاطعة مصر وتجميد عضويتها فى الجامعة العربية ونقل الاتحادات الجماهيرية العربية من القاهرة..

وهكذا دشنت قمة بغداد واستكملت ما فعله السادات.. ووقع الملوك والرؤساء العرب على الملحق التكميلى لمعاهدة كامب ديفيد.

وفى المساء التقينا كما كنا نلتقى كل ليلة فى فندق بغداد فى شارع السعدون.. مجموعة من الكتاب والصحفيين العرب وغير العرب منهم طلال سليمان رئيس تحرير السفير وزياد عبد الفتاح رئيس تحرير وكالة وفا ومصطفى الحسينى وعدد اخر من الكتاب المصريين المقيمين فى بغداد فتحى خليل وعبد المنعم الغزالى وعباس صالح..

وجرى الحوار حول كل شئ، وتناوب الجميع كل يدلى برايه أو تصوراته وتوقعاته.. البعض يؤيد القرارات ويرى انها كفيلة باسقاط نظام السادات ويبرر منطقه بالاوضاع الاقتصادية والمتردية فى مصر وان قطع المعونات العربية ومقاطعة المصالح والشركات المصرية ستؤد إلى انهيار النظام.. والبعض يرى إن قرارات المقاطعة غير كافية وغير حاسمة اذ كان يأمل فى إجراءات اشد واقوى..

ووصل البعض الى حد المطالبة بتكوين جيش عربى مشترك لتحرير مصر التى وقعت فى براثن الصهيونية والاستعمار.. وحينما تساءل احدهم اذا كان هناك امكانيه لتكوين جيش

عربى موحد، فلماذا لا تحرر القدس أولا؟! رد الزعيل الذى كان مازال فيما اعتقد يعمل رئيسا لتحرير احدى الصحف العربية التى تصدر فى اوربا وبلهجة ثقة زائدة :- ان تحرير القدس يأتى عبر القاهره وكاتب مصرى يقيم فى الخارج قال وهو يوزع كلماته فى صورة نبوءة نظرية..

*- لقد انتهى الآن دور القاهرة التاريخى فى قيادة الامة العربية وانتقل الآن بشكل حاسم الى...

وحينما سئل ولماذا هذه العاصمة بالذات، وضع ساقا على ساق وافرغ كأس الويسكى فى جوفه ثم هز يده القصيرة عدة مرات قبل ان يقول..

*- لان هذه العاصمة تتوافر لديها كل الامكانيات الموضوعية لذلك..

تحفز صحفى عربى اخر كان يرى ان عاصمة اخرى هى الاكثر تاهيلا لهذا الدور.. ثم شرق الاثنان فى نقاش نظرى حاد حول تلك القضية..

ظللت طول تلك السهرة التى امتدت حتى الثالثة صباحا صامتا اتأمل الوجوه حولى وبين الحين والاخر اتطلع الى الفتاة المصرية التى تعمل فى مكتب الاستقبال بالفندق، وهى تروح وتجيئ احيانا لتنادى احد الصحفيين للرد على هاتف عاجل، وتتعرض بين الحين والاخر لمداعبات ومعاكسات الحضور بعضها كان ثقيلا، وهى تردهم بلطف حاسم...

قال طلال سليمان ضاحكا وعينه على فتاة الاستقبال:

- والله ان العالم العربى سيظلم فى غيبة الشمس المصرية

وعقب كاتب عربى اخر صنع اسما مرموقا فى عالم الشعر الحديث

- ان المقاطعة بالطبع لن تشمل الفتيات المصريات

وثار فتحى خليل على هذه النكتة السخيفة واندفع فى حماس غاضب يلعن هذا الكاتب وارا ءه وافكاره ويتهمه بأنه كان دائما معاديا لمصر وللشعب المصرى..

ولكزنى طلال سليمان..

-* تجلس صامتا طوال الوقت وكأن الامر لايعنيك

قلت.. مادمتم قد قررتم مقاطعة كل شئ فى مصر حتى نقابة الصحفيين فبأى صفه اتكلم..

قال طلال الذى كان يشاركنى كثير من افكارى

-* دعك من السخريه، تعرف اننى اعترض على منهج المقاطعه ولكن اين يكمن الحل فى رأيك

قلت محاولا اغلاق الحوار..

-* ليس هناك وصفات جاهزه للحل..

قال فى اصرار من يريد ان يسمع رأيه على لسان الاخرين..

-* لاتحاول الهرب اننى مصر على ان اسمع رأيك، فانت مصرى اشتراكى تعارض كامب

ديفيد وفى نفس الوقت تعارض قرارات بغداد.. فأين يكمن الحل فى رأيك.. او بتعبيركم الاشتراكى اين الحلقه الرئيسيه التى يمكن ان تجذب كل الحلقات..

قلت.... الديمقراطيه

قال.... ثم ماذا

قلت.... الديمقراطيه

صاح احد الجلوس.... وما دخل الديمقراطيه بكامب ديفيد

قلت.... لأنها هى التى ستفرج عن طاقة وامكانية ١٥٠ مليون عربى بعيدا عن اسوار الانظمه الفرديه وحساباتها..

وانفض السامر وذهب كل الى غرفته بالفندق ولم أكن راغبا او حتى قادرا على النوم.

وخرجت الى الشارع فى تلك الساعة المتاخرة من الليل بحثا عن نسمات الهواء البارد والمنعش وعن الصمت النائم خلف الاضواء الخافتة..

ووضعت يدى فى جيبى واحكمت ازرار الجاكت ثم اخذت اصفر لحنا من الحان عبد الحليم حافظ واقدامى تدك وتسمع على ارض الشارع الخالى وذهنى المكدود مازال متوهجا بما جرى خلال اليومين الماضيين مهموما بما يمكن ان يجرى بعد ذلك والشارع ممتد امامى بلا نهاية قريبة وعلى ضى القناديل.. وفجأة استيقظت من كل تلك الاحلام والاوهام على شيئ ثقيل يرتطم بى من الخلف حتى كدت انكفئ على وجهى والتفت ورائى لارى عربة سوداء..

واخذت اردد مع وقع المفاجأة وانا ابتعد عن العربة.. ايه دا.. مش معقول.. مش معقول.. ونزل عملاقان جسيمان من العربة يبرز فى وجهيهما الممتلئ عيون نفاذة صامتة وشارب كثيف وشعر اسود يغطى كل الرأس..

ودارا حولى فى هدوء تمثيلى واخذا يتاملانى بتركيز شديد وانا أردد احتجاجاتى وابرز شارة المؤتمر فى عروة الجاكيت كنوع من الحماية..

ثم عادا الى مقعديهما فى العربة السوداء وبدون كلمة واحدة وتحرك الموتور وانطلقت العربة تقطع الشارع الطويل، ولاحظت وانا اتاملها من الخلف انه ليس هناك ارقام لها.. وعدت مسرعا الى الفندق واتجهت الى الفتاة المصرية فى الاستقبال اطلب منها ان تحجز لى على اول طائرة تقلع اليوم.. وفى الساعة الخامسة صباحا كنت فى المطار ضمن ركاب الطائرة المسافرة الى فيينا ومنها الى برلين..

من يتساقط ..؟
الرماد.. الحديد.. الرجال ..
الموت والعويل. واللهب ..
من؟.. من؟..
آه يا اماه .. من ..
والى اين؟
بابلو نيرودا- سقوط مدريد

مارس سنة١٩٧٩

آه من الوحدة فى الغربة فى ليلة باردة يختنق قمرها وسط سقيع مثلج.. ماكنت يوما ممن يهيضون الجناح ويستعذبون الالام، ولكن ماذا افعل والهم ثقيل على القلب ودواماته لاتكاد تنزاح قليلا حتى تعود تضيق الخناق، والبحر من ورائى بلا سفن ومن امامى بلا مجداف او حتى بوصلة، وحتى المرافئ التى قد تبدو على البعد يسكنها الغيلان والقردة..

لقد جربت من قبل الحرب والسجن، اصعب وادق ظروف يمكن ان يمر بها انسان حيث يكون وحيدا تماما مع نفسه عاريا تماما فى مواجهة نفسه وعليه فى كل لحظة ان يتخذ القرار الذاتى اما الاستمرار أو الاستسلام. اما تحمل المعاناة المكثفة التى تحمل معها فى كل لحظة الموت البدنى او النفسى واستيعاب ذلك ومواجهتة واما الانكسار والتفكك الداخلى وكلا الخيارين مر..

وفى قرية الطويحر بين الاسماعيلة وبورسعيد، وقفت وانا على اعتاب العشرين من العمر فى صفوف القتال الاولى حيث كانت القوات الفرنسية والانجليز تحتل بورسعيد وكنا نحن مجموعة الشبان والشابات العاملين فى جريدة المساء فى ذلك الوقت نتلقى التدريب العسكرى فى تلك القرية ونمارس تسللا خلف خطوط العدو..

ولكننا كنا نواجه اخطار الموت باسمين بل ضاحكين بل وفى كثير من الاحيان نغنى فى مرح.. كانت قيمة الوطن والتضحية عندنا اغلى بكثير من كل قيمة اخرى، وجنبنا ذلك احاسيس التمزق والتشتت والخوف.

وفى معتقلات الواحات وابو زعبل والقلعة والحربى وسجون اسيوط وسجن مصر حيث قضيت فيها اكثر من خمس سنوات متصلة فى الستينات، وعرفت ماذا تعنى الزنازين الرهيبة

وعانيت من تعذيب بدني ونفسي مع مجموعة من الرفاق والاصدقاء وفوق كل ما هو معروف من تعذيب ومعاناة..

ولكن وطوال تلك الفترة كنت قادرا على خلق ابتسامة داخلية مفعمة بالأمل تعبر بي مفازاة الخوف وتعالج ضعفي، كلما خنقوا واحدة او اطفأوها ابادر في اشعال اخرى لتظل تلقي بظلالها الوارفة بردا وسلاما على جحيم السجن المستعر..

ولكن الغربة.. آه من الغربة.. انها ليست السجن او الحرب.. ولكنها اخطر بكثير واقسى بكثير..

فأنت في السجن او الحرب، تعرف خطأ او صواب الاجابة على سؤالين خالدين.. لماذا وكيف..؟

تعرف ارض المعركة واسلحتها، تعرف مع من انت وضد من تريد ان تكون، ومن اجل ماذا تفعل كل هذا..

وهي كلها امور ضرورية في اللحظات الحاسمة..

ولكن الوحدة في الغربة شيئ بارد وثقيل مرير.. فليس هناك معركة ظاهرة واضحة بل خفيفه مستترة، سلاحها لا يدوي وآلامها لا تصرخ وحتى ضحاياها لا يعرفون..

والارض تحت اقدامك مثل الرمال المهتزة وعلى مرمى البصر يبدو لك صورا ومرئيات لا تستطيع إن تقطع على وجه اليقين ان كانت سرابا احكمه عطش الغربة ام الحقيقة نسجتها احلام العودة

والويل لمن يسقط في متاهة الضياع، وهذا على الاقل ما كنت اعيه جيدا.. وان كانت الظروف قد جعلت منها فخا محكما منصوبا..

فمنذ حوالي ثلاث سنوات وحينما وافقت على أن اعمل مراسلا لجريدة الجمهورية في برلين كنت احسب انني بإزاء مرحلة استرخاء من التوترات او فلنقل هربا لبعض الوقت من معارك اثخنتني بالجراح والعذاب لاعيش في غربة محدودة استطيع فيها ان اعالج بعض الثغرات في عائلتي الصغيرة، فانقذ عين ابني وواصل عملية تثقيف ذاتي مع خبرة احاول اكتسابها من معايشة مجتمع اوربي متقدم.. ولم اكن واهما لاتصور اني ذاهب الى المانيا للنضال، فلقد كان النضال ومازال يعني لدى مواجهة الامر الواقع ومعايشة من الداخل وليس من الخارج من اجل تغييره.. كما لم يخطر لي على بال انني سأواجه بعد ذلك في الغربة ما هو اشد واقسى من اي تعذيب بدني او نفسي، واني سأواجه مرة اخرى بصورة مكثفة ذلك الخيار الانساني التراجيدي في ان اكون اولا اكون.. وأن كياني كله سيتعرض لموجة عاصفة عاتية تهب هذه المرة من الجهات الاربع الاصلية.

منذ اكثر من شهرين قطعت جريدة الجمهورية راتبي الذي كانت تحوله، وحينما حاولت ان

أستفسر عن ذلك جاءني الخطاب الشهير بانه قد تقرر الغاء مكتب الجمهورية فى برلين وعودتي للجريدة فى فترة اقصاها ١٥ يوماً والا اعتبر نفسى مفصولا من العمل.. امضاء ..... واتصلت بالاستاذ محسن محمد رئيس التحرير ورئيس مجلس الادارة فى ذلك الوقت استفسر عن دواعى هذا القرار واسبابه كذلك اتصلت بالاستاذ عبد الحميد حمروش العضو المنتدب وكان الرد كلمات متعاطفة من الاثنين دون اعطاء تفسيرا واضح سوى الجملة الساخرة التى قالها محسن محمد.

-* يا اخى الشغل عايزك، عاوزينك معانا فى مصر

" واتصلت بالاستاذ عبد المنعم الصاوى اللذى كان يشغل منصب وزير الاعلام والذى كان يجمعنى به علاقة ود واحترام متبادل وفهمت منه انها توجيهات رئيس الجمهورية بخصوص الصحفيين والكتاب العاملين فى الخارج بشكل عام.. كان من الواضح ان الرئيس السادات بعد الهجوم الشديد على سياسته فى مصر والعالم العربى قد تكونت لديه "حساسية" خاصة ازاء اى نقد لدرجة انه فى كثير من خطبه ولقاءاته كان قد اسقط تماما الحد الفاصل بينه كرئيس للجمهورية وبين مصر نفسها واصبحت مصر من وجهة نظره هى السادات وان اى هجوم او نقد لسياسته هو هجوم على مصر ولذلك قرر انزال العقاب بهؤلاء الكتاب الذين يهاجمون سياسة كامب ديفيد باعتبارهم يشوهون سمعه مصر فى الخارج ويقفون ضد بلادهم.

ولم اكن فى الواقع عازفا عن العودة لمصر لأنى ايضا لم اذهب الى المانيا تحت اوهام النضال فى الخارج او تحت اغراء حل مشاكلى المادية.. ولكن الامر ببساطة ان الهدف الذى سعيت اليه من غربتى المحدودة لم يكن قد تحقق بعد وهو استكمال عملية التثقيف اذ كنت لم انتهى بعد من رسالة الدكتوراه التى سجلتها فى جامعة ليبزج عن الاجراءات الاجتماعية والاقتصادية التى اتخذت فى مصر سنة١٩٥٢-١٩٧٠ وانعكاس ذلك على البنيان الطبقى، كما ان عين ابنى ياسر التى كانت تحت العلاج المتصل خلال تلك السنوات الثلاث لم تستكمل شفاءها بعد.

فشلت كل الجهود التى بذلتها على التليفونات بين برلين والقاهرة لحل المشكلة وكان الحل الاخير هو اعتبارى فى اجازة بدون مرتب حتى استكمال رسالة الدكتوراه.. ومن الذى يعطينى المرتب اذن الذى اواجه به الحد الادنى للحياة فى المهجر والغربة انا واولادى؟

لقد جربت الفصل من العمل بل والاعتقال اكثر من مرة.. وواجهت متاعب كثيرة مادية ونفسية قاسية ولكن ذلك كان فى مصر.. حيث الاهل والاصدقاء والدفء فى أحضان الوطن.

ولكن الفصل فى الغربة.. بلا دخل.. وفى اوربا.. فى عز البرد..

كان واجب الامانة وتحسبا من اى تعقيدات للموقف تقتضى منى ان ابلغ جهتين بذلك الموقف الجديد.. قسم الصحافة الاجنبية بوزارة الخارجية الالمانية التى تشرف على اعتماد المراسلين الاجانب.. والسفارة المصرية فى برلين.. قال رئيس قسم الصحافة الأجنبية فى الخارجية الالمانية بعد ان شرحت له الموقف..

-: هر فتاح.. انت وحدك الذى يستطيع اتخاذ القرار بالاستمرار او التوقف كمراسل.. اما بالنسبه لنا فأنت معتمد كمراسل جريدة الجمهورية القاهريه ومجلة روز اليوسف.. ولم تخطرنا اى جهه من الجهتين بأنهاء عملك كمراسل حتى الأن ولذلك فكل التسهيلات السابقه ستستمر.... أما فى السفاره المصريه فلقد ضحك الصديق رؤوف غنيم المستشار الأول قائلا..

-* ياعم احنا بنتعامل بالرسميات... ولم تخطرنا الجهات المسئوله فى مصر.. والذى تقوله الآن هو بالنسبه لنا كأن لم يكن.. إحنا بتوع الجهات المسئوله فقط.. فانت لدينا المراسل المصرى المعتمد حتى اخطار اخر..

كان ذلك بمثابة قطرة امل عذبه فى هذا المحيط المالح...

ولكن استمرار التسهيلات لعملى كمراسل سواء من جهة الالمان ام من جانب السفاره المصريه لم يكن يعنى فى واقع الامر الشى الكثير...

فالحقيقة اننى وقفت عاريا تماما انا واسرتى وسط ثلوج اوربا القاسيه..

ولما لم اكن فى يوم من الايام ممن يوفرون القرش الابيض لليوم الاسود اعيش حياتى بنهم شديد للمعرفه وفقر شديد فى المدخرات رحت ابحث عن بعض الدفاتر القديمه، وكانت هذه الدفاتر تتمثل فى مقالاتى التى كنت انشرها فى المجلة العربية فى باريس...

وبالرغم من انى فى الفتره الاخيره لم أجد ترحيبا لنشر اراتى كامله وخاصة تلك التى كانت تنتقد قرارات مؤتمر القمه العربى الاخير والتى كانت تحمل الأنظمه العربيه جزءا كبيرا من مسئوليه كامب ديفيد الا انه كان قد تراكم لى عندهم فى الفتره الماضيه حوالى ٨ الاف فرنك وهو مبلغ ضئيل ولكنه يمكن ان يسد خانه فى مثل تلك الظروف البائسه.

وفى كل الشهور الماضية وحينما كنت اسأل عن ارسال مستحقاتى كان الجواب من المسئولين فى المجله.. ان النقود ستصلنى خلال أيام، وان الشيك قد وقع وارسل بالفعل للبنك لتحويله..

وكانت الظروف الماديه الملحه تدفعنى الى الأتصال يوميا للسؤال عن ذلك المبلغ..

وكان التهرب المستمر من جانب رئيس التحرير والمسئولين معه يزيد من احساسى بالضيق والمهانه والموقف المتردى الذى بدأت احس به، واعتقد ان كل المصريين احسوا به من معامله البعض من ذوى النفود والمال فى العالم العربى وخاصة بعد مؤتمر القمه فى بغداد.

وفى صباح ذات يوم، وعلى غير توقع، طلبت رئيس التحرير فى منزله فى ساعه مبكره لأذكره بأنه حتى الان وبعد مرور اكثر من ثلاثة شهور لم تصلنى مستحقاتى من المجله..

ضبطت كلماتى جيدا وحاولت ان اكون مهذبا فلقد كنت فى حاجه ماسه الى تلك النقود..

وجاء رده متأففا شاكيا من انى ايقظته فى تلك الساعه المبكره من الصباح وانه كان فى سهره ولم ينم الافى الثالثه صباحا..

قلت له وانا احاول جاهدا ضبط كلماتى حتى لا تفلت..
-* انى طول هذا الشهر احاول الاتصال بك فى المجله وفى المنزل ودائما لا اجدك..
قال فى لهجه ناشفه متضررا
-* كل هذا من اجل حفنه دراهم لا تستحق
قلت مواصلا وبوعى اختيار كلماتى ومتجاهلا رده الغير مهذب
-* لانى فعلا فى حاجه لهذه الدراهم فأنا لست تاجرا او سمسارا ولا املك الا قلما وعقيده
قال بأنفعال مصطنع...

-: خلاص بقينا احنا تجار وسماسره وانتوا المفكرين... اهو انتم كده يامصريين.. حسنه وانا سيدك.. فقر وعنططه..

وضاعت كل محاولاتى لضبط النفس ووجدتنى اصرخ فى التليفون...

-* بتقول ايه يا ابن ال... ياجاهل... امثالك هما اللى بيسرقوا جهدنا وعملنا وانت لحم كتافك من خير مصر والمصريين. انا سمعت ان عندك اكثر من ٨٠ مليون فرنك خليهم ٨٠ مليون و٨ الاف.. والله يلعنه زمن اللى خلاك تعمل فى الصحافه، ويلعنه الى اداكم الفرصه تحكموا فينا وتتحكموا..

وكلمات اخرى كثيره خرجت ولا شك فى تلقائيه متفجره لأنسان جرحت كرامته على يد احد الذين دنسوا شرف الكلمه ومرغوها فى التراب..

ولا بد وان صوتى كان عاليا ومحتدا كما كان وجهى يموج بعلامات الغضب والقرف الشديد الامر الذى جعل اولادى عمرو وياسر وقد كانا يستعدان للذهاب الى المدرسه يلتصقان بى فى اشفاق وتساؤل......

وبالرغم من ايمانى بالمثل القائل "ان الصدفه ليست صدفه" الا ان ما حدث فى نفس هذا اليوم قد جعلنى احك رأسى فى عنف بحثا عن المنطق الخاص الذى يكمن احيانا خلف الاحداث القدريه، فلم اكد اجاهد نفسى لازاله اثار العدوان من على وجهى واسترجاع إبتسامه بل وضحكه اقدمها لأولادى حتى أبدد قلقهم الطفولى بعدما سمعوه ليذهبوا الى المدرسه وهما على يقين بأن كل شئ على مايرام، حتى دق جرس التليفون وكان الزميل مصطفى الحسينى ليخبرنى انه هو وطلال سليمان رئيس تحرير السفير فى زياره عابره لبرلين وانهما استطاعا بعد جهد ان يعثرا على تليفونى..

والتقيت بطلال ومصطفى وعرفت انهما فى طريقهما الى باريس وانهما قررا المرور يوما ببرلين من اجل مقابلتى ومن اجل التباحث مع الألمان حول مطبعه جديده للسفير..

كان طلال نموذجا مشرفا لرئيس تحرير مجله عربيه ويقدم تعويضا كاملا عن النموذج الاخر.. وقد كان لنا لقاءات سابقه فى القاهره وبغداد فهو نموذج الصحفى الجاد والباحث عن

نفسيه فهو قد يتحمس لهذا الموقف او ذاك، وقد يندفع احيانا فى ذلك الحماس وقد يرتبط لظروف خاصه بهذا النظام او ذاك ولكنه يبقى دائما محافظا على جوهر قومى ديمقراطى حاول أن يشيعه فى "السفير" حرصا على تعدد الاراء وتباينها محاولا تأكيد مقولته التى يضعها على رأس صحيفته بأنه «سفير العرب الى العرب» كما انه والحق اقول كان يتصدى فى شرف وإيمان حقيقى للمحاولات التى كان يبذلها البعض على الساحه العربيه للنيل من الشعب المصرى وتاريخه..

ولذلك لم أتردد كثيرا حينما عرض على ان اكون مراسلا للسفير فى برلين ووسط اوربا وان أكتب مقالا اسبوعيا...

ولكنى واضعا ايضا فى الاعتبار ظروفه والحساسيات الكثيره المحيطه به وخاصه وان الجريده تصدر فى بيروت وان افكارى قد تغضب وتثير البعض عليه ممن يملكون القدره على نسف الصحيفه بالعربيات المفخخه.. حاولت ان اعرف منه أى حدود أو قيود او محظورات.. فقال طلال بإبتسامته الهادئه الذكيه

- : شو.. العمى.. انت تعرف انه فى عالمنا العربى السعيد وانظمتها المسيطرة فان كل شيئ جميل ومبدع يمكن أن يعتبر من المحظورات.. انا ادرك واقدر موقفك المنفرد اختلافك مع نظام السادات واختلافك ايضا مع الانظمة العربية الموجودة على الساحة..

أكتب ما شاء ان تكتب ومن ناحيتنا سنقوم بالنشر فاذا كانت لديك الجراة على الكتابة فلن نكون اقل جراة فى نشر ما تكتب ولتكن مشيئة الله هى الغالبة.

وكتبت فى السفير رسالة اسبوعية احارب من خلالها فى جبهتين.. جبهة كامب ديفيد وجبهة بعض الانظمة العربية التى تسابق كل منها فى العمل على وراثه الدور المصرى بما ذلك تجنيد اكبر عدد من الكتاب والصحفيين واستيعابهم للدفاع عنهم..

ووقفت احارب تلك "الموجه" التى بدأت تبرز بوضوح بين البعض من المثقفين العرب يشاركهم فى ذلك قلة من المصريين فى الهجوم المستتر والواضح احيانا ضد الشعب المصرى بتراثه وحضارته وحتى انتماؤه العربى.. فلقد تبارى كثيرون فى ذلك الوقت ليتكلموا وبغير علم عن "الفرعونية" وعن تراث المتنوع الموروث لدى الشعب المصرى بعد فترات الاحتلال الاجنبى الطويلة..

ولست اريد ان اذكر هنا نماذج فجه للكثير الذى كتب فى ذلك الوقت للحط من دور مصر التاريخى فى المنطقة والذى قاده شاعر فمينيقى معروف ينتمى الى الحزب القومى السورى ومن لفوا حوله حين أدان أمجد مرحلة تعتزبها مصر والعالم العربى فى الستينات بانها محاولة فرعونية لاستعادة امبراطورية مصر على حساب العرب بل وتجاوز البعض ذلك فى الهجوم على التراث الثقافى المصرى الحديث باعتباره مزيجا من الفرعونية القديمة والماسونية الحديثة

وصل إلى حد اتهام طه حسين بالدفاع عن الفكر الصهيوني والهجوم المكثف على الرموز الثقافية المعاصرة مثل توفيق الحكيم ونجيب محفوظ والشرقاوى ولويس عوض مع ان الشرقاوى ولويس عوض كانا من المعارضين لكامب ديفيد.

وتم خلط كثير من الأوراق عن عمد او غير عمد وخرجت اقلام صفراء تساندها ثروات بترولية هائلة تشوه وتحط من قدر كل ما هو مصرى.. وكنت ادافع عن طه حسين والشرقاوى ولويس عوض بل ودافعت عن توفيق الحكيم وحسين فوزى ونجيب محفوظ ودورهم فى اثراء الثقافة العربية رغم اختلافى معهم فى تاييدهم .لكامب ديفيد. وضربت مثلا بجون شتاينبك الكاتب الامريكى العظيم الذى ابدع "عناقيد الغضب" "وشرق عدن" "ورجال وفئران" وغيرها من الروايات التى اثرت الفكر التقدمى كله، وقلت ان تاييد شتاينبك للحرب الامريكية ضد الشعب الفيتنامى فى الستينات خطأ سياسى وقع فيه ويحسب ولكننا لا يمكن وبجرة قلم ان نتجاهل تراثه وتاريخه المدافع عن البشرية وتقدمها.

كذلك بليخانوف الذى اثرى الفكر الاشتراكى العالمى وخاصة كتابه الرائع "دور الفرد فى التاريخ" ورغم انه بعد ذلك وقف ضد الثورة الا ان لينين كان يقول دائما انه من لم يقرأ بليخانوف لا يعرف حقيقة الاشتراكية..

وكذلك الامر بالنسبة للمفكر الالمانى كاوتسكى الذى إرتد بعد ذلك ولكن احدا لا يمكنه ان ينكر اسهاماته الخلاقة فى كثير من قضايا الفكر الاشتراكى..

وفى كل ذلك كنت لا امل من ترداد ان الهدف الرئيسى من كامب ديفيد هو عزل مصر عن العالم العربى وعزل العالم العربى عن مصر..

ففى وقت تتراكم فيه الثروات البترولية الهائلة ويرتفع ثمن البرميل الواحد من عشرات السنتيمات الى عشرات الدرلارات فى اعقاب حرب اكتوبر وتشهد المنطقة العربية اكبر حركة للتراكم الراسمالى او للتراكم المالى والذى جرى بوتيرة سريعة غير مسبوقة تفوق بكثير حركة التراكم الراسمالى التى جرت فى اوربا فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر. ذلك التراكم الذى جاء بعيدا الى حد كبير عن تطور وسائل وأدوات وقوى الانتاج نفسها بعكس الذى تم فى اوربا فى قرنين من الزمان.

فى هذه الفترة بالتحديد الذى تحتاج مصر للعرب ويحتاج العرب فيها الى مصر للمزج الايجابى بين الخبرة الفنية المتقدمة والاموال الهائلة المتراكمة ولتحويلها الى مشروعات حضارية عملاقة يمكن ان تغير من وجهة الحياة كلها فى المنطقة....يتم توقيع كامب ديفيد لتعطى المبرر المنطقى لا خطر مؤامرة استعمارية تعرض لها العالم العربى ويساهم فيها بوعى او بدون وعى غالبية الأنظمة الموجودة على الساحة..

ولذلك بدأت احدى الاذاعات الموجهة فى احدى الدول العربية والتى كان يشرف عليها احد

المصريين توجه هجوما شديدا على وتتهمنى باشاعه افكار خطرة تتستر تحت دعاوى تقدمية دفاعا عن كامب ديفيد ونظام السادات.

وهكذا تحولت كامب ديفيد الى شماعة يعلق عليها الجميع اخطاءهم ويحققون مآربهم الخاصة ويتاجرون بها فى استثمارات مريبة رغم انهم كانوا فى واقع الامر، سواء ادركوا ذلك او لم يدركوه.. يستكملون خطوط المؤامرة التى بدأت بتوقيع هذه الاتفاقية المشئومة. على ان اهم ما كان يجرح اعماقى بل ويدميها هو ان عدد من المصريين فى اوربا والخارج والذين كنت اكن لبعضهم كل التقدير والاحترام وجمعتنى بهم ظروف نضالية فى الماضى وقعوا هم الاخرون فى ذلك الخطأ..

وراح بعضهم يعمل مع هذا النظام او ذاك..

لم يكن يهمنى اسماء بعينها من المصريين فى الخارج وضعت فى ايديهم الاموال وتذاكر الطائرات للمرور على المصريين لتجنيدهم للعمل والدفاع عن الانظمة العربية المختلفة، فهم كانوا دائما كذلك حتى اثناء اقامتهم فى مصر، ولكن الذى آلمنى حقا ان ارى زملاء نضال دفعوا الكثير من حياتهم فى السجون والمعتقلات وارتبطت اسماؤهم بمواقف مشرفة فى الماضى، يقعون فى هذا الخطأ التاريخى وتختلط عليهم الأمور..

صديق كان ومازال عزيز على القلب زارنى فى برلين وجلسنا ليله كامله نجتر ذكريات الماضى ونتحسب لواقع الغربه حاول جاهدا وطوال الليله ان يقنعنى بأن النظام فى بلد شقيق هو افضل القوى الموجوده على الساحه العربيه وانه يمتلك القوه والقدره لتحقيق الثوره الوطنيه الديمقراطيه على نطاق العالم العربى وان النظام هناك فى البلد الآخر دكتاتورى طائفى الخ..

والغريب انه فى نفس الاسبوع زارنى صديق مصرى اخر كان يعمل فى اذاعة ذاك البلد الاخر وكرر نفس الكلام عن دور النظام الخلاق والموقف الصلب فى مواجهة الامبرياليه والصهيونيه وان واجبنا وواجب كل عربى هو مساندة ذلك النظام فى المعركه التى يخوضها من اجل العزة والوحدة العربية..

وحينما قلت له رأى رفيق النضال الاخر الذى كان عندى منذ اسبوع فى ذلك النظام اندفع غاضبا

-: وهل هذا الكلام.. ان الدكتاتوريه الحقيقية موجوده هناك انهم يسحلون القوى التقدمية.... واتسع المزاد لمن يستطيع ان يشترى الدور المصرى المفقود وتدفقت اموال البترول العربى تنساب الى الخارج من خلال انظمة هيئ لها انها مرشحة للفوز بالدور المصرى وبالزعامة.. ومن اجل هذا الهدف تم تدمير وتخريب كل شيئ بما فى ذلك البعض من المصريين فى الخارج..

وزاد التفتت والتشتت فى العالم العربى واندفعت الطموحات الفردية للحكام العرب فى محاولة لتحقيق احلام مستحيلة، ولم تعد القضية هى وحدة الشعوب العربية ضد الصهيونية والاستعمار والدفاع عن قضية شعب فلسطين ومحاصرة منهج كامب ديفيد لطرح منهج اخر متكامل بل كان كل نظام يطرح نفسه على الساحة منفردا باعتباره المنقذ مدعوما بالثروات

الهائلة التى تدفقت فى تلك السنوات مهاجما كل الانظمة والحكام الاخرين متهما اياهم بأحط التهم.

وازاء هذا الاندفاع البدائى والذى لا يسنده منطق أو واقع ضاعت القضايا الرئيسية للشعوب العربية وضاعت الديمقراطية والحرية وابسط حقوق للانسان فى اندفاعة الاوهام الزعامية للحكام والانظمة العربية.

وفى تلك الفترة جاءنى زميلان عزيزان كان احدهما رئيسا لتحرير احدى المجلات الشهرية المحترمة فى الستينات واوئل السبعينات، كانا يحملان إقتراحا بتشكيل اتحاد للكتاب المصريين فى الخارج ناقشاه مع عدد كبير من الكتاب والصحفيين المصريين العاملين فى البلدان العربية وفى بعض البلدان الاوربية..

وفهمت منهما ان هناك موافقة واسعة بينهم كما ان هناك اتفاقا قد تم مع الاتحاد العام للكتاب العرب بقبول الاتحاد الجديد..

إستمعت فى هدوء حزين الى كل ما قاله الزميلان المدعوم بوثائق تحمل توقيعات عدد لا بأس به من الكتاب المصريين فى الخارج مع تاكيدهما بانهما حرصا على القدوم الى برلين لمقابلتى بشكل خاص تقديرا منهم لدورى فى الحركة الديمقراطية المصرية ولظروفى الخاصة بعد ان قطعت الجمهورية راتبى وبوعد بأن أحتل مركزا فى الاتحاد الجديد يمكن ان يعوضنى الكثير عما فقدته. قلت للزميلين بعد ان فرغا من الحديث عن مشروعهما الذى اعد له بدقه اننى ارفض ذلك الاتحاد من ناحية المبدأ كما ارفض اى اشكال تنظيمية لمؤسسات او منظمات تكون بديلة عن المؤسسات الجماهيرية داخل مصر..

وقلت لهما انه كان من الاولى ان تبذل الجهود لوقف تلك الماساة التى تجرى من جانب الانظمة العربية بمقاطعة الاتحادات والمؤسسات الجماهيرية فى مصر وخلق تنظيمات شكلية بديلة فى الخارج..

وقلت ايضا ان هذه التنظيمات فى الخارج لن تكون مصرية الا من ناحية الشكل اما تحركاتها واهدافها فسيحددها من يمولها وبالتالى فستكون فى خدمة ... النظام العربى او ذاك وليس فى خدمة الشعب المصرى والاهداف القومية العربية.

وحذرت من ان هذا الاتجاه بتشكيل اتحاد للكتاب المصريين فى الخارج يمكن أن يؤدى الى نتائج خطيرة مثل التفكير فى تشكيل اتحاد للعمال المصريين فى الخارج واتحاد للشباب المصريين فى الخارج ومن يدرى قد يقترح احدهم اقامة حكومة مصرية فى الخارج..

وطلبت منهم كاصدقاء التخلى عن هذه الافكار الخطرة التى لا تخدم سوى بعض الطموحات الفرديه لدى بعض الحكام العرب، وبأن دورنا الحقيقى هو دعم ومساندة المنظمات الجماهيرية داخل مصر لكى تلعب دورها فى الضغط من اجل تغيير السياسات الخاطئة للنظام وفى الوقت نفسه محاولة وقف هذا الاتجاه الخطر الذى يمزج بين مواجهة سياسه كامب ديفيد وبين مقاطعة الشعب المصرى الذى بات واضحا منذ قمة بغداد...

من الواضح ان الزميلان لم يقتنعا بمنطقى، ليس هذا فقط بل كان وجههما وبالذات رئيس التحرير السابق يقولان الكثير وانا اودعهما صباح اليوم التالى وهم فى طريقهم للمرور على جماعة باريس ولنفس الغرض.

قال احدهما مصافحا...

-: كنت احسب انك انت بالذات ستكون اكثرنا حماسا بعدما جرى لك ما جرى..

-: وقال الاخر

على اى حال لقد استمعنا الى وجهة نظرك، ولكن كل ما نرجوه الا تحارب الفكرة والا ستؤدى الى انقسام الصفوف وعليك احترام اراء الاغلبية..

قلت ضاحكا.. اننا لسنا فى تنظيم تنطبق فيه قواعد الاقلية والاغلبية.. وحتى تكون على بينة فلقد كتبت بالامس مقالين حول رايى فى الموضوع احدهما لجريدة السفير فى بيروت والاخر لجريدة الاهالى فى القاهره..

ولقد نشرت المقالات بالفعل، الا ان فكرة انشاء الاتحاد ظلت تراود البعض لفترة وشكلوا هيئة تاسيسة اجتمعت فى بغداد، ولكن الضجة التى أثرتها كذلك وقوف بعض الكتاب من امثال محمود امين العالم ونبيل بدران وعدد اخر من المصريين المقيمين فى الخارج استطاع فى النهاية ان يحاصر هذا الاتجاه، ولم تلتقى اللجنة التاسيسية لاتحاد الكتاب المصريين فى الخارج بعد ذلك ابدا.الإ ان فكرة انشاء اتحادات ومنظمات جماهيرية مصرية فى الخارج، ظلت تراود البعض وخاصة هؤلاء الذين كانو قد قرروا فيما بينهم البقاء فى الخارج فى بعض العواصم الاوروبية وحاولوا ان يلبسوا مصالحهم الخاصة الشخصية ثوب العمل الوطنى العام، فحاول هذا البعض انشاء اتحاد العمال المصريين فى الخارج، واتحاد للصحفيين.. بل ان البعض قد انشأ بالفعل ما يسمى باتحاد الشباب المصرى فى الخارج، تزعمه واحد ممن كان قد امضى بالفعل اكثر من عشرين عاما فى اوربا دون ان يقوم بزيارة واحدة لبلده..

وتحول هذا الاتحاد الشكلى فى واقع الامر الى مكتب سفريات لعدد محدود للغاية

مزاد حزين.. اشترك فيه المهرجون والافاقون ووقع فى مصيدته البعض من اصحاب النوايا الحسنة والتاريخ النضالى الطويل.. ولم اكد افرغ من حكاية الاتحاد ومسانديه حينما جاء الى برلين كاتب مصرى معروف كان يقيم فى بغداد ثم استقر المقام به فى موسكو. كنت احب هذا الكاتب والشاعر الذى تعلمنا منه ونحن صغار اغانى الثورة والتحرر وكانت انطلاقاته التلقائية فى مجالات الشعر والحب وخفة دمه الممزوجة دائما بروح شابة متوثبة تغفر له عند الكثير من مريديه ومحبيه بعض الشطحات الفكرية وغير الفكرية

– اهلا يا ابو الفتوح.. انا جاى من موسكو مخصوص اهنيك على موقفك الرائع بالنسبة لفكرة اتحاد الكتاب فى الخارج.. طول عمرك اصيل وجدع..

– اهلا يا قديس.. احنا تلامذتك برضه

كنت سعيدا فرحا به، ولقد كانت خفه دمه التى لا تبارى ونهمه بل وشبقه المعروف للحياة وتعليقاته الساخرة التى تفجر الضحك من قلبك والدموع فى عينيك كفيلة بان تضفى على الحياة فى برلين بسمة امل موحية كنت فى اشد الحاجة اليها. ولم ارى فى حياتى ولقاءاتى معه سواء فى السجن ام فى جريدة الجمهورية ام فى بعض السهرات المشتركة التى كانت تجمعنا احيانا فى القاهرة. سوى اصرار عنيد على حب الحياة ومواجهة اعقد المشاكل

ومازالت اذكر حين دخل على احد رؤساء التحرير فى الستينات والذى كان يمنع مقالاته قائلا له..

*- حتى انت يا اخنف نوتردام

وظلت الكلمة لصيقة بالرجل الذى كان يتكلم اكثر من انفه حتى مات..

كذلك الوصف الذى اطلقه على احد الزملاء فى السجن والذى كان عنيفا حادا فى مناقشاته واراؤه بانه.. هولاكو الاهتم..

وذهبنا فى المساء لزيارة ابنته التى كانت تدرس اداب اللغة الالمانية فى جامعة هامبولت ببرلين وتقيم فى المدينة الجامعية مع اربعة من زميلاتها الالمانيات فى شقة واحدة. وجلس القديس متوهجا متالقا بين الفتيات الالمانيات يحكى ونحن نترجم للطالبات الالمانيات فيغرقن فى الضحك والانبهار ثم التفت الىّ بعد فترة قائلا بنبرة لايخطئها من يعرفه.

- اتفضل انت يا ابو الفتوح روح لولادك.. انا هبات الليلة مع بنتى اصلها وحشانى قوى وفى الصباح طلب منى ان اذهب به الى فندق "متروبول" حيث هناك مسئول عربى كبير يعرفه وفى الطريق الى الفندق اخذ يهاجم كل الانظمه العربيه ويدافع فى نفس الوقت عن هذا المسئول والنظام الذى ينتمى اليه بأعتباره نظام وطنى على رأسه شبان متحمسون قد تنقصهم الخبره ولكنهم متميزون بالاخلاص. ولما أبديت له خلافى معه فى هذا الرأى وقناعتى بأن هذا النظام مثله مثل بعض الانظمه المتواجده على الساحه العربيه يسعى الى فرض زعامه فرديه..

قال القديس

*- خلى اراءك دى لنفسك، المهم تقعد ساكت وماتتكلمش حين نلتقى بالرجل اوعدنى بذلك... ووعدته..

والتقينا بالرجل الذى كان يعد واحدا من المع المسئولين فى نظام عربى بترولى مسئول عن تنظيم يمتلك امكانيات ماديه هائله.. وبالرغم من انه كان مهذبا ودودا مع ترحيبه الواسع بالقديس وبى الا انه حينما بدأ يتحدث عن الاوضاع فى العالم العربى تتقمصه روح الوهم الكاذب بأنه هو وتنظيمه ونظامه منوط بهم مهمة مقدسه فى تحرير العالم العربى كله من الاستعمار والصهيونية وكامب ديفيد ومن كل الانظمة الموجودة على الساحة..اخذت استمع الى الرجل فى صبر مكتوم، وكلما هممت بان انطق لاوضح له حقيقة الاوهام التى يرددها، اسرع القديس يضغط على يدى مطالبا الالتزام بوعدى ثم ليقوم ويحتضن المسئول العربى قائلا فى لهجة مسرحية توحى بالكثير وبأكثر من معنى..

-*ياسلام.. ياسلام.. انا مش عارف العالم العربى كان يقدر يعمل ايه من غيرك..

وكلما سمع المسئول العربى ذلك يندفع اكثر فاكثر فى تكرار ارائه الساذجة وكانه ينطق بمقولات نظرية خطيرة يكمن فيها الشفاء الناجع لكل موبيقات الامه العربية، ثم تطرق بحديثه الى مصر والاوضاع فيها مرددا كل تلك الدعاوى المريضة عن خنوع الشعب المصرى ورضوخه للاستبداد نظرا لفقره الشديد، وبان عبد الناصر كان فلته لن تتكرر.. ولما لم اعد قادرا على احتمال ترهات هذا الزعيم العربى كذلك التزامى بالعهد الذى قطعته على نفسى مع القديس بالا اتكلم فقد قمت مستاذنا بان لدى موعد هام، وجريت الى الشارع افضفض بينى وبين نفسى وبصوت عال مسموع لاعنا هذا الزمن الردئ الذى جاء بامثال هؤلاء الناس على راس الانظمة العربية..

فى المساء التقيت بالقديس الذى عاتبنى على تصرفى قائلا..

* - خليك واقعى.. ان هذا المسئوال هو من اكثر الناس معقولية وعلى استعداد لأن يفهم ويتعلم وهذا دورنا مع امثاله، فهو قرأ لنا وقرأ لك انت بالذات كتابك " شيوعيون وناصريون" فابدى اعجابه به ولذلك فلقد اتفقت معه على ان تكتب لهم مقالات فى مجلاتهم وسيدفعون لك اجرا محترما يعوضك عن الملاليم التى كانت ترسلها الجمهورية لك

صرخت فى الرجل الذى كنت ومازلت احبه :-

لا كله الا ده يا قديس لقد تعلمنا منك ان تموت الحرة ولا تاكل بثديها..

*:- ياسيدى اكتب اللى انت عايزه وهما ينشروه اولا ينشروه.. مش مهم.. المهم تحل مشكلتك انت واولادك.. انت مش بتكتب فى السفير.. ما هم لهم فيها..

*:- انا لا يهمنى من له ومن ليس له فى السفير.. لكنهم ينشروا كل ما أكتبه دون تدخل ورئيس التحرير ملتزم بوعده معى اما ان اكتب فى صحافة نظام معين من تلك الانظمة فدون ذلك الف سبب وسبب..

قال القديس فى خفة دم الاستاذ الذى يقدر تلميذه.. والله هدنك فلاح واهبل.. يابنى يا حبيبى دول قاعدين على تلال من الذهب جت لهم من السماء.. تعلمهم ازاى يصرفوها فى امور جادة ومفيدة.. دا حقنا وواجبنا ايضا، هى كانت فلوس ابوهم دى فلوس الشعب العربى كله.. الله يرحمه عبد الناصر كان فارض عليهم هذه الحقيقة اما ابو الاسود الدؤلى "يعنى انور السادات" الله.. هو اللى خلق هذا الوضع .. قلت ضاحكا.

* كان ابو الاسود صديقك يوما ما.

قال القديس فى انفعال.. لعنه الله عليه الى يوم الدين؟ لقد ضيع مصر وضيع العرب.. ثم انفرد عملاقا عظيما وهو يقول:

* قم بنا نغزوا بنات الجرمان.. فهم على الاقل اكثر تحضرا..

استطيع الليلة ان اكتب اشد القصائد حزنا
فالليلة ساطعة النجوم...
والافلاك زرقاء على البعد ترتعش بردا.
وعواصف الليل تطوف بالسماء..
تغنى فى وحدة...
بابلو نيرودا- اغنية بائسة

ديسمبر سنة ١٩٧٩
نسمات اعياد الميلاد تهب فى كل مكان..
وسواء اردت او لم ترد، حتى لو كنت مهموما غارقا ومستغرقا فى تلال من المشاكل فلا بد أن تتذكر أنك على اعتاب عام جديد....

ان احدا لا يترك لك الفرصة... الناس والشوارع والاشجار... ثم دقات الكنائس التى لا تكف طوال الشهر...

ليس المهم ان تذكر المسيح وامه المطاردة فى مثل هذا اليوم، او تتذكر طريق الالام وهو يحمل صليبة وحول عنقه تاج الاشواك ويصلب بجوار اللص... هذا الذى تجرأ ليقول أن ملكوت الارض للمساكين والكادحين وابناء الله الطيبين...

لا، ليس عليك ان تتذكر كل هذا، فالمحلات المفتوحة حتى ساعة متاخرة من الليل والشوارع الغارقة فى عرس من الضوء، والنساء والرجال والاطفال الذين يقفزون من مكان الى مكان باحثين عن الهدايا واشجار اعياد الميلاد التى تقتلع فى قسوه من الغابات لتزدان بها الشقق والبيوت.. وحتى موسيقى الارغن التى تصدح ساعات طويله من الليل والنهار فى الكنائس العتيقة... كل ذلك لا يذكرك ابدا بالمسيح وامه المطاردة فى مثل هذا اليوم...

حتى اطفالى انشغلوا مع مجموعات من زملائهم فى المدرسة وراحوا يمرون على الشقق والبيوت للحصول على اى فائض لايحتاجه اهل الشقة من ملابس قديمة وزجاجات فارغة وبعض الادوات واللعب ليقوموا ببيعها وليشتروا بها هدايا للاطفال الذين فقدوا والديهم او العجائز من الرجال والنساء الذين يقيمون وحدهم.

وذات مساء سألنى ياسر الصغير

- هل نحتفل فى مصر ايضا بعيد ميلاد النبى

قلت له مطمئنا

- نعم.. المسلمون فى كل انحاء العالم يحتفلون بمولد النبى محمد عليه الصلاة والسلام.

قال فى اصرار طفولى.

- ما الفرق بين عيد ميلاد المسيح وعيد ميلاد النبى

قلت له وانا احاول ان اجيب على خواطره وتساؤلاته

- ان المسيح كان انسانا عظيما، وقف ضد الظلم والطغيان ومن اجل الفقراء والمضطهدين.. ثم جاء بعده النبى محمد عليه الصلاه والسلام فأكمل الرسالة ودافع عن العداله والمساواة فى وجه اعداء العدالة والمساواة من اهل الجاهلية...

والواقع ان الاحتفالات باعياد الميلاد فى المانيا الديمقراطية كانت تاخذ ابعاد وأسعة ربما اكثر من غيرها من البلدان الاوربية، ولعل ذلك يعود الى تلك السياسة التى انتهجها النظام والحزب الحاكم هناك فى محاولة المزج بين الاشتراكية والدين... او بمعنى اخر محاولة اسقاط التهم التى كانت توجه الى النظام بانه ضد الدين فالدستور الجديد الذى كان قد صدر منذ اعوام ينص بوضوح على حرية العقيدة وممارسة الشعائر الدينية ويعد اى تدخل من جانب فرد او مجموعة افراد للحد من هذه الحرية او المساس بهذه الشعائر جريمة يعاقب عليها القانون..

وهناك حزب علنى هو الاتحاد المسيحى الديمقراطى يمارس نشاطه ويملك صحيفة يومية تعبر عنه ويمثله فى البرلمان عدد من النواب يمثلون ١٠٪ من مجموع اعضاء مجلس الشعب بل واكثر من ذلك.... فقد رأس ايرك هوينكر السكرتير العام للحزب الاشتراكى الالمانى الموحد "الحزب الشيوعى" وهو الحزب الحاكم اللجنة الخاصة التى شكلت هذا العام للاحتفال بمرور ٥٠٠ عام على ميلاد المفكر والزعيم الدينى الكبير مارتن لوثر ووقف ليقول فى خطاب عام

(ان مارتن لوثر واحد من أبرز القادة الانسانيين الذين ناضلوا من اجل عالم افضل ومما لا شك فيه ان التراث التقدمى الذى نواصله يشمل ميراث واعمال كل هؤلاء الذين ساهموا من اجل تطوير الثقافة العالمية بغض النظر عن وضعهم الاجتماعى والطبقى ولذلك وفى المجتمع الاشتراكى الذى يسعى للقضاء على استغلال الانسان للانسان فإن جهود لوثر الخلاقة والهادفة قد اصبحت دافعا اساسيا للجهود المشتركة بين المسيحين وغير المسيحين لبناء الاشتراكيه..)

ولقد شغلت نفسى بهذه القضية فترة من الوقت واستطعت ان التقى بالهر جيرالد جوتتنج رئيس الحزب المسيحى الديمقراطى ونائب رئيس مجلس الدولة وقد سألت عن الدور الذى يلعبه حزبه او الذى يمكن ان يلعبه فى مجتمع يعتنق الاشتراكية العلمية

قال لى الرجل بصراحته المعروفه عنه.

– اننا لسنا ماركسيين طبعا، وهذه نقطة خلافية مع الحزب الحاكم ولكننا لا نتوقف كثيرا عند هذا الخلاف لاننا نهتم بما هو اجدى وانفع، نحن نتفق مع الحزب الحاكم على غالبية البرامج الاجتماعية والاقتصادية التى تتخذ وخاصة تلك التى تعمل على رفع الظروف المعيشية للمواطن، ونحن داخل الجبهة الوطنية نتفق ونختلف، ولكننا غالبا ما نصل الى برامج واهداف مرحلية مشتركة..

قلت له مرة اخرى

– هل ترى هناك دور للكنيسة فى المجتمع الاشتراكى

قال فى ابتسامة مقنعة ومقتنعة

– ارى ان هناك دور اكبر للكنيسة فى المجتمع الاشتراكى.. ما هو دور الكنيسة الحقيقى؟.. ما هو الهدف الاساسى للدين المسيحى، بل ولكل الاديان؟.. اليس الدفاع عن الانسان عن حريته واستقراره.. ورخائه... عن توفير الامن والعدالة، اليس للقضاء على كل الموبيقات وعلى راسها استغلال الانسان لاخيه الانسان..اذا كان الامر كذلك، اليس من الطبيعى ان نجد نحن رجال الكنيسة فى المجتمع الاشتراكى فرصة اكبر لتحقيق اهداف الدين الحقيقية.. ولخلق ملكوت الله على الارض فى اشاعة الحق والعدل والتعاون الانسانى المثمر..

ولكن اذا كان الموقف كذلك فى المانيا الديمقراطيه... فإنه يختلف فى بلد اشتراكى مجاور مثل بولندا التى كانت الاحداث تجرى فيها بشكل معاكس تماما ويتعمق التناقض بين النظام الحاكم والكنيسه..

فمنذ اختيار الكاردينال كارول فيتوليا اسقف كنيسه كراكوف البولنديه ليكون البابا الجديد فى الفاتيكان بأسم يوحنا بولس، والكنيسه البولنديه تفرض نفسها بشكل قوى على النظام والمجتمع البولندى يساعدها فى ذلك ولا شك الدور القومى الذى لعبته الكنيسه "الكاثولوكيه" فى الدفاع عن مصالح القوميه البولنديه الصغيره والمضطهده تاريخيا من قوميتين كبيرتين على الحدود هما الروسيه والبروسيه، واللتان كانتا تتبادلان او تتقاسمان السيطره والنفوذ على بولندا؛ تم ذلك ايام القياصره فى روسيا وايام الاباطره فى المانيا، مثلما تم فى بداية الحرب العالميه الثانيه ومع اتفاق عدم الاعتداء الذى وقعه ستالين مع هتلر...

ومن ناحيه اخرى فأن الحزب الشيوعى البولندى الذى كان حزبا صغيرا قبل انتهاء الحرب العالميه الثانيه وتحرير الجيش الاحمر الروسى لبولندا من الاستعمار النازى، لم يستطيع وخلال ثلاثين عاما فى السلطه ان يوسع قواعده الجماهيريه نتيجة اخطاء ذاتيه وموضوعية..

ولذلك فعندما ما اضرب العمال فى حوض لينين فى مدينة جدانسك البولنديه والتى تقع على البلطيق، سرعان ما تحول هذا الاضراب الى ازمه سياسيه عكست التناقضات الكامنه فى المجتمع البولندى وخاصة بين الحزب الحاكم والكنيسة.

ولقد كان من الواضح انعكاس احداث بولندا وبشكل ملموس على المجتمع الاشتراكى فى المانيا وخاصة بين أوساط المثقفين، ولذلك حرص النظام الحاكم ان ينتهز فرصة الاحتفال بمرور ٣٠عاما على إنشاء المانيا الديمقراطية ليقدم استعراضا حيا للمجتمع الدينامكى الحى وانجازاته الكبيره.. فى محاولة ليقول بوضوح... ان هنا شئ اخر تماما..

وبدون اى محاوله للمبالغه او الاسقاط، فأن البناء الاشتراكى فى المانيا الديمقراطيه قد حقق بالفعل الكثير، فهى ثامن او تاسع دوله صناعية فى العالم رغم انها بدأت بعد الحرب العالميه الثانيه من الصفر، او بمعنى اكثر تحديدا بعشر درجات تحت الصفر، ورغم ان هذا الجزء من المانيا يخلو تماما من اى ماده خام فعاله ربما سوى الفحم العادى ويقال ان فردريك الاكبر قد قال يوما عن هذه الارض التى تقع الان عليها المانيا الديمقراطيه ان القيامه عندما تقوم فأن كل شئ سيزول من على الأرض الا هذه المنطقه لان الله قد نسيها من فتره طويله..، ومع ذلك فقد اصبحت هذه الدوله الصغيره، وفقا لمصادر غربيه عضو فى نادى الاثنى عشر، وهو النادى المجازى الذى يطلق على اكثر ١٢ دوله فى العالم حققت اعلى دخل للفرد...

... ويأتى على رأس القائمه فى هذا النادى عدد من الدول البترولية العربيه التى تدفقت عليها الثروات البتروليه فى السبعينات ثم عدد من البلدان الاوربيه مثل السويد وسويسرا والدنمارك والولايات المتحده والمانيا الغربيه ثم تأتى المانيا الديمقراطيه ثم اليابان. وقد يحلو للالمان الغربيين احيانا عندما تضع امامهم تلك الحقيقه ان يقولوا لك....

ان ذلك يرجع الى طبيعة الشعب الالمانى، ولذلك تميزت المانيا الشرقيه عن بقيه الدول الشرقيه رغم الحرب والدمار الذى لحق بهم...

ولكن هذا التفسير العنصرى لعوامل التقدم لا يمكن ان يصلح اساسا ومعيارا.

واحسب، ومن خلال معايشتى كل تلك السنوات للتجربه ان هناك عاملان اساسيان قد لعبا دورا فى ذلك.

* العامل الاول وهو ان الحزب الشيوعى الالمانى، حزب عريق وقوى من الناحيه التاريخيه فمنذ تأسيس العصبه الاشتراكيه الالمانيه فى الستينات من القرن الماضى على يد لا سال وماركس واوجست بيبل، والحزب الاشتراكى الالمانى يلعب دورا قياديا فى حياة المانيا منذ بسمارك حتى هتلر، وفى اخر انتخابات حره جرت فى المانيا عقب استيلاء الحزب النازى الهتلرى على السلطه حصل الحزب الشيوعى وحده على اكثر من ٢٠٪ من اصوات الناخبين بينما حصل الحزب الاشتراكى الديمقراطى على نفس النسبه تقريبا، ولو كان هناك تحالف حقيقى بين الحزبين فى ذلك الوقت لكان قد امكن سد الطريق امام النازيه..

ومن الطبيعى وبعد اندحار النازيه ان يبرز هذا الحزب وكوادره ورموزه الباقيه لما لهم من تراث نضالى ارتبط بمصالح الجماهير وما كابدوه وقاسوه على يد العصر النازى..

* اما العامل الثانى فهو التحدى الهائل الذى وجدت المانيا الديمقراطيه نفسها فى مواجهته وخاصة من جانب الجزء الاخر من المانيا الذى تضافرت امريكا من خلال مشروع مارشال وبقية دول اوربا على مساندته واعطائه دفعات ومقويات فعاله لاعاده البناء السريع.

ان هذا التحدى، او فلنقل التنافس الالمانى، كان بمثابه الحافز القوى او المهماز الذى لا يترك فرصه للحصان بأن يغفل فى حلبة سباق متصل..

وقد كان الامرالمحير لى حقا كأشتراكى مصرى هو انه رغم كل تلك الانجازات الاقتصاديه من الضمانات المتوفره للمواطنين سواء بالنسبه للمسكن او الصحه او التعليم والعمل الا ان انعكاس ذلك على المواطنين لم يكن ايجابيا تماما...

او بمعنى اخر ان البعض هناك لم يكن مدركا او مستوعبا لا همية ما يتمتع به من ضمانات ومستوى معيشى قد يفوق كثيرا من الدول الغربيه التى زرتها...

اولادى يحملون لى كل اسبوع تقريبا قائمه ببعض المشتريات لزملائهم فى المدرسه من برلين الغربيه.. وكلها مشتريات هايفه ينحصر غالبها فى الشيكولاته وبعض الملابس... والتى تتوافر بكثره عندهم...

وبعض العائلات الالمانيه الصديقه، تطلب منى اذا كان ذلك ممكنا ان اشترى لهم من برلين الغربيه او فى سفرياتى الى الدول الغربيه بعض الحاجيات البسيطه. وطبيبه وزوجها المهندس يملكان شقه فاخرة التأسيس ومنزلا صيفيا على بحيره له حديقه تبلغ نصف فدان، ولديها عربه فارتبورج وقارب بخارى.. ولكنهما وفى كل لقاء معهما لا يكفان عن ابداء الرغبه فى السفر الى الغرب.

وكانت الطبيبه بشكل خاص شغوفه بأن تسمع منى ادق التفصيلات عن برلين الغربيه... الشوارع والناس والمحلات... وحتى اماكن اللهو... حتى انها سألتنى يوما.

– كيف تبدو الشمس فى برلين الغربيه؟!!

وحينما كنت احاول ان اذكرهما بأن نمط الحياه التى يعيشونها يعتبر بكل المعايير طموحا للغالبيه العظمى من سكان دول اوربا الغربيه...

كانا ينظران الى فى دهشه ممزوجه احيانا بذلك الشبق الانسانى المشروع للمعرفة ثم يقولان فى تساؤل.

– لماذا لا يسمح لنا اذن بالسفر الا للدول الاشتراكية، اليس من حقنا ان نعرف ونرى بانفسنا

اما الطبيبة التى تفوقت فى علمها ونالت اكثر من مرة شهادات تقدير فكانت تنهى تلك المناقشات بمنطق ساحق

– فتاح... ادم وحواء فى الميثولوجى الانسانى كانا يملكان كل شيئ فى الجنة ويعيشان فى

رفاهية... فقط كانت شجرة التفاح ممنوعة عليهم... ولكنهما تزوقا الثمرة المحرمة... لاتنسى اننا ادميون، من حقنا ان نجرب بانفسنا لنمسك بالحقيقة فى ايدينا... حتى ولو كان ذلك يعنى طردنا من الجنة.

تلك هى القضية فى واقع الامر حرية السفر من ناحية، ووسائل الاعلام وبشكل خاص الصحافة التى مازال اغلبها يعيش فى مرحلة الدعاية والدفاع من ناحية اخرى.

برونو آبتز... الكاتب المشهور الذى ابدع رواية "عريان بين الذئاب" التى فضح فيها ماساة المعتقلات النازية وترجمت الرواية الى كل اللغات المعروفة قال لى يوما فى منزله الكائن بميدان شتراوس بيرجر وذلك قبل وفاته بعدة شهور.

– لقد اعتقلت وعانيت لسنوات طويلة بسبب الاشتراكية ولأن الاشتراكية كانت ومازالت تعنى تحرير الانسان من كل ما يشل قدراته الابداعية الخلاقة ولذلك فانا مع اطلاق الحرية الى ابعد مدى فليسافر من يريد السفر وليكتب ما شاء ان يكتب... وسيكون كل ذلك فى صالح الاشتراكية وشهادة لها انها النظرية الحقيقة التى تتيح تحرر الانسان. اما وضع القيود ورنة الدفاع الثابت الذى لا يتغير ولا يتحول والتى اصبحت مثل مونولوج ممل فى صحافتنا واعلامنا فانها اصبحت غير فعالة حتى ولو كانت ممتلئه بالحقيقة... وستيفان هايم احد الم الكتاب الالمان على الاطلاق والذى اثار البعض ضجه حوله لانه نشر قصته المعروفة "كوليت" فى احدى دور النشر الغربية قال لى فى لقاء خاص وردا على سؤالى عن مدى صحة الضغوط التى يتعرض لها بعد صدور روايته

– لقد هاجرت الى امريكا ايام النازية تماما مثلما فعل بيرثولد بريخت وتوماس مان وعندما اندحرت الهتلريه، اخترت ان اعود الى المانيا الاشتراكية لان هذا كان حلمى وهدفى ولن اتركها بالرغم من محاولات البعض ممن لا يفهمون الاشتراكية على حقيقتها...

والواقع اننى كنت لا امل من مناقشة هذه السلبيات مع من اعرفهم من الالمان مسئولين وغير مسئولين...

قال لى نائبا لرئيس تحرير احدى الصحف اليومية وهو صديق قديم عرفته حين كان يعمل فى القاهرة.

– اعترف لك ان هناك بعض النواقص فى اجهزة الاعلام وفى وجود بعض القيود المؤقتة وخاصة بالنسبة لحرية السفر والتنقل ومناقشة القضايا الخلافية بشكل علنى. ولكن لاتنسى ايضا اننا مستهدفون فى الاساس لوسائل الاعلام المعادية التى تحيط بنا من كل جانب

وكنت اقول له بعد مناقشات طويلة.

*– بالعكس هذا ادعى لكى يكون اعلامكم وصحافتكم اكثر انفتاحا وحرية فى مواجهة الاعلام المضاد... ان الفكر الاشتراكى لم يعد طفلا صغيرا يجب فرض الحماية عليه تحت

دعوى الحرص والخوف عليه من نزلة برد او حتى نزلة معوية... لابد من الثقة بالمواطن فهو الأصل والاساس التى تبنى من اجلة الاشتراكية اطرحوا كل لحقائق واتركو الفرصة للنقد العلنى واختلاف الاراء..

وحقيقة فقد كنت اجد تفهما او على الاقل ادراكا لابعاد المشكلة مع الكثيرين الذى كنت اناقشهم فى تلك القضايا او السلبيات وخاصة بعض المسئولين فى الحزب والمثقفين ولكنى ايضا كنت اواجه احيانا بالبعض من هذه النوعية التى اعتقد ان ايمانها بالاشتراكية اقل بكثير من تمسكها بالسلطة، التى تأتى فى نظرها امتيازات السلطة والتسلط أولا وقبل كل شيئ وتدرك من منهجهم المصطنع وترديدهم الشعارات بلا تعمق او حتى فهم ناضج انهم انضموا للحزب فقط لانه فى السلطة. وانهم من النوع الذى هو على استعداد للانضمام الى اى حزب او جماعة وبغض النظر عن الشعارات والاهداف التى تكون فى يدها مقاليد الامور... وقد اصطدمت ببعضهم حتى ان واحدا من هؤلاء قال لى فى غرور ساخر.

- يبدو انك ليبرالى أكثر منك اشتراكى..

وكان ردى عليه وبعنف

- الحقيقة اننى أمنت بالاشتراكية باعتبارها قمة تحرير الانسان وعانيت وكافحت من اجل ذلك، اما انت فقد أمنت بالاشتراكية باعتبارها قمة السلطة والمصالح الضيقه.

وقد كان ذلك احد الهواجس التى كانت تفرض نفسها فى اصرار وتثير فى داخلى مخاوف كثيره... ان الاشتراكية قد حققت فى تلك البلدان انجازات لا يمكن ان يتجاهلها أو يغفلها اى مكابر، واهم تلك الانجازات هى الضمانات الانسانية فى العمل والصحة والتعليم والسكن، وهى الخانات الرئيسية التى تشغل بال كل انسان او هى الحقوق الاساسية للانسان...

ولكن الاشتراكية كنظرية بشرت ليس فقط بتحرير الانسان من كل الموبيقات والمشاكل الاقتصادية، بل ومن كل الهموم والمشاكل التى تشل قدراته الابداعية وانطلاقته الحرة.. اى بضمانات اوسع لحرية الخلق والابداع والابتكار... حرية بلا ضفاف او حدود قاهرة او كاتمة..

وحتى اذا تصورنا ان الظروف الاولى لبناء المجتمعات الاشتراكية ووجهت بمحاولات عنيفه من جانب قوى الراسمالية والتخلف لحصارها وخنقها بل وتدميرها الامر الذى ادى الى فرض بعض القيود والحدود فى المراحل الاولى...

ولكن الذى لم يكن مفهوما ان تستمر هذه القيود والحدود رغم تغيير الظروف ورغم الانجازات الملموسة التى تحققت...

الامر الذى يؤدى بالضرورة الى تضخم سلطة الدولة، مع ان النظرية الاشتراكية فى الاساس تسعى الى الغاء الدور المتسلط لجهاز الدولة..

كما كان من الضرورى ان يعاد النظر فى دور الحزب وتشكيله، فالاحزاب الاشتراكية التى

عانت الكثير وهى فى المعارضة من سجون ومعتقلات وتعذيب حتى ان هناك رايا مدعما بالوقائع والاحصائيات تقول ان المعاناة التى لا قاها اصحاب الفكر الاشتراكى فى العالم فاقت الى حد كبير كل المعاناة التى واجهها اصحاب العقائد الجديدة على مر التاريخ.. منذ ثورة سبارتاكوس والمسيحيون الاوائل حتى ضحايا محاكم التفتيش؛ هذه الاحزاب التى كانت لا تجذب لها فى المعارضة سوى المناضلين الحقيقيين من اجل تحرير الانسان والمؤمنين بالمثل الانسانية العليا والقادرين على التضحية والفداء، من الطبيعى وبعد ان تصل الى السلطة ان تنجذب اليها البعض من الانتهازيين والوصوليين والنفعيين الذين يجيدون لعبة السلطة ويحترفون خلق الهالات المقدسة حول بعض القيادات وترديد كلماتهم كما لو كانت وحيا مقدسا... ويضيع بل يتعرض للاضطهاد احيانا العناصر الاشتراكية الحقة، ويطفوا على السطح وتتضخم بعض الشخصيات الاسفنجية التى تجيد فن العلاقات العامة ومسح الجوخ...

ثم هناك مفهوم الطبقة العاملة او البروليتاريا فى ضوء تطور التكنولوجيا وسقوط كثير من الحدود الفاصلة بين العمل اليدوى والعمل الذهنى... الامر الذى ادى فى بعض الاحيان الى بروز الفئات المحظوظة من "العمال" التى تتمتع بكثير من الامتيازات الغير شرعية.. مثل الحرفيين والعاملين فى الفنادق والمطاعم والمقاهى وبعض العاملين فى اجهزة الخدمات المختلفة...

وهو امر غير مقبول ومفهوم أن ترى استاذ الجامعة او الطبيب يسكن فى شقة متواضعة ويمتلك عربة "ترابانت" وهى العربة الشعبية الرخيصة فى حين ان جرسون فى احد المطاعم او بارمان فى احد البارات او الحرفى يمتلك بالاضافة الى الشقة منزلا صيفيا فاخرا على احدى البحيرات ويركب الفولفو السويدية او الرينو الفرنسية او الفلوكس الحديثة من دخول غير مشروعة... حتى انه كانت هناك موضة فى فترة من الفترات ان يترك بعض المثقفين اعمالهم الاصلية ليعملوا كجرسون او حراس لبعض النوادى الليلية باعتبارها اربح واكسب.. وانا شخصيا عرفت طبيبات ومهندسات ومدرسات تركن مهنتهن واحترفن العمل فى المقاهى والمطاعم والمراقص.

ولقد جاءت احداث بولندا لتكون بمثابة ناقوس الخطر المزعج...

اكثر من ١٠ مليون عامل يمثلون اكثر من ٨٠٪ من القوى العاملة فى بولندا كلها يعلنون تمردهم على النظام ورفضهم له، هذا النظام الذى يستمد شرعيته من انه يمثل الطبقةالعاملة...

ولم يعد من الممكن مثلما كان فى الماضى ان يفسر ذلك فى ضوء المقولات التقليدية عن المؤامرات الاستعمارية واجهزة التخريب...

فاذا كان دوبشيك وربيع براغ فى تشيكوسلوفاكيا قد أتهم وادين على انهم مجموعة من المثقفين المتعزلين عن الجماهير رغم ان الامر استدعى تدخل قوات حلف وارسو.. اذا كان ما

حدث فى المجر وبولندا نفسها من قبل قد امكن اخماده وتصوير الامر كله على انها محاولات فئات محدودة معادية للاشتراكية ولمصالح الجماهير وتتحرك وفق مخططات امبريالية.
الا ان الامر لم يعد كذلك فى بولندا فكيف يمكن تفسير ما حدث فى اطار هذه المقولات كيف يمكن للعمال ان يرفضوا نظاما يحكم باسم الطبقة العاملة.. وحتى اذا كانت هناك محاولات للتخريب من جانب القوى المعادية فكيف امكنها تحقيق مثل هذا النجاح الساحق..لقد بدأ واضحا للجميع ان هناك خلل ما.. يذكرك بتحذيرات برلنجوير سكرتير الحزب الشيوعى الايطالى فى المؤتمر الذى عقدته الاحزاب الشيوعية والعمالية سنة ١٩٧٦ بان اخطاء النظم الاشتراكية فى اوربا واسيا قد بدأت تعكس نفسها فى الحركة الثورية والعالمية والتى بدأت تفقد قوة الدفع.
وبغض النظر عن كل شيئ فقد كان هناك فى المانيا الديمقراطية من هو مهموم بذلك حقا.
وعلى عكس هؤلاء البعض من كدابى الزفة الجاهزين دائما لتبرير وتنظير كل ما هو قائم كان المسئولون الكبار يفتحون كل اذانهم وحواسهم لانهم كانوا اكثر ادراكا ووعيا لان الواقع يتغيروان كل شيئ يتحول ويتبدل وانك لا يمكن ان تقتحم عصر الفضاء والثورة التكنولوجية الهائلة بمقولات عصور مضت وباعلام يغلب عليه الطابع الدعائى.
ولكن المشكلة ان الطريق الى اى من هؤلاء المسئولين المهمومين بالجديد الذى يطرح نفسه على المجتمع، كان محتلنا بمن كنت اسميهم بنباتات الصبار او باشواك الاشتراكية... ولقد اضاف ذلك الى همومى هما اخر اكثر تعقيدا..
حتى ان الصديق علاء الطاهر الذى كان قد ترك السعودية واشترك مع زميل اخر فى فتح مكتب تجارى فى برلين صاح فى وجهى ذات ليلة.
*- امرك غريب حقا... تختلف مع كامب ديفيد ونظام السادات ومع ذلك تدخل معارك ضارية ضد بعض القوى والنظم التى تهاجم كامب ديفيد.
وضيعت حياتك دفاعا عن الاشتراكية ودخلت من اجل ذلك السجون والمعتقلات ومع ذلك تنتقد بشدة بعض الجوانب فى المجتمع الاشتراكى الذى تعيش فيه.. هل هى هواية خاصة ان تكون دائما فى الشط الاخر...
والله لو حدث وجاء نظام اشتراكى فى مصر، فإنى اخشى انك ستدخل السجن ايضا يا اخى دعك من هذه الاحلام او الاوهام المثالية التى تحركك إنها غير قابلة للتحقيق.. حاول ان تكون واقعيا مرة فى حياتك.. انك لم تعد وحدك.. عندك اولاد يكبرون ويحتاجون الى الكثير..
قلت له بمرارة من يحس بمنطقه ويرفضه فى نفس الوقت.
-: تعنى ان اصبح انتهازيا على اخر الزمن..!!
وانفجر علاء فى جدية شديدة بل وفى قسوة فى بعض الاحيان

*- لا يا سيدى.. عايزك تتصالح مع الواقع... عامل زى دون كيشوت وعمال تحارب فى كل الجهات... وبسيف خشبى مكسور اصلا.

حتى اصدقاءك فى الفكرة نازل هجوم عليهم...

انت فاكر نفسك ايه... مصلح الكون...

يا اخى اتلهى... دانت ما فيش فى جيبك ١٠٠ مارك على بعضهم..

قلت على الفور..

لأمن فضلك... ٥٠ مارك فقط

كانت كلمات علاء قاسية حقا استمدت قسوتها من انها حاصرتنى فى واقع اعيشه وارفضه واحس بثقله.

ووجدت نفسى غير قادر على الرد، بل لم استطع ان اجمع بعض الكلمات لاقذفها فى وجهه دفاعا عن نفسى.. كانت الكلمات مخنوقة فى حلقى ومبللة بدموع صامتة ساكنة غير مرئية... رغم محاولات السخرية والمرح التى كنت أدعيها. ويبدو ان وجهى كان يموج بكل تلك الانفعالات المكبوتة والاعاصير الداخلية المحيطة والعاجزه حتى ان تعبر عن نفسها...

كما ان عيناى كادتا ان تغرقان فى ارهاصات دموع جاهدت فى ان احبسها ولم ينقذنى من هذه الحالة المكثفة بالضعف والعجز الا صوت علاء نفسه وهو يحتضنى ويقول فى كلمات صدق عميق

*- انا اسف.. اسف جدا... انت عارف كم احمل لك من تقدير فانت تجسد لى كل القيم الحلوة التى حلمت بها يوما دون ان استطيع تحقيقها... اننى فقط اخاف عليك... فانت تتعرض لهجوم شديد من جانب البعض... وتقف وحدك تماما...

وعندما ذهبت الى المنزل فى تلك الليلة، قال لى ابنى الاكبر عمرو ان هناك شخص المانى قد اتصل بى لامر عاجل وانه يعمل فى ادارة الصحافة فى وزارة الخارجية واتصل الرجل فى الصباح واصر على المرور على المنزل..

التقيت بالرجل.. كان من الواضح ومن اللحظة الاولى انه لا يعمل فى ادارة الصحافة الدولية كما قال فانا اعرفهم كلهم تقريبا من خلال العمل.. كما انه لم يشأ ان يفصح عن مركزه تماما... سوى انه مسئول حزبى عن نشاط الاجانب..

كان ودودا للغاية مهذبا يجيد اختيار الكلمات... الموجهة...

قال تبريرا لزيارته أنه سمع عنى كثيراً ككاتب له كلمته الجادة والمسموعة فى مصر العالم العربى...

واخذ يتكلم فى امور كثيرة ابتداء من زيارته لمصر فى الستينات ووقفته امام الاهرام وابو الهول متمثلا عظمة الحضارة والتاريخ الى الظروف الصعبة التى عاشتها بلاده فى الخمسينات

والحصار المفروض عليها من الغرب... وتحدث عن تجربة سور برلين التى اشترك هو شخصيا فى بنائه وكيف انه اوقف النزيف الحاد الذى كانت تعانى منه التجربة الاشتراكية فى المانيا..

ثم تعرج الى وضع الاجانب فى الجزئين الشرقى والغربى من برلين وكيف ان اجهزة المخابرات الدولية تحاول ان تلعب بالبعض منهم.. وفى كل الاحوال يعطى امثله دقيقة ومحددة مما يؤكد انه على علم وصلة باسرار وخفايا كثيرة..

اخذت استمع الى الرجل المهذب فى صمت وترقب وانا احاول ان استكشف الغرض الحقيقى من زيارته.. وقبل كل ذلك... من يكون حقا؟

الى ان بادرنى بسؤال مفاجئ احسست به كصاروخ اختبار موجه

- ولآن وقد مضى عليك ثلاث سنوات بيننا... ما رايك فى المجتمع الذى نبنيه؟

وابتسمت لصدق توقعاتى فى الرجل منذ البداية... وقلت فى لهجة باردة متعمدة

- انها تجربة خصبة لها ايجابياتها الكثيرة... ولها ايضا سلبياتها..

هذا معروف لدى الجميع.. اقوله واكتبه علنا...

قال وقد احس بنبرتى الباردة الهادئة

*- نعم.. نعم.. ليس هناك مطلقات.. هناك قطعا بعض السلبيات، لكن على الانسان الا يضخم من هذه السلبيات.. فهو بذلك يعطى سلاحا لاعداء الاشتراكية.

قلت وبنفس النبرة الهادئة

*- ان هذه السلبيات نفسها واستمرارها دون علاج هى من الناحية الموضوعية سلاح ضد الاشتراكية.

قال مبتسما مؤكدا فيما يبدو فكرة مسبقة لديه

-اعرف ان هذا رايك الذى تردده كثيرا ، بالرغم من انك كاتب ومفكر اشتراكى

قلت ببعض الانفعالات وبغيظ مكتوم.

:- بل اقوله ولانى اشتراكى وحريص على الاشتراكية من اى محاولة لتجميدها او تحجيمها .

ويبدو انه احس بارهاصات الانفعال والضيق فى عينى وعلى وجهى فاسرع قائلا فى ود شديد.

*- ارجو الا اكون قد أغضبتك فى شيى...

وبصراحة فكل التقارير التى تصلنى عنك فى السنة الاخيرة تقول انك على خلاف مع الجميع مع النظام فى بلدك ومع الانظمة العربية الاخرى، بل ان علاقتك بالتنظيمات الثورية فى الخارج ليست على مايرام..

ثم اردف موجها صاروخا اخر

*:- هل تعتقد لو عدت الى بلدك فى هذه الظروف فستتعرض للاضطهاد او الاعتقال..
واصابتنى كلماته فى القلب وقلت منتفضا ومنفعلا..
*:- اسمع يا هر... لقد جئت الى منزلى تحت دعوى انك تعمل فى مركز الصحافة الدولية مع ان هذا غير صحيح، ثم قدمت نفسك على انك مسئول عن الصحفيين الاجانب... ثم اخذت تتحدث لاكثر من ساعة فى موضوعات شتى.. وتحملت ثم اخذت تمطرنى باستفسارات وتساؤلات غريبة... وتحملت ايضا.. وانا كاتب مفتوح العقل والقلب..وليس هناك ما اخفيه او ادعيه..
وايا ما تكون، فهذا امر لا يهمنى من قريب او بعيد.. ولكن لا اسمح لاحد ايا كان بان يوجه الى اهانه سواء فى بلدى او فى اى مكان اخر.. لانى ببساطة لا املك الافكرا وعقيدة، ولست على استعداد تحت اى ظرف وفى اى وضع أن اتنازل او اساوم على افكارى ومعتقداتى...
واحب ان اوضح لك نقطة هامة... انى لست لاجئا.. ولست مضطرا الى البقاء ولكنى احاول استكمال علاج عين ابنى واستكمال رسالة الدكتوراه ومع ذلك فإنى ابلغك الآن بانى وبعد حديثك قد قررت ان احزم امتعتى واعود مع اولادى على اول طائرة الى القاهرة فى الاسبوع القادم...
كانت الكلمات تخرج من فمى مثل طلقات رشاش آلى.. سريعة ساخنة منفعلة ويبدو ان الرجل قد فوجئ برد الفعل العنيف الذى لم يكن يتوقعه أو انه كان خارج حساباته.. وحاول ان يقول شيئا من قبيل الاعتذار او التبرير ولكنى لم اكن فى حالة لان اسمعة او استوعب ما يقوله...
فلقد احسست بجرح الامتهان فى الغربة..
وودعته على الباب وهو يردد فى انزعاج...لا.. لم اكن اقصد، ارجو ان تفهمنى لابد من توضيح الامور... لابد من لقاء اخر...
وفى الصباح كنت فى مكتب شركة الطيران "انترفلوج" احجز ثلاث مقاعد لى ولاولادى الى القاهرة.. ثم اتصلت بشركة النقل الخارجى "دوترانز" للقيام باجراءات لشحن اغراضى وحاجياتى.
كنت ممتلئا بقرارى بل ومرتاحا له.... وربما كان الرجل مظلوما فيما تصورته اهانة لى... وربما ادت الحساسية الخاصة التى نمت لدى فى الغربة، وتحديدا فى السنة الاخيرة الى تصورات دون كيشوتية وهمية.. وربما كان الرجل صادقا فيما قال بأنه جاء ليناقشنى ككاتب اشتراكى سمع به..
ربما كان كل ذلك صحيحا.. ولكن المؤكد اننى وجدت فى قرار العودة الى مصر خروجا من

الازمة المحكمة التى كانت تحاصرنى وتشل من قدراتى وتغرقنى فى لجة من الضيق والالم والحزن..

وعندما عدت بعد ظهر ذلك اليوم الى البيت، وجدت صديقا المانيا ينتظرنى على غير موعد على غير العادة الالمانية...

كان الصديق يحتل احد المناصب الرفيعة فى الحزب والدولة، كنت قد تعرفت به فى القاهرة فى الستينات هو وزوجته التى كانت تعمل فى ذلك الوقت مستشارة ثقافية فى القاهرة.. ومنذ انتقالى للعمل فى برلين كنا نتزاور ونلتقى بين الحين والحين وجمعتنا علاقة ود واحترام متبادل..

بادرنى الصديق الالمانى محتجا على انه اضطر لانتظارى اكثر من ساعة شغل نفسه فيها بالحديث واللعب مع اولادى.. ثم دخل الى الموضوع مباشرة...

كان الواضح انه سمع بما حدث مساء امس مع الزائر الالمانى الاخر وبقرارى بالعودة.. وحاول ان يفسر لى بعض الحقائق وبان الرجل الذى التقى بى يعمل فعلا كمسئول حزبى وسياسى فى قسم العلاقات الخارجية، وبانه كان مشوقا الى مناقشتى والتعارف بى.. وانه لم يكن يقصد توجيه اى اهانه لى او اى محاولة للاسقاط

قلت له مهدئا.

*:- لا عليك... على اى حال اننى لم آت هنا لا بقى.. فلا بد وان اعود لبلدى يوما..

قال الصديق الالمانى

*:- طبعا وهذه قضيتك تحسمها وفقا لظروفك الخاصة والعامة، ولكن ليس بهذا الشكل.. انى مكلف لان اقول لك بان الكل هنا يحمل لك تقديرا عاليا.. لست اقول لك ذلك كصديق، بل انى احمل لك رسالة.. انك هنا ضيف عزيز وغال، هذا رأى الجميع.. وليس هناك ادنى رغبة او محاولة للضغط عليك او تغيير اراءك.. فاذا كنت تريد ان تعود لبلدك فهذا حقك وقرارك.. ولكن ليس بهذا الشكل المفاجئ وفى هذه الظروف الملتبسه

ان الرجل على استعداد لأن يلتقى بك ليفسر لك كل ما التبس فى [illegible]...

اننى اناشدك وارجو كصديق ان تعيد النظر فى قرارك فى هذا الظرف بالذات...

وتركنى الصديق الالمانى...

وجلست فى الصالة ارقب عمرو وياسر ولداى وهما منهمكان فى زخرفة شجرة عيد الميلاد فى جد وحب ومثابرة...

وانتقل بصرى الى صورة كبيرة لا خناتون معلقة على الحائط وهو يتلو ترانيمه لآتون.. اله الشمس الجديد.. ثم الى اية كريمة تتوسط الصالة تقول " ان بعد العسر يسرا" مكتوبه بالخط الكوفى الجميل المنمق.

والثلوج فى الخارج تغطى محطة المترو القريبة.. وضحكات المرح الملونة تصل الى أذنى من الجماعات التى بدأت تتحرك احتفالا بليلة عيد الميلاد

ورن جرس التليفون، كان علاء هو المتحدث

*- اين ستقضى الليلة الخالدة

قلت بلا وعى ... فى القاهرة

ضحك وقال

* ليكن كذلك.. سآتى لك ومعى مجموعة من الاصدقاء..

ولنجعلها ليلة قاهرية.. وسط برلين..

-١٦-

امضى وسط العالم دون أن أشكو دون أن يحمينى
الناس، أمضى كشجرة وحيدة فى الخريف غريبا..
أحمل فى قلبى كلمة..
لويس أراجون- كلمات ضائعة..

مايو سنة ١٩٩٨.

التنوير...

كلمة موحيه لها رنين وصدى.. إنها تجسد لك معنى محددا وفضفاضا فى نفس الوقت، حين تلقى بشحنة من الضوء على مكان معتم فتبين لك ملامحه وتفاصيله، بقدر درجات الضوء المتسلطة وبقدر اتساع انعكاساته، فتكشف لك طريقا وسط الظلمة أو حتى تفتح ثغرة فى طبقات السحب الداكنة والمتراكمة تستطيع من خلالها الطيور القادرة على التحليق ان تنطلق إلى آفاق واسعة رحبة...

وفكرة التنوير لاتبرق وتلمع إلا مع الإحساس بالظلام...

وماسمى بعصر النهضة فى أوربا فى القرنين السادس والسابع عشر ليس هو فى واقع الأمر سوى عصر تنوير إنسانى حاول أن يخرج بالإنسان من كهوف التخلف والجمود الذى فرضته أباطرة العروش والكنيسة لإعادة اكتشاف عظمة الإنسان الفرد وقدراته الإبداعية والخلاقة..

والمفترض فى التنوير انه يمثل المرحلة الأولى التى لابد وان يعقبها ازدهار وتألق...

ولذلك كان من الغريب أن احس مثلما احس كثيرون فى العالم العربى بأنه رغم ومضات الإشراق فى تاريخنا الحديث والإرهاصات القوية للانفتاح على الطبيعة والحياة إلا أن سحبا كثيرة قد عادت لتتكثف وتحجب الرؤيا ولتجهض محاولات نبيلة بذلت طوال هذا القرن فى مصر وفى العالم العربى، ولتفرض الحاجة مرة أخرى إلى مرحلة تنويرية جديدة وإلى دفعة ثقافية وفكرية لتشعل مصابيح الفكر والحضارة.. ولقد تحمست لهذه الدعوة التى خرج بها عدد من المفكرين والمثقفين المصريين والعرب بل وشاركت فى اللجنة التحضيرية التى أعدت للمؤتمر الأول للحركة التنويرية للعالم العربى الذى عقد فى باريس.

خرج بالفكرة لطفى الخولى وسانده فيها صلاح البيطار.. وسرعان ماوجدت صدى واسعا بين الكثير من المثقفين المصريين والعرب على مختلف اتجاهاتهم ومنابعهم الفكرية..

واستمدت الفكرة جاذبيتها من حالة التشتت والتمزق والضياع الذى اجتاح العالم العربى مع أعاصير كامب ديفيد وهجمة العصر البترولى الرهيب الذى اغرق هذا العالم فى حمى الاستهلاك والاستمتاع الحسى. وقام بدور المخدر للعقل العربى الذى بدأ يشهد تراجعا بل وإنحسارا لكثير من قيمه الثقافية والفكرية ولطموحاته الوطنية والقومية. كانت الفكرة بسيطة بل وتبدو ساذجة للبعض.. وانحسرت الدعوة فى أن يلتقى المثقفون من جميع انحاء العالم العربى ليتحاوروا وبحرية وبعيدا عن أى التزام فكرى أو حزبى مسبق لتدشين مبدأ حرية الحوار..

وبعيدا عن هؤلاء الفرسان الذين ينخر سوس التآكل والعفن فى عظامهم والذين لايكفون عن الصياح والصراخ حاملين معهم سيوفهم الصدئة زاعمين انهم يملكون زمام الحقيقة.. بل والحقيقة المطلقة.

لم يضع المؤتمر شعارات ضخمة رنانة أو يطرح على جدول الأعمال قضايا مصيرية واستراتيجية تتفرع منها آلاف القضايا الأخرى..

ولكن قال ببساطة.. ليلتقى المثقفون على اختلاف الوانهم ليناقشوا بعيدا عن الخوف والتسلط دون أن يتصور أحد منهم أنه يمثل لحزب أو لفئة وبدون إدعاءات لأن هذا الفكر أو هذا الحزب هو مبعوث العناية الالهية لإصلاح العالم العربى وأنه وحده يمتلك الحقيقة..

وهكذا اجتمعت فى باريس مجموعة من المثقفين المصريين والعرب وليس على جدول الأعمال سوى مبدأ واحد.. الحوار..

كان هناك البعثيون والشيوعيون والليبراليون ورجال الدين والذين يمثلون فى الواقع كل الاتجاهات العقائدية والفكرية المتواجدة على الساحة العربية..

كان هناك صلاح البيطار ومحسن العينى، وأديب الجادر، ولطفى الخولى وأبو سيف يوسف ومحمود العالم والشيخ سعاد جلال وعادل حسين وميلاد حنا من مصر والعراق والسودان وسوريا ولبنان والجزائر واليمن والمغرب وكان منهم من جرب السلطة وكان رئيس وزراء أو وزيرا أو حتى نائبا لرئيس جمهورية، كما كان منهم مثقفون يخوضون المعارك الفكرية والثقافية..

وعلى مدى يومين دار حوار خصب حر ومفتوح لم يحاول فيه أحد استعراض عضلاته أو إخفاء الحقيقة أو تلوينها، بل حرص على مواصلة الحوار وتأصيله كمنهج مع كثير من الاعترافات والنقد الذاتى.

قال صلاح البيطار المفكر ورجل الدولة المعروف

* اعترف اننى فى السلطة ارتكبت اخطاء جسيمة حين كنت اتصور أن الحقيقة تنحصر فى مفهوماتى البعثية وأن الآخرين دائما على خطأ..

وقال لطفى الخولى.

* إن الخلل الذى جرى فى العالم العربى يرجع إلى أن الاتجاهات الأربعة المتأصلة وذات الجذور فى العالم العربى وهى الفكر القومى والبعثى والماركسى والدينى لم تحاول أن تجرى حوارا فيما بينها.

وقال محسن العينى

* لنختلف ماشاء لنا أن نختلف فى تصور المستقبل ولكن الواقع المر الذى يعيشه الإنسان العربى يحتاج إلى اتفاق أولى حول قضية أساسية هى ضمان حقوق الإنسان العربى.. حقوقه الفطرية فى التعبير والتنظيم، فى الموافقة أو الرفض أو الاحتجاج.. إن كل المشروعات ذات النسيج الواحد قد سقطت فى الامتحان عندما اتيحت لها الفرصة فى الحكم فى العالم العربى..

الذين يحكمون باسم الدين، والذين يحكمون باسم الاشتراكية، والذين يحكمون باسم القومية.

وقال أبو سيف يوسف

* يمكننا القول إن هناك نمطا واحدا تقريبا لأشكال الحكم فى العالم العربى هو النمط الفردى المعتمد فى الأساس على تنظيمات عسكرية أو بوليسية مع تغيب شبه كامل لدور الجماهير المنظمة.. والغريب أنه يشترك فى ذلك من يزعمون أنهم يرفعون رايات التقدم، ومن يدافعون عن مخلفات وحصون التخلف..

.. لقد فقدت كثير من الشعارات مغزاها ومعناها.. وعلينا أن نبحث عن عودة الجماهير إلى الساحة.. ثم فلتكن مشيئتها..

وقلت فى كلمة مختصرة

إن هناك فجوة حضارية واضحة بين الفكر النظرى والتطبيق العملى، بل أصبح هناك انفصال شبه مطلق بين الشعارات وواقع الحياة المتحرك وقد حكمت الناصرية باسم الاشتراكية ومع ذلك فليس هناك اشتراكى واحد فى مصر لم يتعرض للاعتقال أو للاضطهاد فى تلك الفترة،

كما وصلت أحزاب عقائدية تحمل فكرا قوميا إلى السلطة فى أكثر من بلد عربى ومع ذلك كان الصراع بين هذه الأنظمة ذات التوجه الفكرى الواحد أقصى وأعنف من أى صراع آخر. ولم يعد هناك من حل سوى استعادة الفكرة الليبرالية السياسية وتأكيدها مرة أخرى.. التعددية الحزبية.. والتنوع الفكرى.. والحوار.

وأسهب آخرون فى توصيف مخاطر المرحلة النفطية على الفكر القومى والاجتماعى وخاصة وأن هذه الثروات الهائلة قد جاءت بعيدا عن تطور وسائل وقوى الإنتاج التى ماتزال فى الأساس متخلفة كما أنها تركزت فى أيدى قلة متميزة تحكمها علاقات أو روابط قبلية أو

عرقية، الأمر الذى أكد سلطة الفئات الحاكمة على حساب طموحات الجماهير الواسعة..

وتكلم محمود العالم عن أن الديموقراطية بأشكالها السياسية، هى اليوم المطلب الملح والعاجل، وحاول عادل حسين أن يستعرض بعض الإرهاصات الفكرية عن العودة إلى الجذور والبحث عن التراث وخاصة فى الدين.

أما سعد زهران فقد تكلم عن قراءة جديدة لتاريخنا العربى والحاجة إلى منظور حضارى جديد وأفكار أخرى كثيرة نوقشت وطرحت بمنهج جديد وبروح جديدة..

وكان من الواضح أن الحاضرين من جمهرة المثقفين العرب لم يحاولوا استمرار خداع النفس وإطلاق مقولات تقليدية تكتفى بتنصيب وتجسيد بعض الرموز وإطلاق الرصاص عليها لتفريغ الشحنة العاطفية أو الفكرية وكان الله بالسر عليم..

لم يحاول أحد أن يصب النيران كلها على الامبريالية والرجعية، أو يرفع شعارات الاشتراكية.. ويقدم روشتات العلاج الجاهزة والتقليدية.

فلقد كان الهم والإحساس بالمسئولية بين الجميع أعمق من ذلك بكثير.. كما أن خبرتهم وتجربتهم المعتقة قد أقنعتهم أن نقطة البدء لابد وأن ترتبط باستعادة الإنسان العربى نفسه وضمان حرياته وحقوقه.. وهو الكفيل بعد ذلك بأن يبعث الحياة مرة أخرى فى الأزهار التى جفت ويضفى عليها رائحتها الطبيعية.. ويهبها الوانها الحقيقية.. بعد أن تداخلت الألوان واستشرى الزيف والخداع.. وانسحق الإنسان العربى تحت بعض أنظمة تعددت رايتها وتوحدت فى القدرة على الكبت والتحكم..

لم يصدر المؤتمر أو الاجتماع بيانا يرص فيه الكلمات الضخمة المختارة كما هى العادة فى المؤتمرات العربية.. ولكن أصدر ورقة صغيرة تحكى عن بعض الأفكار التى طرحت وتؤكد ضرورة الديموقراطية وحرية الإنسان العربى باعتبارها الشيئ الوحيد الملموس والذى ليس باطل الأباطيل ولا قبض الريح..

وضرورة اعتماد الحوار والتفتح الفكرى كمنهج بديلا عن المنولوج الذاتى المنغلق..

أثار المؤتمر التنويرى الأول ضجة وردود فعل عنيفة وخاصة بين بعض الأحزاب العقائدية فى العالم العربى، ورأى بعضها أنه يجرف النضال الحقيقى ضد الامبريالية والصهيونية والرجعية كما أن البعض الآخر الأكثر كرما، اعتبرها فكرة توفيقية ساذجة..

أما الأنظمة فلا اعتقد أن نظاما واحدا فى العالم العربى كان سعيدا بهذا المؤتمر، وكان لانعقاد المؤتمر فى باريس دليل فى حد ذاته على ضيق الأرض العربية وانغلاقها فى وجه حوار جاد وهادف يسعى إلى استعادة إنسانية الإنسان العربى المهدرة.. ولذلك ظل المؤتمر الأول فريدا حتى الآن، أولا وليس له ثان.. ولم يجتمع مرة أخرى..

ومع ذلك فعندما عدت إلى برلين بعد تلك الجرعة الفكرية والإنسانية النشطة، أحسست مرة

أخرى بأنني استعيد نفسي واسقط الكثير من الضيق والإحساس بالإحباط وأحيانا العجز الذى كان يستبد بي طوال العام الماضي..

وربما لأني وجدت أني لست بدعة بين المثقفين العرب، وأن هناك كثيرون يحملون صليب الحقيقة بكل مافيه من آلام وتضحيات وليسوا على استعداد لأن يساوموا على إنسانيتهم وآدميتهم حتى ولو كان ذلك باسم التقدم..

وربما لأني رأيت في انعقاد هذا المؤتمر اليتيم بارقة أمل مشرقة يستطيع الإنسان من خلالها أن يرى فتحة النور في أعماق الكهف المظلم؛ بل إن اغتيال صلاح البيطار بعد المؤتمر بعدة شهور في باريس وهو في طريقه إلى مبنى المجلة التي أنشأها للدفاع عن الفكرة والتعبير والحوار قد أكدت لي، وبرغم الألم والحزن والدموع التي زرفتها على الرجل الذي لم أعرفه ولم ألتق به وأحبه وأعجب به إلا خلال أيام المؤتمر القليلة إلا إن اغتيال هذا الانسان العربي الناضج اقنعني أن الصيحة التي أطلقناها لن تذهب سدى وأنها رغم التعتيم الإعلامي الذي فرض عليها من قبل صحف الأنظمة والهجوم الذي تعرضت له من قبل بعض ادعياء الاشتراكية من الجامدين وحملة الأبخره وعبدة النصوص، إلا أنها قد فجرت شيئا حقيقيا دفع أعداء الإنسان العربي إلى القتل وإطلاق الرصاص..

وانطلقت مرة أخرى إعانق الحياة وأنفعل بها متجاوزا مشاعر الغربة المريضة واحاسيس الوحدة والعزلة التي كادت أن تحكم حولي حصارا قاتلا..

وضاعفت من نشاطي في الكتابة ليس في السفير وحدها بل وفي مجلات وصحف عربية أخرى تصدر في لندن وباريس أو في العالم العربي مثل الدستور والراية القطرية والوطن الكويتية مؤكدا نفس الآراء والمنطلقات التي كنت أدافع عنها طوال العامين الماضيين والتي كنت أحس أنني أقف فيها وحيدا معزولا محاصرا..

لقد انفك الحصار ولم تعد المعادلة صعبة..، وسقطت كل الأوهام والمخاوف التي كانت تحاصرني وبعنف لتفرض عليّ منولوجا داخليا أواجه به نفسي وأنا أتساءل في حيرة هاملتية أو في شك فاوستي هل أواصل أم أتوقف..

في تلك الليالي القاتمة كثيرا ماكنت انهض من على مكتبي والقلم عاجز على أن يكتب جملة مفيدة ونبض القلب ثقيل، مشحونا بالأحساس بالوحدة والغربة والاغتراب، وأتأمل ولديّ النائمين وأذني ممتلئة بهمسات التحذير التي كانت تواجهني في كل مكان، وأكاد أصرخ وبأعلى صوتي.. رباه لماذا تركتني.. إني لا أرى مايراه الآخرون.. ولا أفعل مايفعلون.. التفت يمينا فلا أرى صحبتي.. وأنظر يسارا فيحذرني رفاقي.. وأمامي طريق شاق مليئ بالأشواك.. فكيف لي أن أصمد.. ولماذا أصمد؟.. وأولاد الأفاعي في كل شق ومكان.. والوطن بعيد.. بعيد..

ولكن مؤتمر التنوير فى باريس.. وذلك الجو الدافئ من الحوار الإنسانى البناء بين مجموعة من المثقفين متجردين من الارتباط بالأنظمة الموجودة على الساحة وعينهم على الإنسان العربى المقهور والمحاصر فى كل مكان، أمدتنى بطاقة قوية من الأمل..

لقد كنت مثل برلنجوير بطل يونسكو فى مسرحية الخراتيت والذى وجد نفسه فجأة فى مدينة يتحول أهلها إلى خراتيت حتى أنه فى لحظة ضعف واستسلام قد ظن أنه قد أصبح شاذا لأنه يتمسك بآدميته أو مثل بروميثيوس كما صوره جوته عندما غضب عليه زيوس والهة جبل الأوليمب وطردوه من مملكتهم الكاذبة إلى أرض الإنسان عقابا له..

كنت فى حاجة ماسة لأن أحس أننى لست وحدى، وأن هناك مثلى ممن طرحوا الكثير من الشعارات الفارغة المضمون جانبا والتزموا بالدفاع عن الإنسان بعيدا عن رائحة النفط القاتلة وصراخ المقولات التقليدية الجامدة التى انتفت عنها الواقعية والقدوة..

ولذلك وعندما التقى فى برلين ممثلون لحوالى ١١٦ حزبا شيوعيا واشتراكيا ووطنيا لمدة يومين لمناقشة النضال المشترك لحركة الطبقة العاملة وحركات التحرر القومى الوطنى ضد الامبريالية ومن أجل التقدم الاجتماعى حرصت على الحضور ومتابعة المؤتمر والالتقاء بالممثلين البارزين العرب لأكثر من ١٦ حزبا وتنظيما بينهم عدد لا بأس به من رؤساء هذه الأحزاب..

كنت عن عمد ومع سابق إصرار افتش عن الفكر الجديد فى المؤتمر وخاصة بين ممثلى الأحزاب الشيوعية والعقائدية العربية وابحث عن إرهاصات للتغير كانت قد بدأت فى مؤتمر سابق وفى برلين أيضا سنة ١٩٧٦ وعن جديد أراه وأحسه وأعيشه وأتمنى أن أسمع التبشير به.. وخاب ظنى.. واستمعت مرة أخرى إلى موشحات تقليدية لاتشغل بالها سوى بتسجيل مواقف والتأكيد على مقولات نظرية عامة استنفد الكثير منها اغراضه فى عالم زاخر بالحركة والتغيرات غير المسبوقة..

كان منهج موريس بوناماريوف، نجم المؤتمر هو المنهج السائد..

ترديد مقولات عن الاشتراكية وحركة التحرر ربما كانت تصلح فى الخمسينات أو الستينات، ولكنها بالتأكيد لايمكن أن تنطبق على واقع السبعينات وأوائل الثمانينات...

جرى حديث عن الرأسمالية العالمية المحتضرة، وبالقطع لم تكن الرأسمالية تحتضر بل كانت تبتكر أشكالا وأساليب جديدة للاستغلال المكثف يفوق كل أشكالها السابقة وتزودها بدماء جديدة ليس فقط لتعيش بل ولتزدهر.. وجرى حديث عن انتصارات حركات التحرر العالمى واتساع رقعة الأراضى المستقلة والمحررة فى دول آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية.. فى حين كان من الواضح أن الاستقلال الصعب الذى فرضته كثير من شعوب العالم الثالث وبثمن هائل من التضحيات والآلام، يتحول أكثر وأكثر إلى استقلال شكلى بعد أن حوصرت الطموحات السابقة فى بناء مجتمعات وطنية ديموقراطية، ولاتزال السلطة فى غالبية تلك البلدان تنحصر

فى نخبة من العسكريين والتكنوقراطيين فرضوا أشكالا دكتاتورية فى الحكم واحكمت عزل الجماهير مما وفر لقوى الاستعمار والاستغلال العالمى فرصة أخرى لإحكام سيطرتها الاقتصادية والثقافية فى أشكال جديدة مستحدثة.. وأحيانا ماكانت هذه الأنظمة تنتشر تحت شعارات تقدمية أو حتى اشتراكية مما ألحق اضرارا بالغة بالفكر التقدمى الاشتراكى..

لم يحاول أحد أن ينبه إلى أهمية الديموقراطية ومخاطر الديون وتراجع الزراعة وأشكال وأنماط التنمية المشوهة واللحاق بثورة التكنولوجيا والاتصال، وأصبحت المؤامرات الامبريالية والرجعية هى وحدها المسئولة عن كل المويبقات وتاهت بل وضاعت صيحات التحذير التى أطلقتها بعض الأحزاب الشيوعية والاشتراكية مثل الحزب الشيوعى الايطالى عن خطورة الأوضاع فى أفغانستان وبولندا وفى كثير من دول العالم الثالث..

أما غالبية الأحزاب العربية التى حضرت المؤتمر، فقد كان بعضها مشغولا بجمع كل المحسنات البديعية التى عرفتها اللغة العربية فى مدح النظام الذى يمثله والقائد المناضل البارز الذى يقوده.

وبعضها الآخر يؤكد أنه يقود نضال الشعب العربى فى جبهة قوية تقودها الطبقة العاملة العربية ثم لاينس فى النهاية أن يردد بعض الهتافات التقليدية المعروفة..!

وكتبت يومها فى جريدة السفير عرضا وتقييما للمؤتمر نشر على صفحة كاملة..

وبعد يومين فوجئت بتعليق للصديق ميشيل كامل فى الجريدة يتهمنى فيه بأننى تجنيت على المؤتمر وشوهت بعض الحقائق مشيرا بشكل مستتر كما لو أن لى مصلحة خاصة فى ذلك.. وقد وقع على هذه الكلمات باسمه مقرونا بأنه «عضو المكتب السياسى للحزب الشيوعى المصرى» وابتسمت ابتسامة لاتخلو من مرارة واسى وأنا أقرأ كلمات ميشيل، متى كانت عضوية المكتب السياسى وظيفة تكتب على كارت.. ماأسهلها من وظيفة مضمونة.. بعيدا عن شعبك وبلدك.. كان ميشيل أحد الأصدقاء الذين اعتز بهم رغم اختلافنا فى كثير من الآراء والأفكار.. فلقد كنت أقدر فيه اتساقه ووضوحه مع نفسه وفهمه لقدراته وإمكاناته دون إدعاء أو استعلاء كما كان يشدنى إليه أخلاقياته النبيلة واستعداده الدائم لمشاركة الآخرين فى آلامهم حتى ولو بالكلمة..

ولقد سمعت عن ميشيل فى أواسط الخمسينات وأنا بعد طالب فى الجامعة باعتباره واحدا من رواد الفكر الاشتراكى وأنه قدم مساعدات كثيرة من الناحية المادية للحركة الاشتراكية المصرية باعتباره من أسرة غنية..

ولذلك عندما عرفت أنه أعلن استقالته من الحزب الشيوعى سنة ١٩٥٩ عندما بدأت حملة الاعتقالات المكثفة على الشيوعيين والاشتراكيين والديموقراطيين فى تلك الفترة، لم أهاجمه مثلما هاجمه الآخرون ولم اتهمه بأنه حاول أن ينجو بنفسه من الاعتقال.. بل احترمت فيه اعترافه بأنه غير قادر على مواجهة تلك الظروف الصعبة..

وعندما خرجت من المعتقل سنة ١٩٦٤ بعد اكثر من خمس سنوات من الاعتقال كان ميشيل كامل من أوائل الذين التقيت بهم، وكان يعمل فى ذلك الوقت سكرتيرا لمجلة الطليعة.. كان متحمسا للنظام فى تلك الفترة، ويلتقى بالرفاق فى منزله لإقناعهم بضرورة حل الحزب والالتحاق بالتنظيم الطليعى الذى كان يشكله النظام سرا.. وبالرغم من إننى قلت له بوضوح فى ذلك الوقت اننى قررت وبشكل قاطع عدم الانضمام إلى أية منظمات سرية بعد ذلك سواء مع السلطة أو ضدها وأننى سأعتمد على قدراتى ككاتب فى الدفاع عن الاشتراكية كما فهمتها وأفهمها إلا أن ذلك لم يفسد للود قضية بيننا.. واتصلت علاقتنا بل وتعمقت وتعاونا مع مجموعة من الكتاب الآخرين فى إصدار مجلة الطليعة التى لعبت دورا لاشك فيه فى تعميق الفكر الاشتراكى المصرى والعربى وتجديده نظريا وعمليا حتى أغلقها السادات فى منتصف السبعينات..

بل إن ميشيل قدم لى مساعدة مالية فى ظروف حرجة ساعدتنى على اتمام زواجى فى أواخر الستينات ومازلت حتى اليوم مدينا له بمبلغ ١٥٠ جنيها..

وذهبت أنا وهو فى رحلة مشتركة إلى بلغاريا ويوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا لمدة تزيد على ثلاثة أسابيع كانت من امتع الرحلات فى حياتى، فقد كان نعم الصديق فى السفر، وخضنا خلالها الكثير من الأحداث والمغامرات التى لاتنسى من بينها إننا وبعد سهرة طويلة فى احد محلات براغ القديمة، كنا من أول الذين شاهدوا الدبابات السوفيتية فى فجر ٢١ أغسطس سنة ١٩٦٨.. عندما قرر حلف وارسو التدخل لانهاء ربيع براغ..

وعندما فصلتنا لجنة النظام فى الاتحاد الاشتراكى فى فبراير سنة ١٩٧٣ مع ٣٦ كاتبا وصحفيا فى أول دفعة أعلنت تحت دعوى أننا من الذين يعملون على إثارة وتهييج القاعدة الطلابية السلمية والتى كانت تنظم سلسلة من الاضرابات والاحتجاجات لتقاعس النظام عن العمل من أجل تحرير الأرض المحتلة، جاء أسمه تاليا لاسمى فى قائمة الشرف التى نشرت فى جميع الجرائد اليومية وفى صفحاتها الأولى.. أعنى قائمة الفصل..

وعندما قرر مثل الكثير من الزملاء الذين تعرضوا للفصل أو للنقل إلى مؤسسات أخرى السفر إلى البلاد العربية للعمل هناك، كنت أودعه فى شقته فى الزمالك حتى الصباح، وقد خصنى بأن طلب منى مراعاة بعض أموره الخاصة وكشف لى بوضوح أنه قرر ألا يعود إلى مصر. وبعد ذلك بخمس سنوات، وبعد عملى فى برلين فلقد كنت أعتقد أننا مازلنا أصدقاء رغم أننا اختلفنا فى النهج ومنذ زمن بعيد، فهو قد أصبح عضوا قياديا نشطا فى الخارج عن الحزب الشيوعى الذى تشكل فى أواسط السبعينات..

وأنا ابتعدت عن أية منظمات سرية منذ أواسط الستينات داخل مصر وخارجها مقتنعا بأننى استطيع من خلال قلمى أن أدافع عن الاشتراكية كما أمنت بها وفهمتها..

ولكل هذا كانت مفاجأة لى حقا.. هذا الهجوم الجارح وغير المبرر من ميشيل لمجرد أننى عرضت رأيا يختلف معه فى تقييم هذا المؤتمر الذى لم يحضره هو شخصيا..

وجلست ليلة كاملة فى حيرة، أكتب ردا جارحا على نفس المستوى ساردا بعض الحقائق المريرة ومشيرا فى النهاية إلى أن النضال الحقيقى فى مصر وليس فى الخارج، وان عضوية المكتب السياسى لايصح أن تكتب كما لو كانت على كارت فى الخارج، مثلما يكتب البعض مثلا مدير عام أو قائم بأعمال..

ثم أعود فأمزق كل ماكتبته.. مدركا أن هناك فارقا كبيرا بين أن تختلف مع صديق وبين أن تشتمه أو تجرحه حتى ولو كان ذلك من خلال الحقيقة.. ومشفقا فى نفس الوقت على الدخول فى قضية فرعية وتبادل الاتهامات القاسية، ذلك النهج الذى ساد بين القوى الوطنية العربية وكان يثير حفيظتى وسخطى الشديد..

فما أسهل عندنا أن يكون بطل الأمس خائن اليوم، وعميل الغد مناضلا فيما بعد الغد.. لأننا فيما يبدو لسنا مؤهلين بعد لأن نفهم أهمية الحوار وقررت ألا أرد وأنسى الموضوع كله فأكتفيت بكلمات يوليوس قيصر الخالدة.. حتى أنت يا..

على أن تلك السحابة العابرة رغم مافيها من مرارة، سرعان ماتبدت واستعادت الحياة نبضها الممتلئ بالأمل وقوة الدفع، املأ قلبى وعينى بكل ماهو جوهرى وأصيل فى المجتمع الذى أعيشه بمزيد من الثقة، وقليل من التردد والحيرة. ووجدت أنه قد آن الاوان لأن أصحب الأولاد فى إجازة فى ربوع المانيا وخاصة أنهما لم يستطيعا طوال العامين الماضيين زيارة القاهرة نظرا لضيق ذات اليد من ناحية ولحالة انعدام الوزن التى كابدتها طوال تلك الفترة..

وذهبنا نجوب المانيا الديموقراطية بالعربة من درسدن جنوبا حتى ايرفورت وأيسناخ غربا وحتى بحر البلطيق شمالا ثم روستك وفارمندا الساحره..

ونظرا لأنه كان موسم الإجازات فقد كان من الصعب أحيانا أن نعثر على غرفة فى فندق ولكن ذلك لم يشكل لنا أية عقبة فلقد كنا ننام فى العربة وأحيانا نفرش البطاطين فى الغابة أو على شط البحر..

عشرة أيام تسلقنا فيها جبال الهارتز العالمية وتجولنا فى منطقة ثورنج الجميلة سويسرا المانيا ودفعنى الأولاد ولأول مرة فى حياتى لأن أشاركهم رياضة الزحلقة على الجليد فى مرتفعات أو برهوف الرائعة ودفعانى فى زحافة صغيرة انقلبت بى أكثر من مرة، وهما يضحكان من الأعماق وأقوم من كل دفعة أنفض الثلج عن ثيابى وأنا أسب وألعن ثم سرعان ما استغرق معهما فى الضحك.. ومن الأعماق..

ياه.. كم هى عزيزة وجميلة تلك الضحكات التى كنت قد نسيتها.. وفهمت ساعتها المغزى الحقيقى لكلمات شاعر فرنسا العظيم لويس أراجون..

ما أجمل الضحكة حتى ولو كانت على وجه مشوه..

ثم انتقلنا إلى جزيرة روبين، أكبر جزيرة فى بحر البلطيق نستكشفها وسط طبيعة خلابة آسره وطول الطريق وفى حضن الغابات الكثيفة، وعلى قمة المرتفعات الجبلية، وعلى شاطئ البحر الممتد تنطلق أغانى عبد الحليم حافظ وأم كلثوم وشادية من كاسنيت العربة ونحن نرددها وبصوت عال..

بل إننا صباح يوم من أيام الإجازة فى أعماق الجزيرة الألمانية الغارقة فى حضن البلطيق تذكرنا فجأة أن ذلك أول أيام عيد الأضحى.. وارتديت أنا والأولاد الجلاليب البيض التى كانت معنا وعيون الألمان تتابعنا فى دهشة وابتسامة، ونحن سعداء على قدرتنا بالاحتفال بالعيد فى تلك المنطقة النائية التى ربما لم يرتدها عربى وربما أجنبى من قبل..

واقترح أبنى الأكبر عمرو بألا نتكلم اليوم إلا باللغة العربية مهما كان الأمر، حتى أننا فى المطعم طلبنا سمكا.. ولما لم يفهم الجرسون بالطبع، أخذ عمرو يشرح له بحركات اليد والعين والوجه ماذا نريد حتى صاح الجرسون الألمانى فى النهاية..

* اه فهمت... فش... فوريللا... ثم استدار وهو يقول ساخطا

* عربى من أثرياء البترول.. ترك الجمل فى الصحراء وجاء يأكل سمك فى البلطيق..

والأولاد فى غاية السعادة لهذه الإجازة التى طال انتظارها، وأنا استمد من سعادتهم وضحكاتهم البريئة إحساسا بالدفء، ومشاعر هادئة ناعمة تسرى فى جسدى وكأنها حمام داخلى يغسل كل ادران الغربة ويمحو تعرجات الآلام التى عانيتها..

أيام عشرة كان كل يوم يقدم تعويضا إنسانيا غاليا عن كل المعاناة السابقة، اندمجنا فيها مع الطبيعة حتى أصبحنا جزءا منها.

وأحسست فيها بل وأمسكت فى يدى المغزى الحقيقى لحب الحياة..

وأدركت أيضا الخطأ أو الخطيئة التى يقع فيها الإنسان حين يترك نفسه محاصرا فى دائرة صغيرة من الهموم والمشاكل دون أن يقفز خارجها وتذكرت كلمات كازانتراكس الرائعة فى الأخوة الأعداء...

أيها الإنسان البائس، تستطيع أن ترفع الجبال وأن تصنع المعجزات، ولكنك تمرغ نفسك فى الخمول.. الله فى داخلك تحمله دون أن تدرك.. قم واقفز من فوق سور الحظيرة..

وقد كانت كل تلك الأيام العشرة.. محاولة جيدة من الحملان للقفز من فوق سور الحظيرة.

-١٧-

ابق مكانك رغم كل شئ؛ دع السهام الفولاذية
تخترق جسدك والأفكار تغمرك..
ولكن انتظر واقفا كالأشجار
فلابد وأن تغمرك الشمس فجأة وبلا حدود.
فرانزكافكا-الكراسات

أكتوبر سنة ١٩٨٠

فى أواسط الخمسينات، والشارب لم يخضر بعد، والطريق لم تتحدد معالمه وإرهاصات الطموح الإنسانى والذاتى تتداخل وتتصارع أحيانا لتحدد المسار لطالب جاء من أعماق الريف ليدرس الأدب والحضارة والفلسفة فى قسم اللغة الانجليزية بكلية الأداب ويلتقى الأستاذ.. والطالب وكأنما كانا على موعد..

كنت واحدا من هؤلاء الذين اختارهم الدكتور لويس عوض ليشربوا الشاى فى منزله عصر يوم الخميس من كل أسبوع.. وأجلس مع مجموعة محدودة من الطلبة والطالبات التى وقع عليهم الاختيار فى منزله فى القصر العينى.. لاستمع إلى أحاديثه الحلوة الفنية خارج مدرجات القسم، مأخوذا مستوعبا وأحيانا فى قلق ودهشة..

كان لويس عوض يتحدث عن الموسيقى والمسرح والباليه والأوبرا والفلسفة والتاريخ والرواية والكونشرتو والفن التشكيلى كما لو كان يتحدث عن موضوع واحد.. كان ينتقل من حديثه عن مسرح الكوميدى فرانسيز ومسرحيات راسين وموليير وسارتر إلى قاعة الأوبرا فى فيينا أو لندن وأوبرا حلاق اشبيليه وكارمن إلى المسرح الانجليزى الحديث والغاضبون من أسبورن وجون آردن إلى بريخت ومسرحه التعليمى الجديد إلى فرقة البولشوى وإبداعاتها فى الباليه إلى موسيقى تشايكوفسكى وخاتشود ريان وفاجنر إلى اتجاهات الرسم التشكيلى الحديث عند سلفادور دالى وبيكاسو إلى وقفة جاليليو جاليلى أمام محاكم التفتيش الرهيبة التى طلبت منه أن يتخلى عن اكتشافاته العلمية ثم وهو يصرخ فى النهاية وآلات التعذيب الرهيبة تكسر عظامه «.. أقسم أن الأرض تدور.. أقسم أن الأرض تدور.. أقسم أن الأرض تدور..»

وكان الأستاذ الدكتور يضع يدنا بشكل عملى على وحدة الإبداع والخلق والابتكار.. كانت

الأوبرا والباليه أو الفن التشكيلي حتى الكونشرتو بالنسبة لي طلاسم لا أعرفها وحينما ادخرت مرة مبلغ خمسين قرشا لأحصل على تذكرة في الأوبرا المصرية القديمة والتاريخية لاشاهد فرقة إيطالية زائره تعرض أوبرا كارمن خرجت ليلتها وأنا ألعن سذاجتي التي دفعتني لأن أضيع هذا المبلغ الكبير على عمل لم أستطع أن أفهمه أو أستوعبه..

وأذكر أنني كنت يوما عند الدكتور لويس عوض في منزله وحدنا، أحدثه بانفعال زائد في ذلك الوقت عن مشكلة الفقر والتفاوت الطبقي والاجتماعي الشديد مركزا على أحوال القرية والفلاح المصري البائس..

واستمع الدكتور إلى انفعالاتي حتى النهاية ثم نصحني أن أذهب إلى دار الأوبرا لاستمع إلى فرقة فيلاها موني لندن وهي تعزف الليلة بعض مقطوعات هاندل وباخ وبتهوفن وحينما لمح على وجهي اعصار التمرد والامتعاض والاحتجاج، صرخ في وجهي قائلا..

* اذهب وتعلم كيف تسبح بأفكارك وأحاسيسك لتصل إلى أعماق الأمور.. لابد أن تكون أحاسيسك مثقفة متحضرة متعمقة هذا إذا كنت تريد أن تكون مؤثرا ونافعا .

وقد تكرر نفس الشئ مع استاذي الدكتور محمد مندور الذي كنت أيضا ضمن مجموعة ممن يجتمعون إليه في منزله في المنيل وقد أثارنا واستثارنا في ذلك الوقت بأفكاره الجريئة وثقافته الغزيرة وبساطته الشرقاوية..

ولقد اجبرني ليلة على أن أظل صامتا في غرفة مكتبه لمدة تزيد على الساعة، وأنا الذي كنت قد جئت إليه في أمر عاجل، لأنه كان يستمع إلى السيمفونية التاسعة لبتهوفن وقال لي ليلتها وقد أحس بأنني كنت طوال الوقت في ضيق وضجر..

* اسمع يابني.. إذا لم تستطع أن تستوعب جميع الأشكال الفنية الجادة وتتفهمها فأنا أنصحك بالابتعاد عن مجال الإبداع والابتكار.

وقد كان عليّ أن انتظر فترة أخرى من النضج الذهني والروحي لأدرك أهمية هذا الترابط والتوحد الفني بين كل أشكال الإبداع في مجال الفن والثقافة.. والعلوم..

ولاستوعب القيمة الحقيقية لهذين العملاقين لويس ومندور اللذين يملكان ثقافة موسوعية واسعة افتقدها وابتعد عنها الكثيرون من جيلنا ولادرك أن كل عمليات الإبداع البشري متكاملة ومترابطة ومتصلة تنبع من عمق إنساني واحد تتلاقى فيه حب الحياة مع إحساس عميق مركز بها ثم محاولة تطويرها وتطويعها في خدمة الإنسان.. سيد هذا الكون..

وادركت أيامها أن هناك ارتباطا عضويا بين الفن والعلم.. تتساوى قيمة اللوحة الجميلة والسيمفونية الشجية والرواية الممتعة مع قيمة اكتشاف كروية الأرض ونظريات الجاذبية والنسبية..

ولقد بلور كثير من العلماء والمفكرين الموسوعيين ذلك في إبداعاتهم على مر التاريخ

الحضارى.. ابن سينا وابن رشد والفارابى.. الذين جمعوا بين الفلسفة والحكمة والطب والكيمياء والأدب والموسيقى..

وجوته وبرتراند رسل ونيوتين وانيشتاين وادركت مخاطر القصور والإحباط الذاتى التى تصيب جمهرة من المثقفين المصريين والعرب الذين عجزوا عن ممارسة واستيعاب أعلى مراحل الإبداع الإنسانى، فعاشوا مثل حكامهم فى أفق ضيق محدود غير قادرين على الانطلاق والتحليق والإبداع والابتكار..

تذكرت كل هذا وأنا أغرق نفسى فى مسارح برلين لأعوض جوعا حضاريا للاستزادة من هذه الأشكال..

وأذكر أننى وفى بداية عملى فى برلين وضعت قائمة كاملة بكل الأعمال المسرحية الكلاسيكية والأوبرات والاوبريتات والباليه والسيمفونيات لاشاهدها واقتنى تسجيلات لها..

وقد ساعدنى على ذلك ازدهار النشاط الثقافى وتوافره فى المدينة التى يوجد فيها أكثر من ١٨ مسرحا وأوبرا تقدم كل الأشكال الفنية الكلاسيكية والمعاصرة، كما أن برلين بقسميها الشرقى والغربى تشهد إحتفالات ومهرجانات فنية سنوية، منها مهرجان برلين المسرحى الذى يقام فى سبتمبر من كل عام وتحضره أكثر من ٣٠ فرقة مسرحية فنية عالمية..

ثم (المهرجان الموسيقى الدولى) الذى يقام فى درسدن فى مايو وتشهده فرق عالمية مرموقة فى الموسيقى والباليه والأوبرا من بينها فريق البلشوى، فريق الفيلا هارمونى فى لندن وفيينا ومهرجان الأغنية الذى يقام فى فبراير ومهرجان الأفلام التسجيلية الذى يقام فى ليبزج فى نوفمبر، ومهرجان الأفلام الروائية الذى يقام فى يناير..

بالاضافة إلى عشرات صالات العرض للفن التشكيلى التى تنظم عروضا دولية لفنانين كلاسيكيين ومعاصرين من جميع أنحاء العالم..

كنت أحيانا أحس وسط هذا النشاط الفنى الثقافى المتنوع، أننى مثل أرنب برى صحراوى جائع، وجد نفسه فجأة وسط مساحات لانهائية من المروج الخضراء...

وقد كنت عائدا ذات ليلة بعد مشاهدة أوبرا عايدة.. على مسرح الكوميش أوبر فى برلين .. وأحكى لولدىَّ اللذين كانا معى بنبره تشى بالفخر والاعتزاز عن حقيقة أن فردى قد كتب هذه الأوبرا العظيمة التى تتناول التاريخ المصرى القديم خصيصا لافتتاح مبنى الأوبرا فى أثناء فى ستينات القرن الماضى والتى كانت تعد فى ذلك الوقت رابع أو خامس دار أوبرا فى العالم كله وأول دار من نوعها فى آسيا وأفريقيا..

ورن جرس التليفون قرب منتصف الليل

* أنت مش جاى باريس واللا أية.. المؤتمر بعد بكرة

* جاى فين .. ومؤتمر أيه ؟

* مؤتمر الصحفيين المصريين فى الخارج...
الدعوة والتذكرة أرسلا لك من فترة.. أرجوك اتصل بـ .. هتلاقى كل حاجة هناك..
لازم تأتى إلى باريس غدا.. فى انتظارك.. كل الزملاء موجودين..
كان المتحدث صديق صحفى قديم يعمل فى إحدى الدول العربية..

وكانت فكرة عقد مؤتمر للصحفيين المصريين فى الخارج قد طرحت منذ فترة، طرحها نفس الزملاء الذين كانوا قد تحمسوا لفكرة تشكيل اتحاد للكتاب المصريين فى الخارج.. ولكن هذه الفكرة ووجهت بتحفظات من جانب عدد من الزملاء وخاصة وان نقابة الصحفيين المصريين فى القاهرة كانت نشطة كعادتها كما كانت مواقفها الوطنية والمهنية البارزة لاتترك فرصة لأحد بأن يزايد عليها..

كان النقيب فى ذلك الوقت هو الأستاذ كامل زهيرى كما كان مجلس النقابة يضم عددا من الزملاء المرموقين والمشهود لهم بالتفانى فى خدمة قضية الصحافة وحرية الصحفيين من بينهم عبد العزيز عبد الله وأمينة شفيق ومحمود المراغى وصلاح الدين حافظ.

وقد كان أمرا غير مفهوم بالطبع نقل مقر اتحاد الصحفيين العرب من القاهرة.. ضمن هوجة قرارات مؤتمر بغداد التى أعقبت اتفاقية كامب ديفيد والتى احكمت الحصار فى واقع الأمر على المنظمات الجماهيرية المصرية وحاولت عزلها. كما كانت مسألة تثير أكثر من التساؤل البرئ بأن تعزل القيادات المصرية فى اتحاد الصحفيين العرب بعد نقله إلى بغداد ويستبعد كامل زهيرى رئيس الاتحاد وصلاح حافظ سكرتيره وعبد العزيزعبد الله أمين الصندوق رغم المواقف المشرفة لهولاء ليس فقط فى مواجهة كامب ديفيد بل وفى الدفاع الأمين عن حرية الصحافة والصحفيين.. ولذلك لم تجد الفكرة فى بدايتها حماسا يذكر إلا من قلة محدودة..

وقد كنت أحسب أنها اسقطت تماما، إلى أن جاءنى هذا التليفون الغريب والمفاجئ من باريس..

وفى الصباح وصلتنى الدعوة الرسمية من اتحاد الصحفيين العرب لحضور المؤتمر للتضامن مع الصحفيين المصريين من ٢٠ إلى ٢٢ أغسطس سنة ١٩٨٠ فى فندق الهيلتون فى باريس ومع الدعوة تذكرة السفر وتأكيدا بأن نفقات الإقامة والاستضافة فى الفندق مدفوعة من اتحاد الصحفيين العرب..

المسألة تستحق.. إقامة مجانية فى هيلتون باريس لعدة أيام وأنا الذى لم أجرؤ فى كل زياراتى لباريس الاقتراب حتى من فنادق الدرجة الثالثة أو بنسيونات الحى اللاتينى لأنها كانت تعتبر إرهاقا لميزانيتى المحدودة وكنت أنزل ضيفا على بعض الزملاء أو الأصدقاء فى بيوتهم..

وطوال اليوم لم يكف جرس التليفون عن الرنين..

والمتحدث دائما صديق أو زميل من باريس من الذين تجمعوا فى الهيلتون وكلهم يحثوننى على الإسراع بالحضور قبل افتتاح المؤتمر.. غدا..

وقد قررت فعلا المساهمة فى هذا المؤتمر.. ولكن بشكل آخر..

وطلبت جريدة السفير فى بيروت وأمليتهم رسالة مفتوحة إلى رئيس اتحاد الصحفيين العرب حول مؤتمر الصحفيين فى باريس..

كانت الرسالة تحمل فى البداية اعتذارا مهذبا عن الحضور.. ثم تبدى بعد ذلك حيثيات هذا الاعتذار على النحو التالى..

● إنه رغم ان اتحاد الصحفيين العرب قد تكبد عبء دعوة الصحفيين المصريين من خارج مصر الذين يقدر عددهم بحوالى ٢٥٠ صحفيا الا أنه لم يوجه مع الدعوة جدولا للأعمال أو قضايا محورية مطروحة للمناقشة مما جعل هدف المؤتمر يكتنفه غموض شديد.

● اننا اذا اخذنا بقانون الاحتمالات لتفسير الدعوة لهذا المؤتمر فسنجد امامنا..

الاحتمال الأول : وهو مناقشة ظروف الصحافة والصحفيين فى مصر.. وهذا الاحتمال إذا صح هو من حق نقابة الصحفيين المصريين فى القاهرة باعتبارها المؤسسة الشرعية الوحيدة والمنتخبة انتخابا حرا من مجمل الصحفيين المصريين (حوالى ١٨٠٠ صحفى).

والنقابة المصرية لها تاريخها المشرف فى الدفاع عن حقوق الصحفيين ليس فى مصر وحدها بل وفى العالم العربى..

وهنا نجد أنفسنا أمام موقف غريب وليس له تفسير منطقى من جانب اتحاد الصحفيين العرب الذى قام بتجميد عضوية النقابة المصرية بعد انتقاله إلى بغداد وقام بتنحية القيادة الشرعية المنتخبة للاتحاد العربى، هذا علما بأن مجلس نقابة الصحفيين المصريين أعلن ومن البداية معارضته لكامب ديفيد كما واصل ويواصل الدفاع عن حقوق الصحفيين وحرية الصحافة فى بيانات علنية أخرها البيان الخاص بقانون العيب وقوانين تنظيم الصحافة..

بل إن نقابة الصحفيين المصريين تكاد تكون النقابة الوحيدة من نوعها فى العالم العربى التى تعارض علنا السياسة المعلنة لحكومتها (هذا مع الاعتذار للنقابات الأخرى).

وإذا كان الأمر كذلك، وهو كذلك بالفعل، تصبح هذه الدعوة الموجهة من اتحاد الصحفيين العرب، دعوة ممن لايملك شيئا حول قضية لاتستحق.

أما الاحتمال الثانى فهو ان مؤتمر باريس يهدف إلى مناقشة ظروف ووضع الصحفيين المصريين فى الخارج فى محاولة لتأمين أحوالهم المهنية وحماية حقوقهم فى المؤسسات التى يعملون فيها فى الخارج.. ومع أنه من الواضح أن هذا ليس الهدف أو الغرض ومع ذلك فالصحفيون المصريون فى الخارج جزء لايتجزأ من جموع الصحفيين فى الداخل وعلاقتهم باتحاد الصحفيين العرب تأتى من خلال عضويتهم فى نقابتهم الأصلية، وبالتالى فنقابة

الصحفيين المصريين هى صاحبة الحق الأول والأخير فى الدعوة لهذا المؤتمر ولايمكن تفسير هذا التجاوز من جانب الاتحاد العربى إلا محاولة لإنعاش افكار حوصرت من قبل فى إمكانية خلق بديل فى الخارج للنقابة المصرية (مثل المحاولات التى جرت سابقا لتشكيل اتحاد للكتاب المصريين فى الخارج).

وفى كل الأحوال فهو أمر مرفوض واتجاه خطر ومدمر يهدف إلى خلق أشكال صورية معزولة عن الجذور الأصلية لخدمة أغراض ذاتية بعيدا عن الروح القومية والوطنية.

أما الاحتمال الثالث وهو إذا صدق فسيكون مدعاة للسخرية المريرة أى أن يكون مؤتمر باريس يهدف مناقشة حرية الصحافة والصحفيين فى العالم العربى كله.. واصدقكم القول أنه لو كان هذا هو الهدف لكنت أول الحاضرين لهذا المؤتمر.. ولهذا فأنتم لم تتركوا فرصة لمثل هذا التفسير وحصرتم القضية كلها فى الصحافة فى مصر لأن الكثير من النقابات الصحفية العربية لاترغب بالقطع فى مناقشة حرية الصحافة والصحفيين فى بلادهم..

فكلنا يعلم، كما يعلم اتحاد الصحفيين العرب يقينا، أن هناك على طول البلاد العربية وعرضها العديد من الصحفيين العرب الذين يقبعون وراء أسوار السجون والمعتقلات وقد كان سعيدا من استطاع أن يهرب منهم بجلده لمجرد أنهم يحملون أفكارا متعارضة مع نظام هذا البلد أو ذاك..

ولماذا ياسيدى اختيرت الصحافة المصرية وحدها للحديث عن حرية الصحافة فى العالم العربى، ومع ذلك فدعنى أقول لك بصراحة إنه من حسن حظنا نحن الصحفيون المصريون أنه لدينا نقابة عظيمة تدافع بلا هوادة عن شرف المهنة، وان الغالبية العظمى للزملاء الصحفيين العرب يعرفون ذلك ويقدرونه ويغبطون عليه ويتمنون أن يتحقق ذلك فى بلادهم..

ولذلك.. فاسمح لى مع اعتذارى عن الحضور أن أؤكد لكم أنى لست على استعداد للمشاركة فى هذا الأمر..

وسأكون أول من يلبى دعوتكم اذا قررتم عقد مؤتمر آخر لمناقشة حرية الصحافة فى العالم العربى..

مع كل الإعزاز والتقدير..

برلين فى ١٩٩٨/٨/٢١

ونشرت الرسالة فى اليوم التالى مع صورة افتتاح المؤتمر فى هيلتون باريس والذى حضره رئيس اتحاد الصحفيين العرب وسكرتيره العام وعدد آخر محدود من الاتحادات الصحفية العربية..

كما حضره عدد قليل من الصحفيين المصريين فى الخارج لايتعدى عددهم العشرين..

كانت الرسالة أشبه بحجر ضخم ألقى فى وادى السكون المفروض..
وتردد صداها بدرجة لم تكن فى حساباتى على الإطلاق..
وطوال شهر كامل نشرت جريدة السفير ردودا متلاحقة على الرسالة حتى إنها خصصت صفحة كاملة لهذا الموضوع، تعتبر وبكل المعايير أضخم معركة صحفية ثارت حول قضية معينة بين الصحفيين والكتاب انفسهم وحول قضية الصحافة نفسها..
بدأت المعركة برد منفعل وغاضب من الزميل حنا مقبل سكرتير اتحاد الصحفيين العرب يهاجمنى لأنتى لم أحضر وحاولت أن أشوه صورة المؤتمر.
وجاء الرد عليه من الزميل صالح قلاب عضو اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين الذى أكد وجهة نظرى ثم فجر قضية ما أسماه بمحاولات وضع اليد على مكانة مصر عربيا ودوليا.. وانتهى إلى القول بأن مؤتمر باريس الذى عقد تحت شعار التضامن مع الصحفيين المصريين قد كشف عن مدى محاولات فرض الوصاية على الشعب المصرى وهيئاته، ومدى محاولات استغلال مايواجه هذا الشعب للتطبيل والتزمير لهذا النظام أو ذاك.
ومن العجيب أن أكثر الذين ملأوا الدنيا صراخا لمقولة أن كامب ديفيد على الصعيد الاستراتيجى يستهدف موقع مصر فى الكيان العربى.. هم الذين رفعوا لواء احتلال موقع مصر القومى، وهم الذين يواصلون السعى مستخدمين أموالهم ونفوذهم لمصادرة مكانة القاهرة على كل صعيد.
وحاول الزميل حسن الكاشف فى مقال طويل على مدى صفحة كاملة أن يدافع عن اتحاد الصحفيين العرب باعتباره عضوا فى أمانته العامة ويبرر الأسباب التى أدت إلى عقد مؤتمر باريس ويعلن نوعا من الشفقة بالنقابة المصرية ويفسر غيابها بأن (النقابة المصرية والنقيب زهيرى تحديدا لايستطيعان المشاركة فى الاتحاد ولايستطيعان تحمل النتائج المترتبة على هذه المشاركة لأن المشاركة تعنى فتح النار علنا على سياسة الحكم وهذا كما هو واضح غير ممكن لا بالنسبة لكامل زهيرى ولا لنقابة الصحفيين المصريين ولا للكثيرين من أبناء مصر..)
ويبرر الكاتب رأيه بأنه كان من المحتم بعد زيارة السادات للقدس أن تنتقل المنظمات النقابية والشعبية من القاهرة.
ورد عليه الزميل مصطفى الحسينى الذى كان يعمل فى السفير فى ذلك الوقت بمقال تحت عنوان «بديهيات غير بديهية».
يقول فيها بأن مصدر جدارة القاهرة إن تكون مقر اتحاد الصحفيين العرب وللمنظمات الشعبية العربية ليس فقط لأنها كانت عاصمة عبد الناصر، وإنما مصدر الجدارة الحقيقى هو وزن مصر – البلد والشعب والتراث القومى والوطنى والديموقراطى وهو مالايستطيع السادات أن يغيره، كما لايستطيع تغييره أولئك الذين يتمنون سرا لو استطاع السادات أن يفعل ذلك..

كما أن الجدارة فى الشأن النقابى الصحفى فى مصر تستمد أيضا من التقاليد النقابية العريقة التى يثبت يوميا أنها فى مصر ونقابتها مازالت بخير وعافية.

ثم كتب ميشيل النمرى عضو اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين تحت عنوان «اتحاد الصحفيين العرب وقضيه الديموقراطية» قائلا

«فى رد اتحاد الصحفيين العرب على وجهة نظر الزميل فتحى عبد الفتاح بشأن مؤتمر التضامن مع الصحفيين المصريين قال الأمين العام للاتحاد حنا مقبل «واتحادنا أى اتحاد الصحفيين العرب يحاول أن يكون طليعيا فى هذا الميدان يقصد ميدان الحريات الديموقراطية «ويؤكد بحسم» أن مواقف الاتحاد واضحة ومعلنة ومعروفة..

ويتصدى النمرى لهذه المقولة ليفندها فى صفحة كاملة وليسجل عددا كبيرا من التجاوزات والملاحقات للصحفيين والكتاب العرب.. ويتساءل عن دور الاتحاد وصوته الذى لم يسمعه أحد..

بل يذهب إلى توجيه الاتهام بأن كثيرين ممن جرى اعتقالهم، أو حتى تصفيتهم من الصحفيين العرب فى عدد من الأقطار العربية قد تم بناء على توصيات من قادة نقابيين بارزين فى نقاباتهم القطرية..

ويتساءل النمرى فى مقاله الملتهب

أما بعد هذا أن يتداعى اتحاد الصحفيين العرب لعقد مؤتمر للتضامن مع الصحفيين المصريين فى الخارج «فهذا هو التضليل المنظم، فحيث إنه لايجوز ومن غير المسموح بالتضامن مع الصحفيين الأردنيين أو العراقيين أو التونسيين أو الجزائريين أو... إلى اخر القائمة فليس هناك من مشجب سوى المشجب المصرى..

وهذه أصبحت نكتة سخيفة وسمجة..

وأرجو من الزميل مقبل أن يرشدنا إلى نظام عربى واحد غير النظام المصرى، قدم صحفى بلاده المعارضين إلى محاكم دستورية وعلنية..

والمفارقة المضحكة أن إرهاب السادات أكثر ديموقراطية ورحمة من إرهاب أنظمة تدعى التقدمية والقومية. وكتب آخرون يكشفون تفاصيل ماجرى فى المؤتمر نفسه بعد أن حضروا كمراقبين وشهود وكشفوا عدة حقائق منها.

* أن المؤتمر لم يحضره من الصحفيين المصريين سوى عدد محدود لايتجاوز ٢٠ صحفيا أما غالبية الحاضرين من المصريين، فيما عدا اثنين، اكدوا فى كلماتهم أن البيان لايفى بالغرض، ولكن رئاسة المؤتمر تجاوزت ذلك لتعلن أنه قد تمت المصادقة على البيان، وانفضت الجلسة وانفض المؤتمر..

وقد لخص أحد كتاب السفير وقائع المؤتمر فى عدة سطور

«إن اتحاد الصحفيين العرب نظم مؤتمرا، أو بمعنى أصح سمح بأن ينظم باسمه مؤتمر هو فى الحقيقة مظاهرة سياسية وأنه فى سياق هذه المظاهرة، استخدم اسم مصر ووطنيتها وديموقراطيتها استخداما أقل مايوصف به أنه غير مشرف..

وكتب مصطفى الحسينى مرة أخرى تحت عنوان «قصة مؤتمر.. وقصة مصر» تفصيلات مثيرة عما جرى فى المؤتمر وكان قد لحق بالمؤتمر فى أخر يوم له..

وقال فى النهاية «إن ماكشف عنه مؤتمر هيلتون باريس هو أن اتحاد الصحفيين العرب يستخدم كأداة سياسية ودعائية فى أغراض لاتتصل بأهدافه؟ إن اتحاد الصحفيين العرب قد خرج بمؤتمر هيلتون باريس عن نقابيته والأمر يستحق الدعوة إلى مؤتمر استثنائى يعيد النظر فى تشكيلات الاتحاد ويعيد إليه النقابة الأم أو يعيده إلى النقابة الأم.. نقابة الصحفيين المصريين..

مرة أخرى يستعيد الإنسان ثقته بأفكاره ومواقفه، ويملؤنى احساس لعلى كنت فى حاجة وشوق إليه بأننى قد استطعت أن أكسب نفسى فى معركة طويلة محدودة من لون ونوع جديد بينما كنت أتصور ومنذ عام واحد فقط أننى خسرت العالم كله ومرة أخرى ادرك وامتلئ بالمغزى الحقيقى لتلك الكلمة التى اطلقها السيد المسيح وماذا يفيد الإنسان إذا كسب العالم وخسر نفسه..

وانكسرت حدود الغربة الصارمة المتجهمة، بل ملأنى شعور قوى يفرض نفسه بأن سنوات الغربة والضياع على وشك أن تنتهى، وأن هناك رنة أمل موحيه قد بدأت تتردد فى العالم العربى حتى ولو كانت مازالت خافتة باهتة مترددة..

ولقد تأكد لى ذلك عندما وصل إلى برلين فى نهاية اكتوبر وفد برلمانى مصرى على مستوى عال للاشتراك فى المؤتمر البرلمانى الدولى..

كان يرأس الوفد دكتور صوفى أبو طالب رئيس مجلس الشعب ويضم فى عضويته الاستاذ إبراهيم شكرى رئيس حزب العمل الاشتراكى ورئيس المعارضة البرلمانية والاساتذة محمد عبد اللاه رئيس لجنة العلاقات الخارجية، وحسن حافظ رئيس اللجنة العربية ومحمد عبد الحميد رضوان وكيل المجلس وفتح الله رفعت رئيس اللجنة الاقتصادية وعدد أخر من الزملاء الصحفيين منهم الصديقان فاروق أباظة المحرر البرلمانى فى المصور والتونى المحرر فى التليفزيون لقد اتاح لى حضور هذا الوفد إلى برلين اطلالة واقعية وتفصيلية على الأوضاع فى مصر وخاصة بعد غياب أكثر من سنتين..

حكى لى إبراهيم شكرى فى ليلة استضفته فى شقتى عن الموقف الواضح الذى يتخذه حزبه من كامب ديفيد ومن قضية الديموقراطية الأمر الذى استثار الرئيس السادات فبدأ يهاجم الحزب ورئيسه وخاصة وأنه كان يحسب أن الحزب فى جيبه بعد أن وقع له ورعاه فى بداية إعلانه وقدمه على أنه يمثل المعارضة الحكيمة والصحيحة على عكس حزب التجمع..

لقد جلست استمع إلى هذا الرجل الطيب الصادق الذى احب بلاده وعمل على قدر طاقته وطوال تاريخه على دفع الحياة والتقدم وبغض النظر عن الاختلاف أو الاتفاق معه فى أفكاره وفى أساليبه من أجل تحقيقها وهو يشرح محاولات السادات لاحتوائه هو وحزبه بل وفرض بعض القيادات المرتبطة به شخصيا، ثم كيف استدعاه يوما للقائه فى القناطر ليناقشه فى «انحراف» الحزب عن الخط الوطنى السليم، وفق تعبير السادات، وانضمامه وتحالفه مع التجمع والناصريين والشيوعيين حينما أعلن إبراهيم شكرى سحب تأييده لكامب ديفيد والمطالبة بوقف التطبيع مع إسرائيل، كذلك المطالبة بإلغاء القوانين الاستثنائية التى كان السادات قد استصدرها فى استفتاء شكلى وهى قوانين العيب والوحدة الوطنية وغيرها من القوانين التى عرفت بالقوانين المشبوهة سيئة السمعة والتى تستهدف كلها الحد من حرية الحركة والعمل للقوى الوطنية..

ثم يذكره بالقسم الذى سمعه منه فى العام الماضى حين قام بحل مجلس الشعب لا لشيئ إلا لأن هناك ١٥ عضوا فيه عارضوا اتفاقية كامب ديفيد معلنا بشرفه أنه لن يسمح بأن يدخل المجلس الجديد أى واحد منهم أو من يعارضون الاتفاقية..

وحين رفض إبراهيم شكرى هذا التهديد الواضح من جانب السادات مدافعا عن وجهة نظره، انفجر فيه السادات قائلا..

هل تعارضنى ياإبراهيم، فى الوقت الذى قال لى رئيس لجنة العلاقات الخاصة فى الكونجرس الامريكى الأسبوع الماضى إننى لو رشحت نفسى للانتخابات الامريكية لانتخبنى الشعب الامريكى باغلبية ساحقة..

كان حديث إبراهيم شكرى وحكاياته عن اتساع المعارضة السياسية لسياسة الرئيس السادات تشيع الطمأنينة فى قلبى وتأكد لى أن قطاعات كبيرة وواسعة من الجماهير التى خدعتها ولفترة أحلام الرخاء السرابية قد بدأت تدرك بوضوح الخطأ الاستراتيجى القاتل الذى استدرجوا إليه والذى يستهدف فى الأساس عزل مصر عن العالم العربى وخاصة وأن تلك الأحلام قد بدأت تكشف عن بروز فئات طفيلية على السطح كونت ثروات هائلة من خلال التفريط فى المقدسات الوطنية والعبث بها وبدأت رائحتها العفنة تزكم الانوف..

كما أن مناقشاتى المستمرة وطوال الأيام الخمسة لانعقاد المؤتمر مع دكتور صوفى أبو طالب ومحمد عبد الحميد رضوان وبعض أعضاء الوفد المصرى كانت تؤكد لى من ناحية أخرى أنه حتى داخل صفوف السلطة نفسها بدأ الإحساس بأن هناك ثمة خلل لابد من تداركه..

كان صوفى أبو طالب يستمع إلى وجهة نظرى مليا ثم يحاول أن يقطع علىّ الطريق قائلا..

* ولكن مارأيك فى رد الفعل العربى الذى جاوز كل الحدود

* أننى لا أبرر أخطاء رد الفعل العربى، ولكن القضية أن الفعل نفسه هو الذى جاوز كل الحدود.

أما محمد عبد الحميد رضوان فقد كان ينهى المناقشات التى لم تكن تخلو من السخونة أحيانا، بخفة دم ومرح وهو يتأبط ذراعى قائلا

* ياعم سيبك من دا كله وتعالى نبحث لنا عن سهرة ظريفة..

فى حين كان حسن حافظ يختلى بى أحيانا فى ردهات المؤتمر ليؤكد لى أنه يوافقنى على كثير مما قلته وخاصة فيما يتعلق بالديموقراطية وكامب ديفيد.

على أن المفاجأة لى حقا كانت محمد عبد اللاه.. فلقد شدنى إليه ثقافته الواسعة واجتهاده وإلمامه الجيد بخريطة الصراعات الدولية الإقليمية. وشهدت قاعة النادى الدبلوماسى المطل على البحيرة فى قرية زويتن فى أطراف برلين الجنوبية حوارا بينى وبينه وامتد لأكثر من ثلاث ساعات لا أعتقد أن أحدا منا كان يحاول أن يخفى حقيقة أفكاره عن الأخر..

قلت له رأيى بوضوح فى كامب ديفيد وفى الانفتاح وفى عزل مصر عن العالم العربى فى تلك الفترة بالذات التى يتدفق فيها البترودولار بلا حدود ليصب فى النهاية فى طاحونة بعض الفئات فى الدول البترولية وشركات البترول الأمريكية والغربية.

وقال لى إنه يوافقنى على كثير مما ذهبت إليه.. فقد كان من المفروض فى سياسة الانفتاح ان تجذب رأس المال العربى والاجنبى لخلق مشروعات استثمارية عملاقة ولكن هذا لم يحدث بل ربما حدث العكس وذلك نتيجة خلل فى التطبيق.

كما كان من المفترض ان تسفر محادثات السلام مع إسرائيل على اتفاقية شاملة تضمن الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى والانسحاب الإسرائيلى الكامل من كل الأراضى المحتلة ولكن الانفعال وعدم إدارة المفاوضات بطريقة حكيمة وقادرة قد أدى إلى اتفاق جزئى محدود كما انتقد فى سخرية مريرة تلك السياسة الانفعالية والذاتية التى يبنى السادات عليها سياسته مع الاتحاد السوفيتى والدول الاشتراكية، الأمر الذى ضيق مجال الحركة أمامه وجعله مضطرا لأن يضع كل البيض فى السلة الامريكية..

كما أن السياسة الداخلية التى مضت لفترة فى تدليل وإبراز الاتجاهات الدينية كبديل عن الاتجاهات الناصرية والماركسية قد أدى فى واقع الأمر إلى فراغ سياسى تحاول الجماعات الدينية بفكرها المتعصب والمتخلف أن تملؤه؛ ومضى فى حماس منطقى يشرح مخاطر ذلك وما يمكن أن يترتب عليه بالنسبة لتطور المجتمع المصرى مؤكدا أن مواجهة هذه الاتجاهات المتطرفة الخطرة هى قضية حضارية تتطلب تحالف كل القوى..

كان واضحا صريحا فى كلماته بدون أدنى محاولة للتبرير أو لخداع النفس... وحينما قلت له في بعض من الدهشة

- : ولكنك رغم كل ماقلت فأنت واحد من المسئولين عن هذه السياسة من خلال موقفك الحساس كرئيس للجنة العلاقات الخارجية فى مجلس الشعب وقريب جدا من دكتور فؤاد محيى الدين رئيس الوزراء..

قال فى هدوء..

* ليس هناك أدنى تناقض ولاتحاول أن تفهمنى بطريقة خاطئة ، فأنا لست يساريا وأنا أؤيد المنطلقات العريضة لسياسة السلطة، ولكن التطبيقات ذهبت بها فى واد أخر.

إننى أرى الخطر مثلك بل وأكثر منك فأنا أكاد ألامسه كل يوم ويملؤنى الانزعاج الشديد وأحاول من موقعى أن أنبه وأحذر

* وهل تعتقد أنك ستنجح

انطلق ببصره عبر البحيرة والغابات الممتدة وراءها ثم أخذ نفسا عميقا من السيجار والتفت الىّ بهدوء قائلا

* هل تعرف سيادة النائب حسنى مبارك

قلت له وقد فأجانى وحسبت انه يهرب إلى موضوع أخر

* نعم عرفته أيام حرب أكتوبر ، وأجريت معه حوارا ليلة كاملة نشرت فى الجمهورية فى ذلك الوقت..

قال وقد عاد إلى الانطلاق ببصره إلى الشمس التى كادت تغرق خلف الغابات.

إنه لم يزر إسرائيل مرة واحدة ، كما انه غير راض عما يجرى باسم الانفتاح..

– : ماذا تعنى

– : اعنى ان هناك من يحاول تصحيح المسار من موقعه داخل السلطة

– : وهل تنجحون..

قال وهو يحاول أن يحل لوغارتمات معقدة دارت ولاشك فى ذهنه..

– : : من يعرف .. ... دعنا نأمل..

-١٨-

إن وراء إرادتنا دنيا وشياطين تهزأ من تصميمنا
وتفسد علينا نوايانا الطيبة..

نجيب محفوظ - بين القصرين

ابريل سنة ١٩٨١

تونس .. الخضراء

وذكريات الطفولة عما جرى فى هذه الرقعة العربية عندما كان الشاعر الضرير على قهوة الحاج المجاورة لبيتنا فى القرية يشدنا إلى ساعات متأخرة من الليل وهو يحكى عن أبو زيد الهلالى سلامة وصراعه الطويل المرير مع الزناتى خليفة..

وأبو زيد يقول لدياب.. تعالى ياشاطر

وأناعسة ست البنات حيرانة مهمومة..

ومدينة قارطاجة التى بناها الفينيقيون القدماء متأثرين بالعمارة المصرية القديمة وبمدينة الاسكندرية بوجه خاص..

وجامع الزيتونة الذى بنى بعد حوالى ثمان مائة عام من بناء الأزهر على يد أحد أبناء الأزهر نفسه محمد بن زيتونة..

وابن خلدون الذى انتقل من تونس إلى مصر بعد أن بلغ سن الخمسين وأقام بها وتوفى وكتب مقدمته التاريخية التى ادخلت الفكر العربى إلى رحاب الحضارة الحديثة من أوسع الأبواب وقال عن مصر.. إنها حاضرة الدنيا وايوان الإسلام..

وداى تونس أو خديوى تونس الذى ثار على القنصل الفرنسى وضربه بمروحة فى يده فى منتصف القرن الماضى والذى كان يحاول أن يفرض شروطا جائرة لصالح التجار الفرنسيين.. وكان الثمن فادحا ممثلا فى عشرات البوارج الحربية التى أخذت تدك حصون تونس لتحويلها إلى مستعمرة فرنسية.

وبيرم التونسى الذى ظل حائرا على مركب تجوب به البحر المتوسط بعد أن طردوه من مصر فلا هو بقادر على أن ينزل فى تونس حيث رفات الأجداد، ولا هو يستطيع أن ينزل بأرض مصر حيث المولد والنشأة والحب الكبير للى بنى مصر والذى كان فى الأصل حلوانى..

والحبيب بورقيبة طريد الاستعمار الذى اتخذ من القاهرة وازهرها مرفأ له ولأفكاره ووجد من المصريين سندا ودعما ثم قام بعد ذلك بلعن مصر والمصريين وكأن بينه وبينهم ثأرا بايت..

والجامعة العربية التى انتقلت منذ ثلاث سنين من مقرها الدائم على كورنيش النيل وميدان التحرير إلى مجموعة من المبانى فى بعض الشوارع والنهج فى تونس..

كل ذلك تداعى إلى ذهنى وأنا أطأ هذه الأرض العربية لأول مرة قادما من برلين وبناء على دعوة من السكرتير العام لجامعة الدول العربية لحضور مؤتمر وزراء الإعلام العرب كمستشار وخبير إعلامى..

وأصل الحكاية أنه فى أحد لقاءاتى فى برلين مع الصديق عبد الله حورانى مدير الدائرة الإعلامية والثقافية فى منظمة التحرير الفلسطينية دار الحديث حول الإعلام العربى بشكل عام وتصوره الواضح فى مخاطبة الرأى العام العالمى والأوروبى بشكل خاص وتشعبنا إلى الجامعة العربية.. والدور الذى تلعبه مكاتبها فى الخارج..

وسوء التوزيع الجغرافى والعملى لهذه المكاتب فبينما يوجد مكتب تقريبا فى كل الدول الأوروبية الغربية وفى أمريكا أكثر من مكتب، فإن مكاتب الجامعة العربية فى دول آسيا وافريقيا معدودة ومحدودة، كما أنه لايوجد أى مكتب للجامعة فى الدول الاشتراكية..

واستفزت تلك الحقيقة الصديق الفلسطينى الذى طالبنى بأن أعد دراسة حول هذه المكاتب وباقتراح محدد بإنشاء مكاتب للجامعة فى الدول الاشتراكية ودراسة إمكانات ذلك..

ولما تولى هو رئاسة دور المجلس الاعلامى للجامعة قام من خلال السكرتير العام للجامعة بدعوتى لمناقشة هذا الاقتراح مع وزراء الإعلام العرب..

تحمست لهذا الموضوع لعدة أسباب.. على رأسها أننى واحد من هؤلاء الذين اخذوا يصرخون كما فى البرية عشية قمة بغداد.. بالله عليكم ياأحفاد وأبناء أورشليم الجديدة لاتنقلوا مقر الجامعة من القاهرة ولا تنساقوا وراء اندفاعات وانفعالات قد تؤدى إلى تدشين الفرض الذى وقعت من أجله كامب ديفيد..

ولكن الجامعة نقلت وجرى حول ذلك حسابات ومصالح ليس لها أية علاقة بأى هدف قومى حقيقى..

ومنها أنى حسبت أن يذهب مصرى إلى محفل الجامعة فى تونس كخبير أو مستشار قد يكون فيه شئ من التعويض عن الجرح الذى عانى منه كل المصريين سواء على يد من صنعوا كامب ديفيد، أو على يد من عارضوها بالاندفاع الاهوج..

ومن ذلك أيضا إننى صارحت نفسى بالأحوال المادية المتدنيه التى أعيشها.. وإذا كنت قد رفضت إصلاح هذه الأحوال بالعمل مع هذا النظام أو ذاك، فالجامعة فى النهاية مؤسسة قومية قد يكون العمل فيها بديلا موفقا لحل هذه المشكلة دون أن يكون هناك شبهة استرزاق أو استرقاق..

حضرت دورة مجلس إعلام الجامعة الذى كان يضم تقريبا كل وزراء الإعلام العرب..

واستمعت الى المناقشات التى جرت حول الحرب العراقية الإيرانية والوضع فى لبنان والقضية الفلسطينية..

ورأيت وسمعت وتأكدت بعينى وأذنى عن مدى الخلافات والمشاحنات والانقسامات والتى كانت تعكس صورة محزنة من التشتت والتشرذم ثم الجهود التى يحاول بها وزراء الإعلام العرب أن يستخدموا كل خبرتهم اللغوية والدبلوماسية لصياغة قرارات أو توصيات مطاطة يمكن تأويلها وتفسيرها على أكثر من وجهة ومعنى.. حفاظا على ماء وجه الاخوة العربية المفتقدة بالفعل..

وفى اليوم التالى بدأ المجلس فى مناقشة دور المكاتب واجهزة الإعلام العربى وطلب منى رئيس المجلس أن أقدم ملاحظاتى واقتراحاتى..

ولمدة نصف ساعة وضعت أمام وزراء الإعلام العرب أفكارى بل وأحيانا هواجسى دارت كلها حول أربع قضايا.

* تخلف الإعلام العربى فى الشكل والمضمون سواء من زاوية عدم قدرته على مخاطبة الرأى العام العالمى بمنهج حضارى ومنطقى من ناحية أو من زاوية تخلفه فى استخدام وسائل وأدوات التكنولوجيا الإعلامية التى بدأت تتكامل فى شكل ثورة جديدة من المعلومات..

* الخلط فى أحيان كثيرة بين مفاهيم الإعلام والإعلان الأمر الذى افقد الإعلام العربى عموما مصداقيته وفعاليته سواء على المستوى القومى أو العالمى.

* القيود والحدود الشديدة والمعقدة سواء داخل كل قطر عربى أو بين الأقطار العربية نفسها والتى تحول دون التدفق الحر للمعلومات الصحيحة.

* عدم وجود خطط أو مخططات علمية لدور مكاتب وأجهزة الإعلام الثابتة للجامعة والفوضى الشديدة فى التخطيط وترك مساحات كبيرة من الرأى العام العالمى دون جهد حقيقى لشرح القضايا العربية الأمر الذى أدى إلى تغلغل الاعلام الصهيونى والمعادى للعرب بشكل عام..

ومن ابرز الأمثلة التى ضربتها لذلك أننا تجاهلنا تماما الدور الذى يجب أن يلعبه الإعلام العربى بين شعوب الدول الاشتراكية وشعوب كثيرة من آسيا وافريقيا مكتفين بالموقف الرسمى المساند للقضايا العربية من جانب حكومات هذه الشعوب..

واحسب أننى قد استطعت أن أشرح أفكارى بشكل معقول، أو هكذا أكد لى الصديقان عبد الله حورانى ولطفى الخولى اللذان حضرا الجلسة..

كما تأكد ذلك عندما اتخذ مجلس وزراء الإعلام العرب قرارا بتكليفى بوضع خطة مدروسة لافتتاح مكتب للجامعة فى مدينة برلين تمشيا مع الأفكار التى طرحتها فى هذا الموضوع..

وحسبت أننى بذلك قد حققت انتصارا سواء من الناحية الموضوعية أو حتى من الناحية الذاتية ولكن يبدوا أن هذا الانتصار قد أثار حساسية لدى البعض الذى كانت تمضى حساباته على أسس أخرى..

فعندما ذهبت فى اليوم التالى لألتقى برئيس الدائرة الإعلامية فى الجامعة لاتفق معه حول التفصيلات العملية لتنفيذ قرار وزراء الإعلام العرب وكلى حماس يتفجر استطاع الرجل بهدوء شديد وبأسلوب تمرس عليه جيدا أن يخفض كثيرا من درجة هذا الحماس بل ويحاصره عندما بدأ يتكلم عن قضايا كثيرة لابد من حسمها فى البداية وتشكيل لجان خاصة لذلك وانتظار العام القادم لطلب طرحه فى الميزانية ولاتنس ياأخ عبد الفتاح جوانب أخرى لها حساسية وخاصة فى هذه الفترة بالذات - هكذا قال لافض فاه - أعنى يعنى.. مدى تقبل البعض لفكرة أن يكون هناك مصرى على رأس أحد أجهزة الاعلام بالجامعة بعد أن جرى ماجرى..!!

وخرجت من عند هذا المسئول العربى الكبير الذى لم يكف لحظة عن الابتسام والإطراء المبالغ فيه لشخصى وقد تلقنت ذرسا كنت فى حاجة إليه لأعرف المصير الحقيقى لأى قرار عربى والهوه السحيقة التى مازالت قائمة فى عالمنا العربى المبارك بين الأقوال والأفعال، بين القرار وتطبيق القرار، بين القدرة على الحلم والقدرة على العمل..

وتمنيت الرحمة لنفسى وللآخرين وشددت الرحال إلى برلين حاملا معى نصرا نظريا مبينا يتمثل فى قرار واضح بإنشاء مكتب للجامعة العربية فى برلين اتولى مسئولية تجهيزه وإعداده وموقنا فى نفس الوقت أن هذا القرار لن يرى أو لن يسمح له بأن يرى النور..

وقد كان ومازال الحال كذلك حتى اليوم.. أى بعد مرور أكثر من ست سنوات على اتخاذ القرار..

وعلى أية حال لم يكن هناك مجال كبير للندم على لبن مسكوب فى الجامعة العربية أو حتى فى تونس نفسها..

فلقد كانت الرحلة وبالنسبة لى كسبا كبيرا على المستوى الشخصى، إذ اتاحت لى الفرصة للتعرف عن قرب على شعب عربى احببته كثيرا ليس فقط من خلال التاريخ أو الجغرافيا أو أبو القاسم الشابى الذى تعلمنا منه جميعا أنه إذا الشعب يوما أراد الحياة فلابد أن يستجيب القدر ولكن من خلال روح التسامح الحضارى والفكرى الذى لمسته بين الكثيرين من التونسيين الذين التقيت بهم رجالا ونساء من مختلف الأعمار ومن مختلف الاتجاهات السياسية والعقائدية. فلقد حاولت وخلال الأيام العشرة التى قضيتها هناك أن اقترب من الشخصية التونسية ساعدنى على ذلك عدد من الأصدقاء المصريين الذين يعملون هناك مثل أحمد حجى ومحمد قناوى واكتشفت اننى أمام مجتمع دخلت فى نسيجه العضوى عوامل حضارية أصيلة تقترب إلى حد كبير من الطبيعة المصرية..

ففى تونس لاتحس بسيادة الروح القبلية أو العشائرية، كذلك من الصعب أن تعثر على جماعات متعصبة دينيا أو مذهبيا أو حتى فكريا.. كما شدتنى المرأة التونسية ودرجة التحرر والثقافة التى وصلت إليها..

بل واسعدنى للغاية وأنا انتقل فى بعض الشوارع التونسية وحواريها أن أجد شارعا باسم مصطفى النحاس وآخر باسم جمال عبد الناصر، وهو أمر لانجده فى عاصمة عربية اخرى بل وحتى فى القاهرة نفسها.. التى تخلو شوارعها حتى الآن من اسم مصطفى النحاس..فلقد كنت ومازلت مؤمنا أن الاثنان هما أخطر وأهم زعيمين وطنيين شهدتهما مصر والعالم العربى إذ إن الاستقلال والتحرر ارتبط فى عقيدتهما بالانحياز إلى الطبقات الفقيرة والشعبية، وهما دون غيرهما من الزعماء الوطنيين الذين سبقوهم فهما الوطنية ببعدها الاجتماعى، ولم تكن مجرد مشاعر وحماس وطنى عاطفى عام يقف عند حدود أن تكون مصر للمصريين مثلما نادى عرابى ومصطفى كامل أو حتى سعد زغلول..

***

واستعادت الحياة فى برلين نبضها مرة أخرى...

وكان علىّ أن اكثف من عملى كمراسل سواء فى الشرق أو الغرب لاضمن استمرار الحدالادنى من الحياة لى ولأولادى بعد أن ضاعت بارقة الأمل التى كانت قد اشرقت فى تونس كما أن تولى الصديق صلاح الدين حافظ مدير تحرير لجريدة الراية القطرية فتح مجالا محددا للكتابة فقد كان صلاح يعرف تماما وضعى المالى السئ وبادر هو بإرسال خطاب إلى برلين يطلب منى المساهمة بمقالاتى فى الجريدة..

ولابد من الاعتراف بأن المبلغ الشهرى الذى كانت ترسله لى الراية القطرية والذى كان يتراوح بين ٣٠٠ إلى ٤٠٠ دولار قد ساعدنى كثيرا على استعادة التوازن الاقتصادى فى حياتى فى برلين بعد أن افتقدت هذا التوازن لفترة طويلة..

وفى تلك الفترة اتيحت لى فرصة واسعة للقاء والتعرف عن قرب على عدد من الكتاب والسياسيين فى ألمانيا الغربية وخاصة بعد أن تأكد وضعى ودورى فى اتحاد الصحفيين الأجانب فى برلين الغربية..

فالتقيت بالكاتب الروائى جوتنز جراس والمستشرق شتويه استاذ الأدب المقارن فى جامعة برلين الحرة، كما التقيت بكل من هيلموت شميث مستشار المانيا الغربية وفيلى برانت رئيس الحزب الاشتراكى الديموقراطى والمستشار الأسبق فى ألمانيا الغربية وكذلك ريتشارد فون فايتسكه عمدة برلين الغربية والذى أصبح بعد ذلك رئيسا لجمهورية المانيا الفيدرالية كذلك أجريت حوارا مطولا مع أسد بافاريا الشهير فرانز جوزيف شتراوس رئيس الحزب المسيحى الاجتماعى فى ألمانيا الغربية..

وفى هذا اللقاء الذى تم فى بيت الحزب المسيحى الاجتماعى فى بون جرت مناقشة لم تخل من بعض الحرارة حينما بدأ شتراوس يهاجم الاتجاهات الدينية فى العالم العربى والإسلامى ويصفها بالجمود والتخلف.. وضرب مثلا على ذلك بحكم آية الله الخمينى فى إيران.. وبالرغم من أننى لم أكن يوما من المدافعين عن استغلال الدين كشعار فى العمل السياسى ومعارضتى

بشكل خاص لنظام الحكم فى إيران، إلا أننى وجدت نفسى مندفعا، وربما متجاوزا حدودى بعض الشئ وأنا أقول له..

* هرشتراوس اسمح لى أن أقول إنك تناولت هذه القضية بشكل واضح التحيز، فأنت شخصيا ترأس حزبا مسيحيا يدافع عن الكنيسة فى مواجهة ماتسمونه بالاتجاهات العلمانية سواء كانت شيوعية أو اشتراكية أم حتى ليبرالية.. كما أن الأحزاب المسيحية موجودة فى كل أوروبا.. بل إنك تتحيز لإسرائيل وهى فى النهاية دولة قائمة على أساس دينى.. فلماذا إذن تحرم على العرب والمسلمين ان تكون هناك احزاب دينية بينها..

إننى أوافق ومن وجهة نظر أخرى على ماقلته بالنسبة لحكم ايات الله فى إيران بل ولا أوافق على أى نظام ثيوقراطى يستخدم الدين كواجهة فأنا واحد ممن يقولون ويؤمنون بأن الدين لله والوطن للجميع..

ولكن مارأيك فى حكم آيات المسيح فى بعض البلدان الأوروبية، وآيات موسى فى إسرائيل..

وضحك الداهية العجوز حتى اهتز جسده المكتنز وضاعت عيناه في وجهه الممتلئ وهو يقول

* هل تتصورنى فعلا شكلا من أشكال آيات الله على النمط المسيحى أعدك بأن أطرح هذه القضية فى أول اجتماع لهيئة الحزب لمناقشتها..

ولعل هذا هو سر جاذبية هذا الرجل الذى يقول أفكارا غاية فى الرجعية تثير عليه ليس فقط غالبية الشعب الألمانى فى الشرق والغرب بل وفى أوروبا كلها، ولكنه فى النهاية يتمتع بخفة دم لا تبارى وبقدرة فائقة على الحوار مع من يختلف معهم.. خرجت من لقائى مع هذا الرجل وأنا اختلف مع كل كلمة قالها ولكنى فى الوقت نفسه لم أملك إلا الإعجاب به على المستوى الشخصى فهو ولاشك من تلك الانماط النادرة الذى ترفضه منطقيا ولكنك تقبله بل وربما تحبه إنسانيا وهو يقدم بذلك نقيضا كليا للبعض الذى قد تتفق معه فى افكاره أو مقولاته ولكنك لاتستطيع أن تحترمه أو تقترب منه إنسانيا لإحساسك بأنه غير صادق مع نفسه أو متسق مع مايقول..

وقد شاءت الظروف أن أدخل فى معركة فكرية مريرة فى أعقاب هذا اللقاء ليس مع فرانز جوزيف شتراوس ولكن مع بعض من الزملاء المصريين والعرب الذين من المفترض أننا نلتقى فكريا أو ننتمى إلى مدرسة سياسية واحدة..

فلقد فوجئت وأنا أتصفح أعداد جريدة السفير التى تصلنى اسبوعيا بمقال كتبه أحد الأصدقاء من المناضلين المصريين المقيمين فى الخارج يهاجم فيه بعنف وفدا يمثل لجنة التضامن المصرية كان فى زيارة لبيروت بناء على دعوة من الزعيم الفلسطينى ياسر عرفات..

لم يترك الصديق المناضل المقيم فى الخارج كلمة فى قاموس الشتائم والاتهامات لم

يستخدمها ليوجهها إلى هذا الوفد المصرى الذى كان يزور بيروت لأول مرة منذ توقيع اتفاقية كامب ديفيد.. فهم عملاء السادات ومبعوثوه.. وهم خارجون عن الخط الوطنى باعوا ضمائرهم وسلموا وطنيتهم.. وهم جاءوا إلى بيروت ليثيروا الفرقة والانقسام وليقوموا بالدعوة لعراف كامب ديفيد.. وهم.. وهم.. وهم.. كلاب السلطة.. وهم.. صفحة كاملة من السباب والشتائم والاتهامات لهذا الوفد الذى جاء من مصر لإجراء حوار مع ياسر عرفات، ويطالب المناضل المقيم فى الخارج بمقاطعة هذا الوفد ليعود إلى أسياده فى القاهرة الذين غرقوا فى أوحال الخيانة فى اسطبل داوود..

وممن يتشكل هذا الوفد؟..

عبد الرحمن الشرقاوى، أحمد حمروش، فؤاد مرسى، مصطفى بهجت بدوى، يحيى الجمل، لطفى الخولى..

يا ألطاف الله.. أهؤلاء ممن يقال لهم هذه الكلمات..

إن كل واحد منهم نجم من نجوم الوطنية الصادقة له دوره المشهود والمعروف..

فهل يأتى اليوم الذى يقال فيه على الشرقاوى أو حمروش أو فؤاد مرسى إنهم غرقوا فى أوحال الخيانة.. ومن ومنّ؟.. من مصرى لايكاد يعرفه أحد فى مصر سوى مجموعة من الرفاق الذين جمعته بهم مرحلة الاعتقال ثم هاجر إلى الخارج متنقلا بين العواصم الأوروبية والعربية يناضل بصوت ضخم وبقلم يستمد مداده من نفايات البترودولار..

وعلى صفحة أخرى من السفير وجدت مقالا آخر لأبو صالح العضو البارز فى حركة فتح وعضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية يكرر فيها نفس أفكار المناضل المصرى المقيم فى الخارج ويطالب ياسر عرفات بألا يستقبل الوفد..

اهانت الأمور إلى هذا الحد؟

ووجدتنى أصرخ فى غرفة مكتبى وأنا القى بالجريدة..

يخرب بيتكم.. ومن أنتم؟

ويبدو أن صرختى التلقائية كانت عالية وتردد صداها فى هذا الوقت من الليل المتأخر حتى أن ابنى الأكبر عمرو جاءنى منزعجا يفرك عينيه وهو يقول

* فيه أيه يابابا..

وتمالكت نفسى وكتمت انفعالاتى وأنا احتضن الصغير واطمئنه وأقوده إلى سريره.. وأعود إلى مكتبى و... [illegible] أننى قد وقعت فى نفس الخطأ وتجاوزت الحدود فى انفعالاتى؛ اخذت اتصفح بنهم الأعداد اللاحقة من السفير [illegible] ماجرى بعد ذلك وقد هدأت نفسى وارتاح بالى عندما عرفت بأن الوفد قد التقى بعرفات وبعدد من الزعماء الفلسطينيين وقادة الحركة الوطنية اللبنانية، وصدر بيان مشترك عن هذه اللقاءات يؤكد ضرورة وحدة وتلاحم كل القوى الوطنية العربية للوقوف فى وجه المخاطر والتحديات العنيفة للهجمة الامبريالية والصهيونية على الوطن العربى..

وادان البيان كامب ديفيد كما ادان فى نفس الوقت كل القوى التى تحاول عزل مصر والشعب المصرى تحت أى شعارات أو إدعاءات..

كما عبر ياسر عرفات وقادة الحركة الوطنية اللبنانية عن تقديرهم العميق للشخصيات التى يتضمنها الوفد المصرى ودورها القومى البارز..

كان البيان المشترك بمثابة تعويض نسبى فى مواجهة هذه الحملة الظالمة والبائسة والعاتية التى تعرض لها الوفد من قبل مناضلى الشعارات والمكاتب، ولكن الأمر بالنسبة لى كان له بعد آخر

وجلست أكتب مقالة للسفير تحت عنوان

«من يتهم من؟... دعوة إلى الحوار وليس للشتائم»

قررت أن اتجاهل تماما هذا المتنفخ المفتون الذى توهم أنه يقود نضال الشعب المصرى من فنادق الدرجة الأولى التى ينزل بها فى العواصم العربية والاوروبية.. لا لشئ إلا ليقينى أن أحدا لايعرفه كما أن من يدفعون له لايأخذونه مأخذ الجد.. وتوجهت فى الرد بالمقال على أبو صالح.. وتضمن المقال عدة محاور.

* إن وفد اللجنة المصرية للتضامن الذى زار بيروت مؤخرا يضم مجموعة من أبرز الشخصيات الوطنية المعروفة جيدا لجماهير الشعب المصرى وللجماهير العربية بمواقفهم العملية للدفاع من أجل التحرر والتقدم ليس لمصر وحدها بل وللعالم العربى، كما أنهم كانوا ومازالوا من أبرز المساندين والمدافعين عن حقوق الشعب الفلسطينى.. فلا أنت ياسيدى ولا أحد غيرك يستطيع أن يزايد عليهم فى هذا المجال.

* إن وجودهم فى مصر هو شرف كبير لهم كمناضلين لأنهم يدافعون ويناضلون على أرض المعركة لايترزقون بأفكارهم ولايتاجرون فى مصير أمتهم بمعارك وهمية لفظية بعيدا عن أرض المعركة وقريبا من نسمات آبار البترول..

* إن الهجوم العنيف الذى تعرضوا له يؤكد حقيقة خطيرة كنا نود طوال السنوات الماضية الا نصدقها، وهى أن البعض يحاول ان يستغل كامب ديفيد لإحكام الحصار حول مصر والشعب المصرى وقواه الوطنية جريا وراء سراب لايمكن أن يتحقق فلا أحد بقادر على أن يرث دور مصر، ولا أحد بقادر على أن ينوب عن القيادات الوطنية والجماهيرية المصرية.

* القول بأن الوفد ماكان ليسمح له للسفر إلى بيروت الا بمباركة الرئيس السادات هو قول ساذج، يعكس جهلا شديدا بأوضاع المجتمع المصرى..

وقد يريح ذلك البعض لأنه يبرر وجودهم فى الخارج لتشكيل جمعية المتنفعين بالنضال الخارجى، وقد يكون ذلك مقنعا للبعض الاخر من الاخوة العرب من واقع بعض الانظمة العربية التى لاتسمح لأى تنظيم سياسى وجماهيرى الا أن يكون بوقا لها..

ولكن فى مصر مجتمع تتواجد فيه الطبقات وتتصارع على قاعدة إنتاجية عريضة تتحدد حولها قوى وعلاقات ووسائل الإنتاج، فهو ليس مجتمعا قبليا أو عشائريا.

ولقد فرض ذلك مساحة معقولة من حرية الحركة والصراع بين الطبقات المختلفة، واللجنة المصرية للتضامن مثلها مثل نقابة الصحفيين والمحامين والأطباء وغيرها من الاتحادات الجماهيرية والأحزاب السياسية ليست فروعا ملحقة بالنظام أو الحزب الحاكم مثلما هو الحال فى بعض الأنظمة العربية، ولكنها مؤسسات جماهيرية حقيقية قادرة على معارضة ورفض سياسة الحزب الحاكم.

وأخيرا ياسيدى..

فإن من يمد يده وسط نيران البترول لكى يطفئها..

ليس مثل من يمد يده لأموال البترول لكى ينفقها..

واحسست بعد كتابة المقال بارتياح شديد كمن أفرغ شحنة من التوتر والالم كانت تعصف برأسه وصدره وزاد ذلك الإحساس عندما نشر مقالى بعد عدة أيام فى السفير وفى نفس الصفحة التى كتب فيها أبو صالح وغيره مقالاتهم التى تطاولت على الشعب المصرى وقياداته الوطنية..

واعتقد أنه منذ ذلك التاريخ أى منذ الزيارة الناجحة التى قام بها وفد اللجنة المصرية للتضامن لبيروت، بدأ بالفعل العد التنازلى لانفضاض جمعية المنتفعين بالنضال المصرى فى الخارج..

ويبدو أن المقال أصاب هدفا أخر لم يكن يخطر على بالى.. فقد فوجئت صباح ذات يوم بالمشرف على السفارة الليبية فى برلين أو بمعنى آخر المكتب الثورى للشعب العربى يتصل بى ويطلب أن نلتقى على فنجال قهوة عنده فى المكتب..

ولما قلت له إننى لا أتردد على السفارات إلا فى الحفلات العامة وافق على اقتراحى بأن نلتقى فى مكتبى العام.. أى فى كافيتريا فندق انتردن لندن..

وجاء الرجل ومعه زميل ليبى آخر قال إنه يعرفنى أثناء إقامته فى القاهرة فى أوائل السبعينات وتردده على اتيليه القاهرة، وبالرغم من أننى لم استطع ان اتذكره إلا أنه كان يذكر وقائع محددة عن لقاءاتى مع أحمد طه وقبارى عبد الله فى الاتيليه..

لم أتردد فى الموافقة على لقاء المسئول الليبى فلم يكن هناك ماأخشيه وما أخشاه كما أنى من خلال بعض اللقاءات السابقة به فى بعض الحفلات تكون لدى انطباع عنه بأنه مهذب وعلى قدر ليس بالقليل من الثقافة..

ولم يترك الرجل فرصة طويلة للتخمين بل دخل إلى الموضوع مباشرة..

فهم يفكرون فى إقامة مركز ثقافى عربى فى برلين الغربية..

وسيحتوى المركز على مكتبة كبيرة تضم مختلف المؤلفات العربية فى الآداب والثقافة والعلوم، كذلك معرضا دائما للفنون العربية، وقاعة سينما، وقاعات للندوات وللحلقات الدراسية وأخذ يشرح لى الفكرة من إقامة هذا المركز الذى يمكن أن يكون نقطة إشعاع وجذب

لنشر الثقافة العربية ويؤكد ان هدفه ثقافى قومى بحت ولن يدخل مجال الدعاية ثم توقف قليلا وأخذ يتفرس فى وجهى بتركيز مقصود وقبل أن يقول

* مارأيك؟

* فكرة جيدة اهنئكم عليها..

* لا أعنى هذا..

* ماذا تعنى؟

* أنت تتولى مدير المركز..

* أنا؟

* نعم أنت.. لقد اختاروك فى طرابلس وطلبوا منى أن افاتحك فى الأمر..

كانت مفاجأة لم أتوقعها على الإطلاق.. أوقفت لسانى وتفكيرى عن الحركة.. وقبل أن أقول شيئا واصل المسئول الليبى

* نعم، نحن نعرف أنك تختلف معنا، ونقرأ كل ماتكتب، ولكن هذا سيكون مركزا للثقافة العربية وليس للسياسات العربية المتناقضة والمتناحرة.. وأنت أفضل من يدير هذا المركز..

* لكن..

* إن هذا ليس رأيى أنا، فلقد طلبوا منى فى طرابلس أن أفاتحك فى هذا الأمر..

لم أكن قد استطعت بعد أن ألملم نفسى وقد فوجئت بالأمر كله كما جرى ذهنى وبسرعة وراء الاحتمالات أو الخلفيات التى يمكن أن تكون وراء هذا الأمر..

هل هو البديل الليبى عن اقتراحى الذى وافق عليه وزراء الإعلام العرب بفتح مكتب للجامعة العربية فى برلين..

أم أنها محاولة لكسب أو على الاقل ضمان صمت قلم مصرى معارض فى الخارج كثيرا ماتعرض للسياسة الليبية بالنقد المباشر وغير المباشر..

أم أن معركة زيارة وفد اللجنة المصرية للتضامن لبيروت والرد الذى نشرته أثار انتباههم إلى أبعاد أخرى لم تكن على البال..

أم أن الأمر كله لايعدو أن يكون فكرة تفتقت عليها قريحة المسئول الليبى المهموم بالمشاكل الثقافية وبالثقافة المصرية على وجه خاص..

دارت كل تلك الاحتمالات فى ذهنى وأنا بدورى أتأمل الوجهين الليبيين أمامى وارتشف فنجال «الموكا» على مهل لعلى المح منهما شيئا يمكن أن يساعدنى على تفسير معقول..

وتكلم الليبى الأخر الذى كان يعمل فى القاهرة مشيدا بالفكرة، مشيرا وبشكل مستتر إلى دور له فى عملية اختيارى مؤكدا وبلهجة لاتخلو من مبالغة، فى اننى الوحيد الذى يمكن أن يضطلع بإدارة مركز ثقافى عربى فى برلين، مضيفا علىّ الكثير من الصفات والنعوت التى

اخجلتني، ولم ينس في حديثه ان يلمح ايضا إلى وضعي المادي الحرج الذي يبدو أنه كان على علم تام به..

كان ميكانيزم اتخاذ القرار في ذهني يتأرجح ويتماوج مع أي احتمال يطرأ صعودا أو هبوطا، ولكن لاأنكر أنني كنت أميل أكثر إلى قبول العرض..

مركز ثقافي عربي لنشر الثقافة العربية.. بعيدا عن السياسة!!.. والموافقة على كل شروطي أو اقتراحاتي.. المسألة تستحق!. ولكنه قد يتحول إلى مركز إعلامي تنحصر مهمته في الدعوة إلى أفكار ومقولات اختلف معها.. مستحيل!! ولكنهم يعرفون جيدا رأيك في هذا الموضوع وليسوا من السذاجة ليتصوروا أنك ستتغير هكذا بسرعة.. ممكن!!

قد تكون بواكير سياسية جديدة ممكن أن تشغل بالها بأهداف استراتيجية قومية بعيدة المدى والأثر.. من يدري !!

لن تخسر شيئا.. ويمكنك ان تنفض يدك من الأمر كله إذا حاولوا فرض أشياء ولا ترضاها .. صح..

بل إنك ستخسر الكثير، وستفقد كل مااستطعت أن تبنيه طوال سنوات الغربة من مواقفك المستقلة.. وارد..

هو مركز ثقافي.. وليس وكالة أنباء أو مجلة.. وحول الثقافة يتوحد العرب وتسقط الحدود والاعتبارات السياسية المؤقتة.. تمام.

ثلاثة آلاف أو حتى أربعة آلاف دولار في الشهر.. يعوضون لك سنوات الحرمان والاحتياج وتؤمن احتياجاتك المادية لسنوات طويلة قادمة.. رائع. ولكن هل تبيع بهذا الثمن.. ياخبر..!!

ومن قال إنك ستبيع.. وماذا ستبيع.. إنه نضال مشرف في أنبل معركة.. معركة الثقافة.. مضبوط.. وليبيا أولا وأخيرا بلد عربي شقيق..

كان رأسي يموج بكل تلك الخواطر المتضاربة مع استعداد تلقائي ينمو ويتزايد لقبول العرض.. هذا بينما كان المسئول الليبي وزميله يحكيان طويلا عن ذكرياتهما عن القاهرة والاسكندرية المسارح والجامعة والأوبرا وكباريهات شارع الهرم.. والمرأة المصرية التي لاتفضلها امرأة في العالم.. التاريخ القديم والحديث.. وعبد الناصر.. والأمجاد العربية..

كان حوارا بمعنى أصح ديالوجا غير مترابط بين الاثنين يطرحان فيه كل ذكرياتهما عن مصر.. سواء تلك التي عاشوها أم تلك التي سمعوا بها.. بينما كنت أنا في أغلب الأحيان غارقا في منولوج داخلي عميق..

على أنه أحيانا ماكان يتداخل ديالوجهما مع منولوجي في بعض نقاط التقاطع حينما يسألان عن مكان في القاهرة أو اسم لكاتب مصري أو ممثلة مصرية..

كما أن حديثهما بدأ ينفرج أكثر وأكثر حول طبيعة الشعب المصري والروح الفرعونية التي مازالت كامنة داخله رغم جهود عبد الناصر في ربطه بالعرب..

ثم بدأ الحوار يدخل فى دائرة أخرى حول ماأسماه المسئول الليبى بالاستعداد الطبيعى للشعب المصرى لخلق فرعون يحكم..

ثم التعرض لأفكار طه حسين وسلامة موسى وتوفيق الحكيم ولويس عوض بالنقد بل وبالتجريح وعندما قال أحدهم إن طه حسين ماسونى صهيونى، انقطع تماما حبل المنولوج الذى كان يجرى داخلى..

وقبل أن أحاول الرد على هذا المنطق المغلوط، فاجأنى المسئول الليبى بسؤال حاسم

* قل لى ياأخ فتحى، هل فشل عبد الناصر فى تغيير طبيعة الشعب المصرى؟

* ماذا تعنى؟

* أعنى أن عبد الناصر بذل جهودا كبيرة لإقناع الشعب المصرى بالقومية العربية ولكى يغير من روح الاستسلام والخضوع الذى تعود عليها.

قلت له وأنا أحاول أن تكون كلماتى محدودة ومهذبة بقدر الإمكان

* الشعب المصرى لم يكن فى يوم من الأيام مستسلما أو خاضعا، بالعكس فهو الذى قاد حركة التغيير والتقدم فى المنطقة، ليس فقط أيام عبد الناصر، بل أيام مصطفى النحاس وعرابى ومحمد على والظاهر بيبرس..

* فلماذا يستسلم إذن ويرضخ لحكم السادات..

قلت على الفور

ولماذا تستسلم كل الشعوب العربية للأنظمة الحاكمة فيها؟

ويبدو أن الرد كان مفاجئا وكانت الكلمات أكبر بكثير من أن يستوعبها وقبل أن يفتح الله عليه بكلمة ناديت الجرسون وأعطيته حساب ثلاثة فناجين من القهوة.. وغادرت المكان بعد التحية.. وطارت الفرصة.

وقد أكون قد زودتها حبتين..

وقد يكون الأمر اندفاعا دون كيشوتيا من ناحيتى لايقدم ولايؤخر..

وقد يكون من الحكمة والحنكة أن أبلع بعض الإهانات الشكلية مقابل بضعة آلاف من الدولارات شهريا ومن أجل هدف نبيل فى النهاية فى خدمة الثقافة العربية بين الشعب الجرمانى.

وقد أكون من هؤلاء المنحوسين ماديا على حد تعبير أحد الأصدقاء الذى كان يصفنى دائما بأننى غاوى فقر أو حتى أغرى بالفقر..

قد يكون كل هذا صحيحا..

ولكن على أية حال انطلقت فى شارع الزيزفون، يداى فى جيبى وأصفر فى مرح صبيانى لحن بلادى بلادى ..

فلتكن السماء زرقاء أو سوداء أو حتى حمراء..
لقد عرف الناس كيف يموتون فهل عرفوا..
كيف يعيشون..!!

لويس اراجون - بيان

أكتوبر سنة ١٩٨١

بالتأكيد إننا نقيم فى بيت واحد، ونسعى لأن يكون هذا البيت دافئا بهيجا يضفى السعادةوالابتسامة الحلوة المفعمة بالأمل لكل السكان، وطالما توجد صواريخ والعاب نارية خطرة داخل هذا البيت أو حتى فى الحديقة فسيخيم على البيت التوتر والخوف المدمر ومن هذا المنطلق اعارض إقامة الصواريخ الذرية الأمريكية المتوسطة المدى فى أوروبا كما أعارض وبنفس الدرجة الصواريخ السوفيتية، ولا أعتقد أن الصواريخ الامريكية هى وحدها المدمرة وأن الصواريخ السوفيتية وديعة مثل حمامة تحمل غصن السلام

هكذا قال جونتر جراس الكاتب والروائى الألمانى الغربى وهو ينفض البايب ويحاول ان يملأه بتبغ جديد.

وضحكت كريستينا فولف الكاتبة والروائية الألمانية الشرقية وهى تقول

* أود أن أؤكد للهرجراس أن الصواريخ السوفيتية ربما كانت أكثر فتكا وتدميرا، وحينما نتحدث عن الصراع والصواريخ والحرب بشكل عام فإننا نتناول شياطين العصر وليس هناك بالتأكيد شيطان طيب.. وربما كنا نحن الألمان أكثر الناس إدراكا ومعاناة لمخاطر الحروب وشرورها، فقد انطلقت من برلين أول شرارة لحربين عالميتين راح ضحيتهما ملايين من البشر واحرقت فى نارها طموحات إنسانية واسعة.. دعنا نتفق أن المثقفين الألمان لهم دور خاص فى مواجهة هذه الشياطين القادرة والغادرة وبغض النظر عن أى خلافات ذهنية أو فكرية.. ولنعمل معا على تنظيف البيت وزراعة الحديقة بالأشجار والأحلام الإنسانية..وهكذا دار هذا الحوار الممتع وعلى مدى يومين بين مجموعة ممتازة من الكتاب الألمان فى الشرق والغرب فى الصالة التى تقع فى الدور الأول لفندق «شتات برلين»..

لقد أسعدنى للغاية أن اتيحت لى فرصة متابعة هذا الحوار الذى كان الأول من نوعه، فأنت

أمام مجموعة لامعة ومرموقة من الكتاب الألمان يناقشون هموم شعبهم الذى انقسم بعد الحرب العالمية الثانية وعاش جزء منهم فى ألمانيا الاشتراكية وجزء آخر فى المانيا الرأسمالية..

اتسع الحوار وتشعب ليتناول قضايا كثيرة ابتداء من دور الكاتب فى الدفاع عن هموم العصر إلى اشكاليات اللغة حتى الموقف المتوتر الذى تعيشه أوروبا والألمانيتان بشكل خاص بعد التصعيد الخطر فى عملية التسليح والتهاب الطقس الدولى وخاصة بين الدولتين العظمين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى.. وبعد انتخاب الرئيس الأمريكى رونالد ريجان الذى جاء بشعار إعادة الروح إلى السيادة الامريكية وتجاوز عقدة الهزيمة فى فيتنام بل وتصفية امبراطورية الشر فى العالم..

ولقد كان من الطبيعى أن يسود الانزعاج الشديد فى أوروبا بشكل عام شرقا وغربا وفى الألمانيتين الشرقية والغربية بشكل خاص..

فلقد تحولت الأراضى الألمانية إلى مزرعة نووية مسلحة تثبت صواريخ كروز وبير شنج على الضفة الغربية وعلى الضفة الأخرى صواريخ اس اس السوفيتية..

وبناء على مبادرة من اتحاد الكتاب فى ألمانيا الديموقراطية ودعوة من رئيسة هيرمان كانت تم هذا اللقاء الذى اتاح لى فرصة نادرة لأن أرى واسمع واستمتع بهذا الحوار المثمر والخلاق بين هذه النخبة من الكتاب المرموقين على المستوى الألمانى والعالمى والذى جسد لى وبشكل ملموس الدور الرائد الذى يمكن أن يلعبه المثقفون المبدعون فى مواجهة مشكلات الأمة والعصر.

كانت هناك بالطبع خلافات عميقة ولكنه كان هناك وفى نفس الوقت حرص من جميع الأطراف على أن يدور ويستمر الحوار فى محاولة الالتقاء على أرضية مشتركة.. لم يكن هناك من يحاول إخفاء رأيه أو التحايل على الحقائق ولوى عنقها بل انسابت وتلاقت وتناقضت هموم فكرية وثقافية بينما حملت الكلمات المعانى بدقة متناهية وبعذوبه فنيه..

أثار اللقاء لدىّ الكثير من الشجون والاسقاطات، ولم أستطع أن أمنع نفسى أحيانا وأنا أرى وأسمع قدرة واقتدار كاتب كبير مثل جراس وهو يقول أخطر الأفكار فى هدوء وثقة، والعمق الفنى والفكرى لروائى عملاق مثل هيرمان كانت وكلاهما يقف على الضفة الأخرى من النهر، وهما يتحاوران وأحيانا يتبارزان بسلاح الفن والفكر وينسجمان معا بسيمفونية إنسانية قد تتضارب أنغامها وتتنوع مصادرها ولكنها فى النهاية تسجل نسيجا واحدا مترابطا.

كانت تجرى فى ذهنى بسرعة الصورة الطفلية والبدائية أحيانا للحوار الدائر فى العالم العربى الممزق والمشتت حيث انفصلت الكلمات انفصالا شبه تام عن مضمونها، وحيث الحوار يتحول إلى صراخ متشنج والخلافات إلى تناحر، والمصالح الخاصة الضيقة تفرض نفسها فى صورة ثأر قبلى أو عشائرى وحيث الأفكار أو بمعنى أصح الانفعالات تنطلق مثل زخة رشاش سريع الطلقات فى يد مرتعشة لاتعرف لمن توجه الرصاص. هؤلاء كتاب المان يعيش بعضهم فى

المخفر الأوروبى الأمامى للاشتراكية بينما يربض البعض الأخر فى المخفر الأمامى للرأسمالية ولكنهم قادرون على الحوار الهادئ الخصب، فى حين ان مثقفونا فى العالم العربى أو غالبيتهم غرقوا فى صراعات انظمتهم غير محدودة الهوية؛ وهاهى الاستعدادات تجرى على قدم وساق بين المانيا الشرقية والغربية للقاء تاريخى المزمع عقده فى نهاية هذا العام بين كل من ايرش هونيكر رئيس مجلس الرئاسة وسكرتير عام الحزب الاشتراكى الألمانى الموحد فى ألمانيا الشرقية وبين المستشار هيلموت شميت مستشار المانيا الغربية والكل مهموم فى البلدين للبحث عن ايجاد أرضية مشتركة للتفاهم والتواصل والحوار رغم كل ماكان وماهو كائن بينهما من تناقضات وخلافات جذرية..

ولكن أين حكامنا أو انظمتنا العربية التى لاتكف يوما عن التأكيد وبأقوى الكلمات وبأضخمها عن إيمانها الذى لايتزعزع بالقومية والوحدة العربية ومساندة حقوق الشعوب العربية المشروعة وفى القلب منها القضية المحورية.. قضية فلسطين..

جبهة الصمود والتصدى.. ضاعت وتشتت ولم تعد تعرف تماما ماذا تعنى بالصمود فى مواجهة من؟ والتصدى لمن؟

استدرجت كل من العراق وإيران لحرب ضروس ممتدة غير مقبولة وغير مفهومة تأكل نيرانها التى اشتعلت منذ أكثر من عام إمكانات وطاقات البلدين الجارين البشرية والمادية وتجهض فى نفس الوقت إمكانات وطموحات حقيقية كانت تلوح فى الأفق سواء فى العراق من خلال بناء تجربة رائدة فى التنمية بعد أن توافرت لديها قدرات تمويلية هائلة، أو فى إيران التى بدأت كتجربة ثورية لها بعدها الشعبى والديموقراطى ثم انحصرت فى يد فئات محدودة من المشايخ والملالى الذين يعيشون بعقولهم وقلوبهم فى عصور سحيقة مضت وأصبحت هناك معركة أخرى على الحدود الشرقية للأمة العربية..

ودول الخليج فى حالة من الخوف والوجل تحاول أن تلملم نفسها والحرب تجرى على أطراف حقول البترول الجاهزة للاشتعال وتبحث عن حماية لها هنا أو هناك

والجزائر والمغرب يتصارعان ويتشابكان أحيانا بشكل ساخن وأحيانا بصورة مستترة حول مشكلة الصحراء..

والتفتت ليبيا جنوبا إلى تشاد وأصبحت عاملا رئيسيا فى الصراع الدائر هناك بين القوى المختلفة..

وتحولت لبنان إلى هم مضاعف لسوريا وللقوات السورية وغرقت فى محاولة لفك طلاسم الصراع هناك بأشكاله الطائفية والمذهبية والعشائرية.

أما السودان فقد كان نميرى يعلن عن بيعه فى المزاد أرضا وجوا لمن يدفع الثمن من الشركات المتعددة الجنسيات بل وحتى لإسرائيل فى صفقات مشبوهة مثلما حدث فى فضيحة

نقل الفلاشا «اليهود الأثيوبيين» إلى إسرائيل عبر الأراضى السودانية كما أن الحرب الدائرة فى جنوب السودان كانت تستنزف ماتبقى من طاقة لدى هذا البلد العربى الأفريقى الأصيل..

وبعد اغتيال العقيد الحامدى رئيس جمهورية اليمن الشمالية فى ظروف غامضة فى صنعاء عادت الحدود لتلتهب مرة أخرى بين الشمال والجنوب فى اليمن

هكذا أصبحت خريطة الصراع فى الوطن العربى..

تمزق وتشتت وضياع.. والرصاص ينطلق من كل مكان.. ولكن دائما فى الاتجاه الخاطئ ومصر.. غائبة أو مغيبة وراء أسوار كامب ديفيد..

وليس هناك أية محاولة لمد الجسور وتحطيم الأسوار واختراق حالة التشتت والضياع.. وأصبح من الواضح أن كامب ديفيد لم تستهدف فى الأساس قضية فلسطين أو سيناء أو الجولان بل استهدفت هدفا استراتيجيا خطيرا هو عزل مصر عن العالم العربى لتصبح مصر والعالم العربى أرضا مستباحة للأعداء يحققون فيها ماعجزوا عن تحقيقه فى ظروف سابقة وذلك من خلال الصراعات الطائفية والعشائرية والدينية والإقليمية.

ولم يكن هناك فيما يبدو أى محاولة من أية طرف لمد الجسور وتحطيم الأسوار واختراق حالة التشتت والضياع.. ثمة بارقة أمل كانت تشع بين الحين والأخر فى مصر..

ولقد أصبح من الواضح أن سياسة الرئيس السادات بدأت تخسر أرضا واسعة بين صفوف الشعب المصرى، واتسعت قواعد المعارضة لسياسته ولم تعد محصورة بين صفوف المثقفين أو بعض طلائع العمل الوطنى مثلما كان الأمر عند زيارة القدس وتوقيع كامب ديفيد عندما وقف اليسار وحزب التجمع وحده يعارض ويشجب..

فحزب العمل الاشتراكى الذى كان يأمل الرئيس السادات فى أن يكون قائدا للمعارضة المستأنثة سرعان مانفض عن نفسه شبهة التبعية ودخل فى معركة مع النظام حول عدد مع القضايا الاقتصادية والاجتماعية ثم توج هذا الموقف بإعلان رفضه لاتفاقية كامب ديفيد.. وحزب الوفد الجديد الذى ساند النظام لفترة فى سياسته المعلنة حول الانفتاح الاقتصادى والليبرالية السياسية وأغمض عينيه عن كامب ديفيد اعاد النظر فى سياسته وخاصة بعد صدور عدد من القوانين المقيدة للحريات وخاصة قوانين العزل السياسى التى كانت تمس قيادات الحزب فأعلن المعارضة بل وتجميد نشاطه العلنى وراحت قياداته وقواعده تهاجم النظام فى السر والعلن..

حتى الاخوان المسلمون الذين كانوا يحمدون للنظام إعطاؤهم الفرصة العملية لإعادة تنظيم انفسهم وإصدار مجلاتهم والهجوم الشرس على اليسار وجدوا أنفسهم وقد اشتد عودهم واتسع نشاطهم أن دولة العلم والإيمان التى أعلنها السادات وباركوها من قبل لم تعد كافية لتحقيق مآربهم وبدأوا يشنون حملة من أجل تطبيق الشريعة على حسب فهمهم ودخلوا معركة مع

النظام فى بعض القوانين التى أصدرها وخاصة قانون الأحوال الشخصية والذى كانت تدعو له وتحبذه زوجة الرئيس السادات..

وبدأوا من خلال صحفهم وتجمعاتهم يشيرون بطرف خفى ثم بشكل واضح إلى معارضتهم لمعاهدة الصلح مع اليهود بعد أن صمتوا لفترة وغضوا البصر عن المعاهدة بل وخرجت صحفهم بعد زيارة القدس بالآية الكريمة «وإن جنحوا للسلم فاجنح لها» وفى محاولة أخيرة من جانب الرئيس السادات لتجديد تحالفهم معه فى اللقاء العاصف الذى تم بينه وبين عمر التلمسانى مرشد الإخوان وعدد أخر من زعمائهم حاول السادات أن يذكرهم بجميله عليهم حين اتاح لهم فرصة العمل والتنظيم من جديد ويهدد فى نفس الوقت بأنه قد يغير من رأيه ووقف عمر التلمسانى وبشكل مسرحى مثير رافعا يده إلى السماء قائلا للسادات

* إننى أشكوك إلى الله تعالى..

لقد كان كل هذا يعكس فى واقع الأمر وبغض النظر عن الظروف والعوامل الخاصة، عدة حقائق موضوعية بدأت تعكس نفسها بوضوح وخاصة فى العامين الآخيرين وتشير إلى الخلل الاستراتيجى الخطير الذى جرى فى سياسة الرئيس السادات.. لقد انطلقت الحسابات السياسية للسادات لدى زيارة القدس وتوقيع معاهدة السلام مع إسرائيل من فرضية اقتصادية فى الأساس..

ولنترك بعيدا الكلمات الضخمة التى يحلو للبعض أن يرددها دائما عن الخيانة والعمالة لنحاول أن نرى المعادلة التى قامت عليها هذه الحسابات..

كانت المعادلة تقوم فى الأساس على فكرة حل المشكلة الاقتصادية الحادة التى يعانيها المجتمع المصرى ولايجب أن ننسى أن زيارة القدس وما تداعت إليه جاءت بعد الأحداث المثيرة التى عاشها المجتمع المصرى فى الانتفاضة الشعبية فى ١٧، ١٨ يناير سنة ١٩٧٧..

كان من الواضح أن سياسة الانفتاح الاقتصادى التى اعتمدها النظام لم تؤد إلى تدفق رؤوس الأموال الأجنبية أو العربية البترولية مثلما كان يتوقع النظام كما أن الليبرالية السياسية المحدودة والانفتاح على الولايات المتحدة لم يؤديا إلى تغيير يذكر فى السياسة الأمريكية إزاء مصر..

ولاشك أن الرئيس السادات تصور أنه بزيارته للقدس قد يستطيع تحقيق طموحات كثيرة وبضربة واحدة أو بصدمة كهربائية على حد تعبيره..

* سلام عادل تسترد فيها مصر وسوريا سيناء والجولان مفهوم السلام مقابل الأرض..

* حل المشكلة الفلسطينية فى اتجاه إقامة كيان فلسطينى يتحول إلى دولة.

* علاقات وثيقة بالولايات المتحدة تحتل فيها مصر مركز الصدارة فى المنطقة

إن كل هذا يمثل فى النهاية عائدا اقتصاديا ضخما تتحول فيه مصر إلى مركز للاستثمار العالمى والعربى بمباركة امريكية..

كانت تلك فيما اعتقد حسابات الرئيس السادات..
وتمثل الخلل القاتل فى هذه الحسابات فى أمرين أولهما : عدم إدراك حقيقى وواقعى لجوهر الصراع العربى الإسرائيلى، والمصرى والإسرائيلى بشكل خاص وموقف الولايات المتحدة المساند لإسرائيل والذى قام فى الأساس على عدم اعطاء الفرصة لمصر ان تكون القوة الأساسية فى المنطقة باعتبار ذلك الخطر الرئيسى والمؤثر على المصالح الامريكية والإسرائيلية..
ثانيهما : إنك لايمكن أن تلقى سلاحك وتذهب إلى الذئب فى بيته فى انتظار أن يقرر الذئب نواياك الحسنة ويكافئك على ذلك..
وفى زيارة القدس أعلن السادات بوضوح أنه لم يأت ليعقد صفقة منفردة بل ليبحث عن حل سلمى عادل بما فى ذلك حقوق الشعب الفلسطينى فى إقامة دولته المستقلة..
ومنذ زيارة القدس حتى توقيع كامب ديفيد اضطر السادات وظهره إلى الحائط إلى عملية متصلة من التراجعات المشينة بعد أن وضع كل البيض فى السلة الامريكية.. وليس لدىّ أدنى شك فى أن إسرائيل والولايات المتحدة كانت تستعذب فى أحيان كثيرة إذلال السادات، وهى تعنى بالتأكيد إذلال مصر كلها.. وهناك الكثير من الشواهد التى تؤكد ذلك لعل ابرزها هو ضرب المفاعل الذرى العراقى بعد يوم واحد من لقاء سلامى بين السادات وبيجن فى سيناء..
وليس لدىّ أدنى شك أن الرئيس السادات نفسه كانت تساوره هذه الأحاسيس..
ولكنه كان يراهن على استرداد سيناء التى ظلت تمثل له هاجسا حتى إنه يمكن القول أنه أصبح ممسوسا بتلك القضية.
حكى لى الشرقاوى أنه استدعاه يوما فى القناطر..
وظل لأكثر من ساعتين يتحدث عن أمور خاصة وعن شوقه للعودة إلى الكتابة حتى ظن الشرقاوى أنه ليس هناك أمر مهم واستأذن فى الانصراف وفجأة انفجر الرئيس السادات على غير عادته..
* ياعبد الرحمن، أنا عارف ان اليسار يتهمنى بالعمالة، وحتى مشايخ اليمين رافعين علىّ قميص عثمان.. معلهش.. كله يهون..
أنا مستعد أبلع الزلط وآكل التراب.. لحد ماترجع سينا.. وبعدها يبقى لنا كلام تانى..
وقد كان الشرقاوى فى جلساته الخاصة يصف السادات بأنه نموذج يكاد يكون نمطيا لشخصية ابن الليل فى القرية المصرية..
هذا الذى تجده متحدثا بشوشا فى أية جلسة حاضر النكتة والبديهة يمازح الحاضرين ولكن وفى نفس الوقت يجرى داخله فى صمت إعداد محكم للخطة التى سيغتال بها أحد الحاضرين بعد أن تنتهى الجلسة ويصطاده بعيدا فى الحارة الضيقة أو فى الحقل أى أنه تجرى داخله وفى نفس اللحظة رؤيتان متوازنتان ولعل ذلك كان السبب فى انفلات أعصابه الواضح فى الشهور الأخيرة..
ففى خطبه التى ألقاها فى مايو ويوليو من ذلك العام شن هجوما قاسيا على أحزاب

المعارضة وزعمائها واستخدم الفاظا تجاوزت كل الحدود، وحملها مسئوليات كل المويقات التى كانت تجرى ابتداء من الأزمة الاقتصادية حتى بعض المشاكل والأحداث الطائفية التى كانت تقع هنا وهناك والتى كان من الواضح أن هناك من يحاول أن ينفخ شرارها لكى تتحول إلى فتنة طائفية، ولم يحاول ان يتوقف قليلا ليدرك أن كل هذه المشاكل ربما كانت ليست بعيدة عن الايدى الامريكية والإسرائيلية..

كان يمضى فى سياسته مثل حجر القىّ من فوق مئذنة عالية، فقد كانت كل حساباته وتصوراته تجرى على أساس أنه باستعادة سيناء تحت أى ظروف وبأى شكل فإن كل شئ محتمل..

وربما كان ذلك وراء اندفاعه، المبالغ فيه أحيانا فى استرضاء امريكا وإسرائيل. وقد حكى لى السفير صلاح شعراوى الذى كان وكيلا للخارجية، أن فريق الخارجية المصرى والذى كان يضم عناصر ممتازة كان يجد تعنتا واضحا من جانب المفاوضين الاسرائيليين سواء فى محادثات الاسكندرية أم الاسماعيلية وفى مفاوضات الاسماعيلية أصر الفريق المصرى على بعض النقاط المهمة عند مناقشة قضية انسحاب إسرائيل من سيناء الأمر الذى أثار غضب مستر بيجن الذى كان يقود بنفسه الفريق الإسرائيلى وقد وصف بيجن فريق الخارجية المصرى بأنهم «فهميين» نسبة إلى إسماعيل فهمى وزير الخارجية الأسبق الذى كان قد استقال بعد زيارة القدس..

وأصر بيجن على أن يلتقى بالرئيس السادات على انفراد، وبعد ساعة من لقاء الاثنين خرج عليهم الرئيس السادات متأبطا ذراع بيجن وقال ضاحكا.

*. لماذا تغضبون صديقى مناحم، إن الأمر لايستحق..

وفى اثر ذلك صدر قرار بتعيين صلاح شعراوى سفيرا فى المانيا الديموقراطية..

لقد كان مثل نبى يعيش فى حلم نبوءة يخشى ألا تتحقق..

استضاف شاه إيران المخلوع الذى رفضت دول كثيرة أن تستضيفه بما فى ذلك امريكا نفسها وعندما حدثت الفضيحة العسكرية الخاصة بمحاولة كارتر الإفراج عن الرهائن الامريكيين فى إيران، كان هو من الأصوات القلائل فى العالم كله الذى دافع عن حق امريكا فيما فعلته بل وطالب الرئيس الأمريكى بألا يسمح لليأس أن يتسرب إلى نفسه بعد ذلك الفشل، بل عرض ان تنطلق المحاولة الثانية من الأراضى المصرية..

ويحكى برجنيسكى مستشار كارتر للأمن القومى فى مذكراته أنه فى زيارة للسادات فى أعقاب هذا الحادث لواشنطن، فوجئ ذات ليلة بأن الرئيس السادات يستدعيه هو والرئيس كارتر فى قصر الضيافة الذى يقيم فيه دون سابق موعد أو إخطار..

وحينما ذهبا إليه ادخلهما فى قاعة القصر المخصصة لعقد الاجتماعات وجلس برجنيسكى وكارتر فى القاعة وحدهما بينما وقف السادات على المنصة وأمامه شكل كبير مجسم للكرة

الأرضية ولأكثر من ساعة اخذ الرئيس السادات يشرح تصوراته عما يمكن أن تكون عليه الاستراتيجية الأمريكية المقبلة فى مواجهة الاتحاد السوفيتى والقوى المعادية وبدون الوقوع فى الأخطاء السابقة مثلما حدث فى فيتنام وإيران..

ويقول برجنيسكى انه جلس والرئيس كارتر كتلميذين غير قادرين على الاستيعاب بينما كان الرئيس السادات يشرح نظرياته كأستاذ متمكن فى رسم الاستراتيجية العالمية وبحماس شديد..

ويضيف برجنيسكى أن الرئيس السادات عرض افكارا واقتراحات كثيرة ليس هنا مجال لسردها ولكن يكفى القول بأنه لو كنا قد أخذنا بواحدة منها لكانت الحرب العالمية الثالثة قد اندلعت منذ فترة..

كان حماسه الشديد للسياسة الامريكية يقابله عداء شديد للاتحاد السوفيتى كان لايخفيه ويعلنه بشكل لم يسبق له مثيل، فهو حين يتحدث عن القادة السوفيت ينعتهم بأوصاف غير متداولة فى العرف الدولى فيقول مثلا إنهم جاءوا إليه فى أحد الاجتماعات تفوح من أفواههم رائحة البصل..

ويخلط فى سياسته المعادية للسوفيت بين مشاعره الخاصة ومصالح البلاد حتى إنه فضّل ان تتوقف بعض المصانع العسكرية والمدنية التى كانت قد انشئت بمعاونة السوفيت حتى لايضطر إلى طلب قطع الغيار أو بعض الخبراء الضروريين لتشغيل تلك المصانع..

بل إنه أمر بوقف تصدير القطن إلى الاتحاد السوفيتى، وعلى مدى عامين تراكم المحصول فى الميناء وتلف معظمه حيث لم تكن هناك أسواق بديلة لتصدير القطن إليها..

ولقد ارتبطت تلك النبرة الانفعالية فى اتخاذ القرار فى السنوات الأخيرة بإحساس متزايد لديه بصوفية مبهمة بدأت تتبلور فى فكرة الالهام والوحى لدى اتخاذ القرارات..

ولقد عبر عن ذلك فى كثير من خطبه وفى كتابه المثير «البحث عن الذات».

فهو قد اتخذ قرار زيارة القدس، حسب تعبيره، حينما أغفى قليلا فى الطائرة التى كانت تقله عائدا من رومانيا، ثم استيقظ ممتلئا بالفكرة وكأنها وحى هبط إليه..

وحينما سألته صحفية أمريكية عن كيفية اتخاذه القرارات الحاسمة..

يقول إنه فى مثل تلك الأحوال يعتزل ويصوم ثم تأتيه الفكرة الملهمة.. كيف؟.. لا أعرف؟ ولا أشك لحظة أن الرئيس السادات عندما اتخذ قراراته الخطيرة فى ٥ سبتمبر باعتقال أكثر من ١٦٠٠ شخصية جمعت كل قيادات العمل السياسى والدينى فى مصر من اليسار إلى اليمين ومن المشايخ إلى القساوسة بما فى ذلك قيادات كانت تعمل معه حتى عهد قريب فإنه كان يعتقد أن ذلك هو الطريق الوحيد لضمان عودة سيناء بعد أن انتابته الهواجس بأنه قد لايستطيع أن يحقق حلمه..

إن احدا لايستطيع ولايجرؤ أن يقوم على مثل هذه الخطوة إلا إذا كان لديه يقين بأنه هو وحده الذى يعرف الحقيقة، وهو وحده القادر على انجازها.. وهو يقين لم يجربه سوى الانبياء.. الصادقين أو الكاذبين..

***

استيقظت مبكرا صباح ذلك اليوم، فلقد كان علىّ ان اعبر الحدود إلى برلين الغربية لاستقل الطائرة من مطار تيجل إلى بون وذلك فى جولة لمدة يوم واحد مع عدد من المراسلين نظمتها هيئة المراسلين الأجانب فى ألمانيا الغربية..

والتقينا فى بون بالمستشار هيلموت شميت وبعدد من المسئولين فى الحزب الاشتراكى الديموقراطى الحاكم وكانت القضية الرئيسية المثارة هى قبول المانيا الغربية زرع صواريخ امريكية نووية من طراز برشنج وكروز فى الأراضى الألمانية..

لقد أثار هذا القرار ضجة واسعة وخاصة بين صفوف الحزب الحاكم وأعلن عدد من قياداته منهم هربرت فينر وايجون بار معارضتهم للقرار، بينما أعلن المستشار شميت موافقته ويسانده حزب الأحرار والحزب المسيحى الديموقراطى المعارض..

وفى لقاء لنا مع وزير الدفاع الألمانى الغربى تسابق المراسلون يمطرونه بالأسئلة حول المخاطر التى قد تسفر عن زرع هذه الصواريخ النووية وخاصة وان المانيا الغربية تقف على خط المواجهة الأول مع الاتحاد السوفيتى وأثر ذلك على العلاقة بين الالمانيتين وتذكرت الحوار الذى كنت قد حضرته فى برلين الشرقية بين الكتاب الألمان وتحددت فى ذهنى كلمات جونتر جراس وكرستينا فولف حول هذه الديناصورات الوحشية المعاصرة ولعبة الأزرار التى يحملها أى رئيس فى البيت الأبيض أو فى الكرملين تكفى لمسة واحدة منها ليشمل البشرية ظلام الفناء ووجدتنى أسأل الوزير الالمانى..

* فى حالة زرع هذه الصواريخ، من الذى يملك حق قرار إطلاقها.. هل هو أنت أم وزير الدفاع الامريكى..

ويبدو أن السؤال كان مفاجئا وغير متوقع

فصمت الوزير لبرهة ثم قال فى ابتسامة ذكية

* اننا فى كل الأحوال نأمل ألا يصدر قرار بإطلاق هذه الصواريخ البشعة..

وفى نهاية اللقاء قام الوزير يصافحنا ويودعنا..

وعندما مددت يدى إليه أمسك يدى لفترة قائلا

* لقد عرفت أنك مصرى، ارجو أن يكون ماحدث اليوم عندكم مجرد حدث عارض

قلت ولم استوعب تماما كلماته

* ارجو هذا.. فاعتقال هذا العدد الكبير من قادة الرأى والفكر أمر مؤسف..
ولكن عاد ليقول فى نبرة واضحة
* يبدو أنك لم تعرف بعد.. لقد أطلق أحدهم الرصاص على الرئيس السادات أثناء العرض العسكرى منذ ساعة ولكنهم يؤكدون فى القاهرة ان الرئيس لم يصب بسوء..
ومضى الوزير بعد أن ألقى قنبلة ظلت تشتعل طوال اليوم.. فلقد نسى المراسلون المهمة التى جئنا من أجلها إلى بون، ولم يعد أحد يفكر فى صواريخ كروز وبرشنج، بل كان هم الجميع معرفة ماجرى ويجرى فى القاهرة..
ووجدت نفسى فجأة محاطا بكل الزملاء المراسلين يمطروننى بوابل من الأسئلة وكأنهم قطعوا كل تلك المسافة من برلين إلى بون لإجراء حديث معى..
من تعتقد أنه أطلق الرصاص على السادات؟
اتظن أنه فلسطينى أم ليبى؟
هل الصلح مع إسرائيل هو السبب؟
ماهو رد الفعل الذى تتوقعه من جانب السادات؟
هل تعتبر نفسك عربيا أم مصريا؟
ماهى القوى صاحبة المصلحة فى ذلك؟
هل تتوقع حرب بين مصر وليبيا؟
هل.. هل..
عشرات الأسئلة وأنا أحاول أن أجمع شتات ذهنى بل وجسدى الذى احسست أنه قد أصيب فجأة بحالة انعدام وزن غريب، لقد كانت كلمات الوزير الألمانى اشبه بدوامة هائلة اخذت تلف بى وأنا أحاول عبثا أن أوقف هذه المرئيات التى توافدت على ذهنى كأشباح اسطورية..
القاهرة.. السادات. العرض العسكرى.. ولا أدرى ايضا لماذا تجسد لى وجه أمى فى تلك اللحظات.
واستطعت أخيرا أن اجمع بعض الكلمات اقذفها بلا رابط..
أرجوكم.. لقد جئت معكم من برلين.. إذاعة.. راديو.. تليفزيون أرجوكم..
وانتبه الزملاء انه من الاجدى متابعة الأخبار بدلا من تعذيب زميل مصرى معهم تفصله عن بلده آلاف الأميال.
وذهبنا إلى نادى الصحافة فى بون حيث كان مقررا لنا غداء عمل مع المتحدث باسم الحكومة وترك الجميع صالة الطعام والتفوا حول جهاز التليفزيون الضخم الذى كان قد قطع برامجه العادية وأخذ يذيع تفاصيل الحادث الساعة الثانية ظهرا.. مراسل التليفزيون الالمانى يقدم تقريرا مصورا من القاهرة.. يقف وراء المنصة التى كان يجلس عليها الرئيس السادات

وعدد من رجال الدولة والسفراء والملحقون العسكريون ويصف ماحدث.. المنصة خالية إلا من بعض رجال الأمن، وكراسى كثيرة مقلوبة وملقاه.. على الساحة الممتدة أمام المنصة لاشئ سوى عربة مصفحة وسط الطريق.. والمذيع يحكى ماحدث.. أثناء العرض العسكرى بمناسبة حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣، توقفت هذه العربة وانطلق منها الرصاص فى اتجاه الرئيس السادات، ثم قفز اثنان.. لا بل ثلاثة من العربة واتجهوا إلى المنصة وامطروها بوابل من الرصاص.

.. يبدو أن الرئيس السادات قد أصيب فقد تم نقله إلى المستشفى العسكرى بالمعادى.. حيث تجرى له عملية نقل دم، بيان رسمى يؤكد أن إصابة الرئيس السادات طفيفة وأنه بصحة جيدة.. حتى الآن لم يعرفوا عدد الضحايا والمصابين.

الساعة الثالثة.. التليفزيون الألمانى مازال يذيع على الهواء صورة مستشفى المعادى.. السيدة جيهان تدخل المستشفى.. الموقف لم يتضح بعد.. مسئول كبير يؤكد أنه تم إلقاء القبض على الجناة والتحقيق يأخذ مجراه، أنباء متضاربة عن حالة الرئيس السادات، البعض يؤكد أن الإصابات خطيرة.. الكاميرا تنقل لقطات من شوارع القاهرة، حالة من الهدوء والترقب..

الساعة الرابعة.. ايها المشاهدون الأعزاء، سنذيع عليكم بعد قليل الفيلم النادر الذى سجلته عدسات مراسلنا لما حدث فى القاهرة وعلى الطبيعة، يبدو أن الأمر خطير وأن المحاولة وراءها جماعة منظمة تتبع تنظيم الجهاد الدينى المتطرف هذه المجموعة هى جزء من الجناح العسكرى للتنظيم وقد عرفنا للتو أن قائد المجموعة يدعى خالد الاسلامبولى وهو ضابط فى الجيش المصرى وشهود العيان يؤكدون أن الرصاصات التى أطلقت على الرئيس السادات اصابته فى العنق والصدر.. وان هذه الإصابات قد تكون قاتلة.. لا أحد يستطيع ان يقطع حتى الآن بمصير السادات..

ايها المشاهدون.. الآن سنذيع عليكم الفيلم

وبدأت أحداث أغرب فيلم واقعى مثير شاهدته فى حياتى

كل شئ يمضى على مايرام.. طابور العرض يتقدم والسادات فى ابتسامة منتشية يتصدر المنصة فى بدلته العسكرية المميزة وحوله كبار رجال الدولة والجيش ثم تتجه الرؤوس والعيون إلى أعلى وتركز الكاميرا على سرب من الطائرات تحلق فى الجو فى تشكيل استعراضى ثم تعود الكاميرا إلى المنصة والسادات يقف فجأة البعض يحاول أن يسنده ثم تدوى طلقات رصاص آخر..

ثلاثة يقفزون من عربة مصفحة فى ميدان العرض وينطلقون نحو المنصة وأصوات الرشاشات مرة أخرى، والهرج الشديد يسود المنصة.. البعض يقفز من فوق الكراسى والبعض يحتمى خلف الكراسى..

ثم يجرى تبادل إطلاق الرصاص بين بعض الحرس والمهاجمين للمنصة، أحدهم يسقط على الأرض، الصور تتوالى مع اهتزاز فى الكاميرا..

خفت صوت الرصاص بل سكت.. وصرخات تخرج من الحين والآخر.. البعض يحمل شيئا بين يديه، يمضى بسرعة.. يبدو أنه الرئيس السادات.

١٧ دقيقة والكاميرا تسجل وحدها دون توجيه أو تعليق ولكنها تقول كل شئ بوضوح ثم يبدو أن هناك عاملا خارجيا أوقف التصوير.

ويدخل صوت المذيع فى بون ليقول فى لهجة يغلب عليها حزن حقيقى..

لقد تأكدنا الآن أن الرئيس السادات قد توفى متأثرا بجراحه.. ويبدو أنه قد أفضى حياته مع الطلقات الأولى القاتلة التى انطلقت من الإرهابيين، وبالرغم من أن القاهرة لم تعلن رسميا حتى الآن خبر وفاة السادات إلا أنه يبدو أن هناك اجتماع مهم يضم كبار رجال الدولة والجيش لاتخاذ التدابير اللازمة قبل إعلان مقتل الرئيس السادات

ومضى المذيع يضفى على الرئيس السادات أوصافا كثيرة مثل الرجل الشجاع وصاحب مبادرة السلام ويروى تاريخ حياته ونضاله.

وأخذت اتابع أمامى على شاشة التليفزيون صورا من تاريخ مصر المعاصر من خلال بعض المقتطفات عن حياة رئيس مصر الراحل..

صورته فى الاسكندرية مع محمد نجيب قبل ساعات من رحيل الملك فاروق، ثم اجتماع لمجلس قيادة الثورة سنة ١٩٥٣، ثم وهو سكرتيرا للمجلس الإسلامى ثم رئيسا لمجلس الأمة، وبعض الأفلام التى يظهر فيها مع عبد الناصر ثم وفاة عبد الناصر وخطاب السادات فى هذه المناسبة..

ثم رئيس للجمهورية، وتخلصه من الجناح اليسارى الناصرى، وخطبة فى مجلس الشعب أثناء مظاهرات الطلبة..

وحرب سنة ١٩٧٣ والسادات يقود المعركة فى مقر القيادة العسكرية فى القاهرة ثم عندما كان مفاوضا مع كيسنجر ولقاءاته مع نيكسون أثناء زيارة القاهرة.

السادات يعبر قناة السويس على ظهر طراد بحرى فى بدلة ربان بحرى انيقة بعد إعادة فتحها.. يضحك من الأعماق.

زيارة القدس، وضحكة قلقة على سلم الطائرة تعليقا على كلمات لجولدا مائير، لقاءاته مع بيجن وبيريز.. ثم كارتر وفانس.

ثم وهو منفعل يرد على أسئلة صحفى أمريكى فى أعقاب اعتقالات سبتمبر

ظل التليفزيون الألمانى الساعات يذيع أفلاما عن حياة السادات ومن الحين والأخر يسجل حوارا أو تعليقا مع إحدى الشخصيات الألمانية أو الأوروبية حول الأوضاع فى مصر بعد غياب السادات..

ويبدو أن الزملاء المراسلين قد أدركوا أخيرا مغزى الأزمة بالنسبة لى وهذا الصراع المرير الهادئ الذى يغمرك وأنت ترى أخطر الأحداث عن بلدك ولا تملك إلا أن تراها من خلال بعض الصور المتحركة وأنت على بعد آلاف الأميال.

وأخذت ركنا منعزلا مع فنجال من القهوة أحاول تجميع ذهنى المشتت والذى تزاحمت عليه صور ومرئيات كثيرة متداخلة..

لقد شاهدت رحيل فاروق من الاسكندرية وأنا صبى كنت يومها أكاد أطير من الفرح.. بل أخذت أرقص وأمرح وأغنى بانفعال مع مجموعة من تلاميذ القرية ونحن نستمع إلى الراديو وهو يذيع تلك اللحظات الخالدة.

وشهدت موت عبد الناصر وأنا شاب فتى وانتابنى حزن شديد وها أنا أرى على شاشة التليفزيون الألمانى مقتل السادات وأنا كهل فى الأربعينات فينتابنى القلق والخوف والتوجس.. واقترب منى مراسل الإذاعة البريطانية (بى بى سى) وقد كان يجمعنا تآلف وألفة قائلا

هل أطمع فى أن اخترق تأملاتك لتطلعنى عليها

* قلت له : كما ترى، مهموم بما سيكون

* وماذا تعتقد أنه سيكون؟

قلت وأنا أقف فى محاولة لتنفيض مشاعر القلق والتوتر

* لا أعرف.. ولكن آمل أن يأتى الغد بما هو أفضل.

- ٢٠ -

واسمع عظام عهد جديد وهى تنمو
والانسان يرعى ظله
عـلى منحـدرات الارتحـــال العظيم
سان جون بيرس

فبراير سنة ١٩٨٢

وشددت الرحال الى ... فايمر ...

كعبة الثقافة والفكر ليس فى المانيا وحدها بل وفى اوربا المعاصرة..

ففى هذه المدينة التاريخية التى تقع فى حضن الجبال والغابات فى الجنوب الغربى لالمانيا الديمقراطية، يحتشد هذه الأيام نخبة واسعة من رجال الفكر والثقافة من جميع أنحاء العالم جاءوا للاحتفال بمرور ١٥٠ عاما على وفاة يوهان فولفجانج فون جوته الكاتب والشاعر والفيلسوف الالمانى الكبير..

ولقد عشقت تلك المدينة الصغيرة منذ رأيتها لأول مرة فى أواخر الستينات، شدنى ومازال يشدنى عبق التاريخ ونسمات الثقافة والحضارة التى تكاد تشمها فى مبانيها وشوارعها بل وحاراتها وازقتها العتيقة، وفى كل ركن منها تقف مبهورا مأخوذا أمام أثر ثقافى أو فكرى... فى هذا المنزل المواجه للبلدية كان يعيش جوته العظيم.. كل شئ فى مكانه.. المكتب، السرير، المكتبة.. حتى ريشة الكتابة وبعض الأوراق بخط جوته نفسه...، وفى شارع اخر لايبتعد عشرات الامتار يشدك منزل صغير من طابقين، كان يعيش فيه الشاعر الكبير فردريك شيللر صديق ورفيق جوته..

وفى ركن آخر من المدينة، منزل ڤيلان الفيلسوف والمفكر الالمانى، ثم فرانز لست الاستاذ والمعلم للموسيقى الاوربية المعاصرة، وفى هذه القاعة العتيقة كان يعزف سباستيان باخ على الارغن منذ أكثر من مائتى عام.. وعلى خشبة هذا المسرح تحركت شخصيات «فاوست» و«وليام تل» و «جان دارك» وبحضور المبدعين الكبيرين جوته وشيللر. ويجتاحك الاحساس أنك ترتمى فى حضن الثقافة نفسها تمارس معها انسانيتك الحقيقية وتتفتح كل حواسك لترى وتسمع وتفكر على هدى هؤلاء الائمة الذين اثروا التراث الحضارى الانسانى كله..

ارتبطت مدينة فايمر بجوته منذ أن جاء اليها فى النصف الاخير من القرن الثامن عشر (١٧٧٥) بدعوة من أميرها المحب للثقافة والفنون ليصبح رئيسا لمجلس الولاية أو بتعبيرنا المعاصر رئيسا للوزراء، ومنذ ذلك التاريخ وحتى سنة ١٨٣٢ عندما مات جوته تحولت فايمر إلى مركز اساسى لحرية الثقافة والفكر فى أوربا ولعبت دورا تاريخيا.

الالمان يعتزون بجوته ويقدسونه، وفى استفتاء اجرى فى اواخر السبعينات عن اهم شخصيه فى التاريخ الالمانى كله القديم والمعاصر اختار الالمان فولفجانج فون جوته ... الشاعر والكاتب الروائى والمسرحى والعالم والفيلسوف والرسام ورجل الدوله ...

وفى الاحتفال الكبير الذى اقيم فى المسرح القومى فى فايمر قال وزير الثقافه فى المانيا الديمقراطيه اننا نعتز بهذه العبقريه الانسانيه الفذه تلك الموهبة المتعددة الجوانب والتى اثرت التراث الالمانى والانسانى كله فى العلم والثقافة والفن والسياسة.

ويوضع جوته ضمن خمسة من أعظم شعراء البشرية على الاطلاق «هوميروس، فرجيل، عمر الخيام، شكسبير، جوته»، فلقد كتب العديد من القصائد الشعرية كما كتب حوالى عشر مسرحيات شعرية تعد كل واحدة منها من عيون الشعر العالمى.

وماتزال بروميثيوس وكذلك «فاوست» تبهر النقاد والمبدعين بتلك القدرة الخلاقة فى البناء الشعرى الذى يتوافق فيه اللفظ مع الموسيقى والتى تصب فى النهاية فى مضمون انسانى عميق فهو يتناول فى بروميثيوس تلك الاسطورة الاغريقية القديمة لذلك الاله الذى ثار على رب الارباب «زيوس» وترك السماء ونزل الى الأرض ليعيش مع البشر وليعلمهم كيف يشعلون النار رمزا للمعرفة والنور..

ويثور زيوس ويقرر الحاق العقاب بالاله الانسان الذى قرر اختيار الحياة على الارض مع البشر يعلمهم اسرار الحياة، ويرسل زيوس زبانيته ليشدوا وثاق بروميثيوس الى صخرة، ويأتى نسر كبير لينهش كبده، ثم ينمو له كبد جديد ليأتى النسر وينهشه الى مالا نهاية. اختار جوته هذه الاسطورة وكتب واحدة من أجمل اللوحات الشعرية على الاطلاق دفاعا عن البشرية والانسان وحقه فى العلم والمعرفة..

وقد قرأت بعض أعمال جوتة فى الجامعة، ولا احسب اننى انفعلت قدر هذا الانفعال وانا اقرأ رفض بروميثيوس العودة الى جبل الاوليمب ورده على نداء زيوس رب الارباب الذى نزل الى الارض ليقنعه بالعودة.

اذهب... اذهب بعيدا..

اذهب الى سمائك وسحبك يازيوس

ودعنى على هذه الأرض، فهى لاتقع فى حدود مملكتك

ليس هناك افقر منكم ايها الالهة..

تعيشون فى سمائكم، وغيبوبتكم..

فى تعال ليس له مايبرره..

بعيدا عن المشاعر والانسان

لماذا أقدسك؟

انك لاتعرف كيف تتألم

أو كيف تمرح

دعنى مع هؤلاء البشر

انهم أهلى ورعيتى..

سأعلمهم كيف يضحكون، وكيف ينفعلون

وكيف يعلمون ويفعلون..

وسأعلمهم ايضا الا يقدسوك

لانك وهم منتفخ

لاتستطيع لهم شيئا

واذا كان جوتة فى بروميثيوس قد انحاز للانسان ضد الالهة، وللحرية ضد القهر والطغيان، فإنه فى فاوست دافع عن حق الانسان فى العلم والمعرفة بلا قيود أو حدود..

فهنا ايضا يستخدم اسطورة شاعت فى أوروبا فى القرون الوسطى عن عالم تملكه الرغبة العارمة للمعرفة فعقد صفقة مع الشيطان «مفيستو» يحقق له فيها الشيطان كل نهمه للمعرفة والاكتشاف والعلم فيطير به الى جميع انحاء العالم ويخترق به الماضى والحاضر ليقابل بعض مشاهير التاريخ وليطلعه على بعض اسرار المستقبل فى مقابل ان يقبض الشيطان روحه بعد ذلك.. طور جوته الاسطورة وجعل من فاوست نموذجا لمعاناة البحث عن الحقيقة والمعرفة وتجسيد الرغبة الانسانية المشروعة فى الحرية والعلم والاكتشاف..

حلوة.. حلوة..

بها بعض المرارة والجهد..

ولكنها مرارة الحقيقة الحلوة

ليس علينا ان ننتظر حتى تأتى..

علينا أن نسعى لها ونكابد..

يالروعة العقل حين يتجدد مع الهواء الطلق

فى حركة.. حركة دائمة

ومثلما كان جوتة شاعرا عظيما كان روائيا كبيرا ففى «الام فيرتر» «وسنوات تجوال فيلها لم مايستر» اطلق جوتة صرخة احتجاج انسانى مدوية ضد الظلم والطغيان واعلن الانحياز للانسان البسيط الذى يعانى فى ذلك الوقت فى مواجهة عنف وتسلط امراء وأباطرة وقياصرة ذلك العهد، مثلما كان رساما عظيما كذلك ابدع اكثر من ١٢٠٠ لوحة فنية بعضها بالزيت حول موضوعه المفضل الانسان والطبيعة فهو مفتون بالاثنين مؤمن بأنهما يمثلان قصيدة هارمونية متكاملة ومتوحدة عندما تتوافر ارضية من الحرية والقوة..

كما كان عالما طبيعيا له العديد من المؤلفات والاكتشافات العلمية ونظريته فى الالوان الاصلية والفرعية هى النظرية العلمية المعتمدة الان لكل من يدرس علوم الطبيعة والكيمياء.. بقى جانب هام فى تلك الشخصية الفذة، فجوته يعتبر بكل المقاييس ليس فقط من أوائل المستشرقين فى أوربا بل وأكثرهم انصافا للفكر والثقافة العربية وقرأ لابن رشد والفارابى وابن سينا والكندى.. وفى كتابه «ملحمة الشرق والغرب» عكس فهما عميقا للتراث الثقافى العربى وأوضح دور هذا التراث فى تطوير الثقافة الاوروبية المعاصرة كما عكف على دراسة القرآن وكتب عنه، كما شرع فى كتابة مسرحية عن «النبى محمد» الذى كان معجبا به بدرجة كبيرة.. وبعد كل هذا، الم يكن لدى الحق فى أن أترك كل شئ لأشد الرحال الى فايمر لاشهد ذلك الاحتفال التاريخى بهذا الهرم الثقافى الكبير

هذا الرجل الذى سأله أحد اصدقائه.

- من انت ؟.. وماذا تحب أن يقول الناس عنك.

فأجاب

- أحاول أن أكون انسانا.. واتمنى ان يقول الناس اننى لم أكف عن المحاولة حتى الرمق الاخير..

اننى ادرك تماما لماذا يشدنى هذا المبدع العملاق، ولماذا كنت ومازلت احرص فى أى اجازة أو فى أى فرصة متاحة ان أذهب الى فايمر التى اصبحت بالنسبة لى أشبه بمعبد مقدس..

حفظت شوارعها وحواريها وازقتها العتيقة وكونت شبكة من الاصدقاء هناك حتى انى لم أعد فى حاجه الى ان احجز غرفة فى فندق «الايلفانت» التأريخى، لقد كانت حياة جوته نفسها اضافة الى ابداعاته، تشدنى وتبهرنى وتخاطب اعماقى، فهو واحد من القلائل الذين امتلكوا الحلم والقدره على تحقيقه، وضع التصور النظرى وقام بالتطبيق العملى فى نفس الوقت..

ولم تكن الكلمة منفصلة عنده عن العمل أو مجرد طلقة انذار أو تنبيه أو تحذير بل تحولت الى حركة دافقة وطاقة مبدعة ومنتجة..

ولهذا لم يكن غريبا أن يتوقف نابليون بونابرت بجيوشه على أطراف مدينة فايمر ليطلب لقاء مع جوته قبل أن ينطلق جيشه الفتى فى ذلك الوقت ليجتاح الولايات الالمانية.. وحينما ابدى القادة العسكريون الفرنسيون دهشتهم لاوامر قائدهم المنتصر قال نابليون.. ان هذا الرجل هو الذى اخشاه، واطمع فى أن يفهم اهدافى لانه كان يبشر بها..

وجرى ذلك اللقاء التاريخى فى مدينة ابرفورت فى اكتوبر سنة ١٨٠٨ على بعد بضعة اميال من فايمر، واجتمع الرجلان الكبيران لمدة يومين متتالين حاول فيهما نابليون أن يقنع جوته بأن جيوشه ماجاءت الا لتحرير المانيا من الاستبداد والاقطاع مثلما كان يدعو جوته..

والواقع ان جوته، مثله مثل صديقه شيللر، كان من أكثر الناس حماسا للثورة الفرنسية ولنابليون فى مرحلته الاولى، إذ كانت شعارات الحرية والاخاء والمساواة التى انطلقت على ضفاف السين تقترب من احلام وطموحات جوته فى تخليص فارتر من الامة وفاوست من خطيئته وبروميثيوس من عذابه. ولكن جوته كان قد بدأ يفقد حماسه لنابليون وخاصة وبعد أن تحول هو نفسه الى امبراطور وتخلى عن مبادئ الثورة نفسها..

وسجل جوته فى مذكراته «الشعر والحقيقة»

ان هزيمة نابليون سنة ١٨١٥ لم تكن نتيجة تفوق الجيوش الاوروبية الاخرى التى تحاربه بل لأن نابليون كان قد هزم نفسه بنفسه حينما تخلى عن القيم الجديدة التى بشرت بها الثورة الفرنسية.

***

عدت من فايمر هذه المرة مشحونا بطاقة متجددة فى امكانية ان تشرق الشمس مرة أخرى ولاتغرب وتجسدت لى أفكار وطموحات جوته بشكل مصرى أو عربى..

وفى ذات الليلة التى عدت فيها الى برلين جلست الى مكتبى ليلة كاملة احاول ان اعبر عما اختمر فى ذهنى ووجدانى طوال الشهور الماضية..

ولأول مرة أكتب امامى عنوان المقال قبل أن أبدأ..

مبارك ليس السادات

دعوة مفتوحة الى المثقفين المصريين والعرب..

قلت في هذا المقال الذى نشر فى جريدة السفير فى أوائل فبراير ان ماحدث فى مصر يمكن أن يكون بمثابة تباشير جديدة لعهد جديد..

ليس فى مصر وحدها بل وفى العالم العربى كله..

وأنا لا أردد هنا كلمات ضخمة رنانة وشعارات مدبلجة تتحدث عن الثورية والنضالية والتحررية... و... و... والى كل ماينتهى بحرف «يه»...

والتى رددناها طوال الثلاثين عاما الماضية حتى فقدت معناها بعدما فقدنا نحن الاحساس بالعمل بها..

اننى أعنى شيئا ابسط وفى نفس الوقت أعمق..

أعنى تلك الخطوات التى تحاول ارساء قاعدة لديمقراطية حقيقية فى مصر.. قاعدة تبنى وتواصل مبدأ الحوار والاختلاف والاتفاق لكل مصرى ومصرية بعيدا عن مخاوف الكبت والقهر ومخاطر التعذيب الجسدى أو النفسى..

اننى اكتب هذا وقد جرت فى مصر فى الأشهر الاربعة الماضية بعد أن تولى حسنى مبارك رئاسة الجمهورية أمور كانت منذ شهور قليلة تعدِ ضربا من الخيال المستحيل..

أقطاب المعارضة يخرجون من السجن الى لقاء مع مبارك فى القصر الجمهورى.. صحف المعارضة تعود الى الظهور من جديد..

الدعوة لمؤتمر قومى لكل الاحزاب والتيارات السياسية لمناقشة خطة عمل للوضع الاقتصادى فى مصر..

وقف الهجوم على أى دولة عربية

الشعار البسيط الذى رفعه حسنى مبارك ويحاول تحقيقه عمليا باجراءات متتالية بأن «مصر للمصريين».. لكل الاحزاب.. لمن يتفق أو يختلف..

ولست هنا فى مجال الحديث أو الدفاع عن حسنى مبارك، فقلمى لم يطاوعنى طوال الخمس والعشرين عاما الماضية والتى احترفت فيها الكتابة أن أكتب لامجد شخصا ولقد عرفت الرجل عن قرب عام ١٩٧٣ وجلست اليه ليلة كاملة اسمع عن حرب أكتوبر، ولعل هذا كان أول

اقتراب حقيقى مع جنرال من المؤسسة العسكرية واستسمح القارئ فى بضعة سطور أروى بها وبسرعة حكاية صغيرة لها مدلولها..

كان ذلك فى الأيام الاخيرة التى سبقت حرب أكتوبر، وكانت الطائرات الاسرائيلية قد قامت باختراق حاجز الصوت فوق القاهرة مما سبب انزعاجا شديدالرئاسة الجمهورية فى ذلك الوقت اذ خشيت ان تكون اسرائيل قد كشفت الاستعداد الذى كان يجرى لعملية العبور وحاول حسنى مبارك قائد سلاح الطيران فى ذلك الوقت أن يقنع الرئاسة المنزعجة ان ماقامت به الطائرات الاسرائيلية هو من قبيل الاستعراض المظهرى وان اختراق حاجز الصوت مسألة عادية يمكن ان يقوم بها أى طيار مدرب..

ولما أحس أن الرئاسة لم تقتنع وتطالب بإتخاذ اجراءات معينة مثل فتح باب التحقيق فى هذا الموضوع الامر الذى كان يعنى فى ذلك الوقت الحرج ارباكا شديدا لكل الاستعدادات التى كانت قد اوشكت على الانتهاء، وجد حسنى مبارك نفسه فى موقف حرج لايحسد عليه، ولم يكن لدى مصر فى ذلك الوقت سوى عدد محدود من طائرات الميج التى تستطيع اختراق حاجز الصوت، والطياريون المدربون عليها كانوا فى أماكن مختلفة وفقا للخطة، لذلك اتخذ مبارك قرارا فيه قدر كبير من المغامرة المحسوبة، فقد جهز نفسه واستقل طائرة ميج واختفى فى الجو لمدة نصف ساعة وحينما عاد الى مكتبة كانت الرئاسة مرة أخرى على الخط وتتساءل عن الانباء التى اذاعتها الاذاعة البريطانية بأن طائرة ميج اخترقت حاجز الصوت فوق تل ابيب..

وطمأن مبارك الرئاسة بأن الطائرة كانت مصرية ولكنه لم يقل أنه هو الذى كان يقودها ولعل هذه الحكاية تقدم المفتاح الاساسى فى فهم هذه الشخصية..

العمل والانجاز اولا، ثم تأتى الكلمة لتعبر تماما عن العمل المنجز..

والآن.. ماذا بعد..

ان هناك فرصة سانحة لتأكيد مبدأ الحوار والديمقراطية ولاسترداد انسانية الانسان المصرى والعربى القادر على تحقيق التقدم والتطور.

وأخشى ما أخشاه أن يغرقنا البعض أو نغرق نحن أنفسنا بالنهج القديم فى تناول الامور فنجد أنفسنا وقد ضاعت منا الفرصة التى لاحت تباشيرها..

اننى ادعو وبملء الفم كل المثقفين والمفكرين المصريين والعرب وخاصة العقائديين منهم لدراسة واستيعاب درس الثلاثين عاما الماضية من خلال منظور الديمقراطية وحرية الحوار

لقد بررنا نظرية «الحزب الواحد» تحت دعاوى الوحدة الوطنية والظروف الخاصة لمجتمعات العالم الثالث..

وشطرنا الديمقراطية نصفين وجعلنا واحدة اسمها الديمقراطية الاجتماعية والاخرى الديمقراطية السياسية..

ونسينا ان الوحدة الوطنية، هى وحدة الارادة الحرة لكل المواطنين وهى بالتالى لاتتحقق الا بالتعددية والديالوج الديمقراطى وليس المونولوج الموحد النغمة والكلمة..

وان القضايا القومية والمصيرية هى القضايا التى حسمها كل المواطنين وليس فردا أو مجموعة افراد أو حتى حزب واحد مهما ادعى لنفسه الكمال والنضج..

وكانت الحصيلة الطبيعية، وبعد ثلاثين عاما، ان قضايا التحرر والتقدم الاجتماعى مازالت مطروحة دون حل جذرى وعلى جدول الاعمال.

ولقد ضاعف من ذلك كله الازدهار «المؤقت» لمرحلة البترودولار التى اجرت فى واقع الامر تغييرا عبثيا فى كل القيم السائدة، فهناك رؤوس اموال هائلة تتراكم وبمعدلات غير مسبوقة فى مجتمعات كانت تعيش حتى سنوات قليلة مضت فى علاقات قبلية أو عشائرية وعموما كان تطورها يقف عند مراحل ماقبل الرأسمالية..

وهذا التراكم الرأسمالى الهائل والسريع لم يأت من خلال تطور قوى الانتاج أو علاقاته ووسائله، الامر الذى خلق وضعا جديدا تماما لاتستطيع كل النظريات السابقة ماركسية كانت أم رأسمالية أن تشرحه..

وعلينا ان نتوقع، وهو حادث بالفعل، ان هذه المرحلة المؤقتة ستفرز قيما غيبية وعتيقة وستدشن الصراعات العشائرية والمذهبية والدينية على حساب الصراعات القومية والطبقية كما ستقدم قيم الكسب السريع والطفيلى على حساب قيم الانتاج والعمل والجهد. ولكل هذا وفى مواجهة كل هذه المخاطر فإن هناك اربع قضايا رئيسية مطروحة للنقاش امام كل المثقفين والمفكرين العرب بمختلف اتجاهاتهم ومنابعهم الفكرية سواء كانوا اشتراكيين أو قوميين أو ليبراليين أو متدينين..

أولا : قضية الليبرالية فى مصر والعالم العربى.. فلقد زرعنا فى نفوسنا وفى كلماتنا كراهية الليبرالية السياسية متأثرين بتجربتها الاوربية، وحذرنا من أن الليبرالية فى أوربا أوصلت الى الامبرالية والاحتكار، ونسينا الفروق التاريخية الكبيرة بين نشأة البرجوازيات الاوربية ونشأة وتطور البرجوازية المصرية والعربية..

وتحت حمى نقل النظريات دون استيعابها، وتجاهل التطورات التى طرأت على العالم كله وغيرت الكثير من أوضاعه السابقة، نسينا أن سلاح الحريات السياسية كان ومازال أقوى سلاح فى يد قطاعات واسعة من الشعب العربى فى السعى وراء تقدم حقيقى لهذه المجتمعات

وفى مواجهة تحديات الامبريالية والصهيونية، وتشهد على ذلك وتؤكده تجربتنا فى مصر منذ كان مطلب وسلاح ثورة عرابى الدستور والحريات، مرورا بثورة سنة ١٩١٩ التى ربطت الاستقلال بالدستور، ولطالما كانت الحركة الوطنية المصرية ومعها الحركة الوطنية العربية، تتنفس وتنتعش بانتعاش الليبرالية السياسية، وتنتكس وتتقوقع بضرب الليبرالية وتكميم الافواه.. والثابت انه، وعلى نطاق العالم الثالث كله، فإن تجربة الليبرالية السياسية فى الهند هى التجربة الوحيدة المتصلة والناجحة نسبيا

انها قضية تستحق اعادة النظر والتحليل.. اليس كذلك..

ثانيا : ويرتبط بهذه القضية الكف عن تجزئة الديمقراطية وشطرها الى نصفين، مايسمى بالديمقراطية الاجتماعية والديمقراطية السياسية فمن البديهى ان الحقيقة الواحدة لاتتجزأ ووجه واحد للعملة يفقدها قيمتها..

ولقد اجهد بعض المثقفين واجهدونا معهم فى الفصل بين الوجه الاجتماعى والوجه السياسى للديمقراطية مبررين بذلك بدعوات نظرية متعددة الاسلوب الفردى فى الحكم. فالاصلاح الزراعى مثلا اجراء ديمقراطى فى صالح الفلاحين ولكنه يفقد ديمقراطيته وفاعليته اذا لم يكن معتمدا فى التنفيذ والتخطيط على حركة الفلاحين الحرة والمنظمة.

ويقاس على ذلك كل الاجراءات من هذا النوع «التأميم - القطاع العام» بل انه من الثابت ان هذه الاجراءات فى ظل انعدام حركة جماهيرية منظمة وحرة، تفرخ اخطر اشكال الاستغلال واكثر الفئات البيروقراطية والطفيلية عداء لمصالح الجماهير والواقع على مأأقول شهيد فى مصر وفى العالم العربى..

ثالثا : الفكر الدينى : فلاشك أن الفكر الدينى المتحرر لعب ومازال يمكنه ان يلعب دورا ايجابيا فى مراحل تطورنا الراهنة وفى المستقبل. وفى التاريخ المصرى والعربى الحديث خرج من احضان الفكر الدينى والازهر مجددون عظام من أمثال محمد عبده وسعد زغلول وطه حسين وعلى ومصطفى عبد الرازق ومئات المفكرين فى مصر والعالم العربى الذين اثروا حياتنا الثقافية والفكرية والروحية..

فهناك من ناحية اختلاف تاريخى ومرحلى لدور الدين عندنا عن الدور الذى لعبه فى أوربا لاسباب كثيرة..

ومن ناحية أخرى فإن الفكر الدينى المتحرر يلعب دوره الايجابى فى ظل الحوار والديمقراطية، ويتجمد وينكمش فى ظل الكبت والارهاب وتتحول قطاعات منه الى اداة للكبت والارهاب وتخرج لنا فقهاء الحكام بديلا عن مفكرى الشعب..

رابعا : قضية الارهاب : ان الارهاب والحركات السرية المتشنجة هى نتيجة قبل أن تكون سببا، وتتوافر الظروف الخصبة للارهاب حين تتوقف اساليب الحوار الديمقراطى فى المجتمع، وحين تبدأ الدولة نفسها معتمدة على اجهزتها، أو حتى حزبها الوحيد، فى قمع المعارضة والخصوم..

والحكم الفردى، ايا كانت الشعارات التى يرفعها هو الذى يولد الارهاب والارهاب المضاد وهو الذى يخلق التنظيمات السرية باختلاف اشكالها وانتماءاتها ويحول الصراع الحر والصحى بين صفوف الجماهير، الى صراع مريض تحت الأرض وبعيدا عن الجماهير.. وتؤكد التجربة، ان المناقشة والحوار على أسس ديمقراطية ثابتة هو المخرج الاوحد من ادغال الارهاب والارهاب المضاد سواء كان هذا من جانب الدولة أو من جانب بعض الافراد والجماعات.

انها رؤوس موضوعات تتطلب الكثير والكثير من البحث والمناقشات، وهى دعوة لكل المثقفين المصريين والعرب على اختلاف افكارهم واتجاهاتهم، اشتراكيين وقوميين وليبراليين ومتدينين بان يتحدوا ويتكاتفوا بصفة رئيسية فى اعتماد الحوار والحوار الديمقراطى وسيلة وحيدة للاختلاف والاتفاق..

وانا ازعم ان ٩٠٪ من المثقفين فى مصر والعالم العربى وبمختلف اتجاهاتهم يمينا أو يسارا تعرضوا لشكل من اشكال الاضطهاد وحتى هؤلاء الذين كانوا يبررون أو يدافعون عن هذا النظام أو ذاك كانوا يجدون انفسهم فجأة مسجونين أو مطرودين أو ممنوعين عن الحديث والكتابة لسبب أو لاخر..

فليس هناك ضمان لانسانية الانسان تحت ظل الحكم الفردى.. وبالتالى ليس هناك تحرر أو تقدم تحت ظل مثل هذا الحكم ايا كانت الشعارات التى يرفعها.. وكفانا استلابا وتعذيبا للنفس..

نشر المقال فى أوائل فبراير فى السفير..

وبعد أيام قلائل بدأت القذائف من جميع الاتجاهات..

وانهالت على الشتائم والاتهامات مرة تحت دعوى اننى قد هجرت النضال والافكار النضالية بعد استمتاع بحياة اوربا اللذيذة..

ومرة تحت دعوى اننى سقطت فريسة فى يد الرجعية فادافع عن الديمقراطية البورجوازية ومرات تحت دعوى اننى اصبحت اروج للنظام المصرى العميل، وان الهدف من كل ماكتبت هو تجميل وجه حسنى مبارك الذى جاء به الامريكيون ليواصل سياستهم فى مصر..!! وكم كان قاسيا على النفس، وأيضا على القلب، ان يخرج أحد المصريين من جماعة مستثمرى النضال

فى الخارج، بمقال على صفحة كاملة فى الجريدة ليشن هجوما جارحا على شخصى تحت عنوان «دعوة مفضوحة لتأييد مبارك»

ولم تكن القسوة والمرارة التى احسست بها نابعة عن الكلمات التى استخدمها، ولكن لأنه هو بالذات كان من أكثر الناس ارتباطا بى بالقاهرة وأكثرهم حماسا واطراءا لى..

لقد كان يعيش فى أحد العواصم العربية يقضى معظم وقته متجولا فى ربوع أوربا ينزل افخم الفنادق وينفق عن سعة، ولقد زارنى مرتين فى برلين ورأى بعينه أحوالى المادية المتردية وحاول اقناعى بحلوله الناجعة ولاعمل معه فى الجبهة التى ترعاها وتمولها العاصمة العربية التى يعيش فيها.

وحينما سهرت معه ليلة كاملة فى منزلى فى برلين اشرح له بأن مصريتنا ليست ولايمكن ان تكون معروضة للبيع تحت اى ظرف.. واننى عندما تضيق على الحال فلن اتردد فى أن احزم امتعتى واذهب الى القاهرة، قال وهو يعب من زجاجة الويسكى كأنها ماء قراح فى لهجة المغلوب على أمره..

– قلبى معك.. ولسانى عليك..

ولكن لسانه كان وقحا هذه المرة

غفر الله له

هاهـم هـناك ..
فى المواطن والمنافى والمهاجر
يبكون أعـراس موتاهـم
تهـز الأرض دبكـتهم
ولنـا التمزق والتفجروالجنون

سميح القاسم

أغسطس سنة ١٩٨٢

وبدون ترتيب سابق، وقافزا فوق كل المواعيد التى رتبت والقضايا الكثيرة التى كان على ان اجد حلا لها، رأيت نفسى مدفوعا لأن اطير صباح ذات يوم من أيام ابريل الى القاهرة..

رأيت برنامجا عن سيناء فى تليفزيون المانيا الغربية قبل ان تجلو القوات الاسرائيلية اقنعنى على الفور انه حرام على أن أكون على بعد الاف الكيلومترات فى بلدى فى تلك الايام التاريخية..

كان البرنامج يعرض لبعض المستعمرات الاسرائيلية التى اقيمت فى سيناء فى فترة احتلالها وخاصة مستعمرة ياميت التى تقع بين رفح والعريش..

وقد استفزنى البرنامج بدرجة عالية فهو يركز على الذين استوطنوا المستعمرة واعلنوا انهم لن يغادروها لان عرقهم ودمائهم سالت على هذه الارض حتى استطاعوا ان يخلقوا جنة خضراء وسط الرمال!!، وكانت الكاميرا فى تحركاتها تؤكد هذه المعانى الغريبة، فهى تنتقل من البيوت الانيقة والمزرعة المحيطة بياميت الى قرية بدوية مجاورة لنرى امرأة بدوية تجرى وراء قطيع من الماعز وأطفال حفاة عراة يلعبون بين الخيم المهلهلة..

المستوطنون والهنود الحمر.. هذه الفكرة الكولونيالية التى سوقوها وروجوا لها وقدموها زريعة ومبررا لكل عمليات النهب والابادة التى تعرضت لها الشعوب..الحضارة تأتى دائما مع الرجل الابيض.. الوافد الجديد، اما الاهالى أو اصحاب الارض الاصليين فيتحولون بقدرة بعض دوائر الاعلام الغربى الى هنود حمر مصيرهم الانزواء والفناء أو الابادة التاريخية..

اتخذت القرار بالليل وفى اليوم التالى كنت فى القاهرة لاستقل الاتوبيس الى العريش ولارى العلم المصرى يرفع بعد غياب دام اكثر من خمسة عشر عاما على رفح..

وحكايتى مع سيناء ارتبطت فيها الكثير من العوامل الوطنية والتراثية على مدى الثلاثين عاما الماضية..

فبعد اعتقالى سنة ١٩٥٩ لم تستطع اختى مواصلة الحياة فى القاهرة وأصيبت بحالة نفسية جعل زوجها يطلب نقله الى العريش ويصطحبها معه لتغيير الجو وبناء على نصيحة الاطباء..

وعندما خرجت من المعتقل بعد أكثر من خمس سنوات، قمت بأول زيارة فى حياتى لشبه الجزيرة التى كانت معلوماتى عنها مثل المعلومات التى كانت متاحة لكل المواطنين انها مجرد مساحة متسعة من الرمال والجبال تتخللها بعض مضارب البدو مع بعض الحقائق التاريخية ابتداء من هرب موسى وبنى اسرائيل من مصر خلالها حتى دخول العرب والاتراك الى مصر عن طريقها..

وعندما احتلت سيناء سنة ١٩٥٦، كنت ايامها طالبا فى الجامعة، كان احتلال تلك الرقعة الشاسعة المبهمة يثير الحماس الوطنى ولكن ودعنى أعترف أن وطأة هذا الحماس الذى دفعنى [illegible] كان ثقيلا للغاية بعد احتلال بور سعيد. واحسست بينى وبين نفسى ان مشاعرى [illegible]ثنائية تفرق بين جزء من الوطن لا أعرفه، وجزء مشيت بالفعل على ترابه. وتكررت زياراتى لسيناء فى الستينات وزاد احساسى بها وبدأت تدخل فى دمى كجزء حقيقى وأصيل من أرض الوطن وليست مجرد فكرة تاريخية معتقة، وكتبت ايامها اطالب بالاهتمام بهذه الرقعة الغالية من أرض الوطن وتنفيض التراب عنها واشاعة الحياة فيها..

فلقد ادركت ايامها ان هناك خطأ قاتلا موروثا فى اهمالها لابد من تداركه، فهى ليست مجرد البوابة الشرقية الى مصر، كما أن اهميتها الاستراتيجية لاتكمن فقط فى الجانب العسكرى، بل انها يمكن أن تتحول الى رئة حقيقية تتنفس مصر كلها من خلالها. وطالبت بالغاء التصاريح العسكرية التى كان لابد ان يحصل عليها الانسان لكى يقوم بزيارة سيناء باعتبارها منطقة عسكرية، كما طالبت بوضع مشروعات زراعية وصناعية طموحة لالحاق سيناء بوادى النيل ولتغيير طبيعتها الجغرافية والسكانية..

ثم جاء العدوان الاسرائيلى فى يونيو سنة ١٩٦٧ وخيم ظلال الاحتلال الاسرائيلى الثانى بعد أن ارتوت صحراؤها بدماء عشرات الالوف من الضباط والجنود..

وتفجر الاحساس الشعبى بالألم وأيقن الجميع الخطأ الفادح الذى وقعوا فيه والذى جعل من

تلك الأرض الغالية لقمة سائغة يستطيع ان يبتلعها بسهولة اى غاز أو معتد بدلا من أن تكون قلعة بشرية انتاجية تحمى نفسها وتحمى مصر معها..

ولكن الامى كانت مضاعفة مع الاحتلال الثانى، فمع فقدان سيناء فقدت الاتصال بأختى وزوجها وأولادها لفترة امتدت لاكثر من ستة شهور عشت ايامها كعديد من المواطنين الذين فقدوا اهلهم على أرض سيناء ولم يعرفوا عن مصيرهم شيئا، فى عذاب قلق ومتصل. وعرفت من خلال هذه التجربة المريرة انه ايسر على النفس والعقل ان تعرف مصير من يحبهم القلب حتى ولو كان هذا المصير يعنى الموت، من ان يتوه خيط الاتصال بهم وتظل معلقا على حبال واهية متقطعة من الأمل واليأس..

وظللت أحمل هذا الهم الثقيل متنقلا مابين الاذاعة والصليب الاحمر اكتب الرسائل واسجلها بصوتى أحيانا فى انتظار رد أو خبر أو حتى اشارة رمزية من أختى وزوجها وأولادها..

وكان أبى رحمة الله يضاعف احساسى بالألم والمرارة فى ذلك الوقت، فلقد ترك الرجل القرية التى استقر بها بعد احالته الى المعاش وجاء ملهوفا مأخوذا الى القاهرة يتابع اخبار ابنته الوحيدة وقلبه يتمزق ودموعه التى كانت عزيزة من قبل تملأ عيونه بشكل دائم وهو يبادرنى صباح مساء بسؤاله الحزين.

- ايه أخبار أختك وأولادها..

وسقط فريسة لمرض الحزن والاكتئاب المكثف وقد أثرت عليه تلك الصدمة بشكل قاتل. وحينما ركعت بجوار سريره فى ليلة من ليالى اكتوبر سنة ١٩٦٧ ازف اليه البشرى التى كنت قد عرفتها للتو بأن أختى وزوجها وأولادها قد وصلوا مساء اليوم بور سعيد بعد رحلة هرب خلال الصحراء من العريش استمرت عشرة أيام ساروا فيها على الاقدام وكابدوا فيها الاهوال انبسطت اساريره ونطق بصوت خافت.. الحمد لله.. الحمد لله ثم فاضت روحه..

لهذا كله طرت من برلين الى رفح لارى علم مصر يرتفع مرة أخرى على تلك البقعة الغالية وظللت اراقب فى مواجهة قرص الشمس العلم وهو يتحرك فى قفزات الى أعلى وأنا فى حالة من النشوى الغريبة بل وجربت تلك المشاعر الصوفية التى يتوحد فيها الزمان والمكان والتاريخ والجسد والابدية ورأيت وجه ابى مطبوعا على العلم الذى يرفرف حرا طليقا فى مواجهة سماء صافية عميقة وممتدة.

وافقت على هزة فى الكتف من مصطفى زوج اختى الذى كان يحضر هذا الاحتفال المهيب باعتباره احد مسئولين فى المحافظة وهو يقول

- مالك .. فيه أيه.. دموعك تجرى طول الوقت

قلت له في بهجة

- .. لقد رأيت أبى.. هل تصدق..

وجلست ليلتها في بيت أختي في العريش اكتب مقالة «ياميت التى كانت» والتى نشرت في جريدة الجمهورية قلت فيها فلتكن هذه اخر مرة يقال فيها ان هناك من احتل سيناء وفصلها عن الوطن الأم، ولنكف عن ترديد المزامير والاناشيد عن الفرحة بعودة سيناء وترديد المقولات التقليدية عن التعمير وليكن قرارنا هو الحاق شبه الجزيرة الغالية بالوادى، لننقل اليها مياه النيل في شبكة واسعة من الترع والقنوات ولتغطيها شبكة كثيفة من المواصلات الحديدية وغير الحديدية وليذهب اليها مع كل هذا فلاح الوادى ليزرع ويعمر وينشر الخضرة والحياة..

وبقيت اسبوعين بين العريش والقاهرة احاول ان اتنسم وبشكل عملى وعلى الطبيعة ملامح العهد الجديد أو الجمهورية الثالثة أو الرابعة على حد تعبير البعض. وتأكد لى ماسبق ان كتبته من أن هناك عصرا جديدا يبدأ في مصر بالفعل..

كانت حركة الشارع في القاهرة تبدو هادئة بعد الاحداث الدرامية التى واكبت تطورات الاحداث في العام الماضى، ولم يكن من الصعب ان تلمس رنة امل موحية تشى بها احاديث من التقيت بهم من الاصدقاء على اختلاف ارائهم السياسية..

صحف المعارضة تعود الى الظهور، والاحزاب تنفض عن نفسها ادران مالحق بها في العهد الماضى والرئيس مبارك يكسب تعاطفا حقيقيا بين الناس ويؤكد انه ليس عبد الناصر وليس السادات، ويبدو واضحا انه قد اختار قضية الديمقراطية لتكون رايته المميزة

وانا افتش في عيون الناس والاصدقاء عن اجابة لسؤال غير مسموع تمتلأ به نفسى..

البعض كان يفهم السؤال الذى اطرحه ولا يجيب..

واخرون المح على تعبيرات وجههم اجابة غير شافية.

ربما كان عبد الرحمن الشرقاوى هو الصديق الوحيد الذى فجر السؤال والجواب

- لم لاتعود.. الامر يستحق التفكير

كانت كلمات الشرقاوى البسيطة كفيلة بتحطيم ستار الصمت الذى كان مفروضا على أعماقى لم لا أعود..

كانت هذه القضية قد بدأت تطرح نفسها وتلقائيا ومنذ شهور..

أما آن الاوان للعودة..؟!

***

وقبل ان اغادر القاهرة هذه المرة ذهبت مساء الى الحارة الضيقة المتفرعة من شارع معروف وفى أعماق الحارة الغارقة فى الظلام والرطوبة وصلت الى حوش البيت القديم، وصعدت السلالم التى تآكلت درجاتها وانا اشم رائحة العرق والجهد والذكريات الذى امتلأ بها الحوش..

قلبى يرتجف وعقلى يموج بتيارات متلاحقة ووجهه وعينيه وابتسامته وضحكاته تملأ المكان والزمان وتصهر الحاضر والماضى فى توليفة ذات عبق خاص.. وطرقت باب الشقة العتيق وفتحت الباب امرأة لم تستطع ان تهدها السنون رغم بصرها الكليل وفمها الخالى الا من بضعة اسنان تفرقت دون ترتيب.. هى نفسها ام سيد.. المرأة العفية القادرة التى تشتبك يوميا مع الحياة فى معركة مضنية تخرج منها دائما منتصرة.. هكذا كان يصفها المرحوم.. يالغرابة الكلمة ووحشتها.. المرحوم..

ولما لم تستطع ام سيد أن تعيد التعرف على بسهولة قدمت لها نفسى ويبدو أنها أخذت تقلب وبسرعة فى الذاكرة حتى اكتشفتنى وصدرت عنها صرخة فرح مفعمة بالحزن العميق وهى تحتضننى بين يديها.

- الاستاذ صديق المرحوم.. اهلاً ياابنى، نورت.. فين ايامك وايامه..

ودخلت المحراب الذى قضينا فيه سويا سنوات نفكر وندبر ونعمل ونختلف ونتفق.. ووجدت نفسى امضى فى الشقة اتلمسه فى كل ركن..

كانت شقة قبارى عبد الله الصديق الغالى عضو مجلس الشعب، المناضل والانسان البسيط القادر على العطاء الذى اعتقله السادات ضمن من اعتقلهم فى سبتمبر الماضى ثم أفرج عنهم مبارك والتقى بهم فى القصر الجمهورى..

ولكن شيئا ما عابثا ساخرا لاهيا قدر له ان يموت فى حادث مفاجئ بعد شهرين فقط من خروجه من السجن..

وجلست صامتا حول المنضدة العتيقة التى طالما جلسنا حولها نفكر ونخطط للمجلة التى اصدرناها سويا ولمعاركة الانتخابية التى كان يكتسحها، وحين يأخذ بنا التعب والارهاق، تتحفنا ام سيد بطبقها المفضل..

شربة المواسير والفتة بالخل والتوم..

واحترمت ام سيد صمتى فلم تتكلم، ولعلها هى الاخرى غرقت فى ذكريات الماضى الذى لم يكن بعيدا..

ولا أدرى تماما هل قضيت ساعة أو ساعتين.. ولا أستطيع ان أحدد تماما هل كنت حزينا أو راضيا لأنى اجلس فى حضرته رغم غيابه..

لا أذكر أن دموعا انسابت من عينى، ولكن الذى اذكره بوضوح ان شوقا مستبدا عاتيا عصف بقلبى وتمنيت ان اراه ولو مرة بل كدت اجسد رؤيته.. قبارى العظيم..

وغادرت القاهرة فى اليوم التالى الى برلين.

***

ذهبت إلى مسرح البرلنير انسامبل الذى بناه العظيم الشامخ برتولد بريخت، وعمل فيه حتى الموت.. بعد أن حثنى كثير من الاصدقاء على ضرورة مشاهدة المسرحية الجديدة التى تعرض هناك للكاتب الشاب «فولكربراون»، الذى يعتبر نفسه احد تلامذة بريخت..

المسرحية اسمها (تنكا) وهى تقوم على شخصية محورية لفتاة شابة تعمل فى احد المصانع المملوكة للشعب تحمل اسم المسرحية..

والمؤكد انها مسرحية غير عادية، بل انها كانت مفاجأة لى..

والاغرب من هذا ان العرض يستمر دون أى محاولة للتدخل أو حتى للهجوم عليها رغم ان المسرحية تنتقد وبوضوح واحيانا بلهجة ساخرة مريرة كثير من السلبيات فى المجتمع الاشتراكى تنكا.. فتاة محملة بطاقة شبابية خلاقة، وتمتلئ بالمثل العليا حول خلق المجتمع الانسانى الذى تدعو اليه الاشتراكية حيث يكون كل شئ من صنع الشعب ومن اجل الشعب، ولكن هذه المثل والقيم النبيلة سرعان ماتصطدم بالواقع المرير الذى قد يكون احيانا معاكسا بل مناقضا لكل القيم التى آمنت بها المهندسة الشابة وهنا يكمن جوهر العمل المسرحى الخلاق الذى قدمه المؤلف من خلال تلك الرحلة الطويلة والصعبة التى تبدأها تنكا من خلال صراعاتها مع عدد من الشخصيات العامة المسئولة فى المصنع الكبير الذى يملكه الشعب..

رئيس مجلس الادارة البيروقراطى الذى يريد ان يكون كل شئ تماما «على السطح» بالرغم من أن كل القيم مهدرة، لايهمه سوى ان يقدم للمسئولين فوق ارقاما واحصائيات متناسقه عن زيادة الانتاج وسعادة العاملين بغض النظر عن أى شئ، ودون التحقق من هذه التقارير المصنوعة و المطبوخه

ثم هؤلاء الموظفين العاملين مع رئيس مجلس الادارة كل ميزتهم انهم يعرفون تماما كيف ينحنون ويبتسمون ويطرون بسخاء على أى كلمة هايفة ينطق بها المسئول الكبير، كل همهم أن يتقلوا اليه تقارير عن المشاغبين الذين ينتقدون من أمثال تنكا.. وكيف السبيل الى التخلص منهم.. ثم والاهم من ذلك «البروباجاندست» أو المسئول الحزبى فى المصنع.. شخصية باهتة ضحلة تردد كلمات ضخمة عن ملكية الشعب وزيادة الانتاج لصالح الجماهير والبناء الاشتراكى كما لو كان يقرأ نصوصا لايفهمها من كتاب لم يقرأه..

ثم لا يفعل شيئا سوى مساندة رئيس مجلس الادارة ومساعدته على تغطية بعض المشاكل حينما تحضر لجنة وزارية عليا للتفتيش..

ثم العمال والمنتجون الحقيقيون الذين يقعون فى تناقض شديد بين الواقع الذى يعيشونه والشعارات التى يسمعونها..

فيقعون فى بئر السلبية ومشاعر اليأس والاحباط..

وتصطدم تنكا بالمسئول الكبير والمسئول الحزبى وعصابة الكبار الذين يتشدقون بالكلمات ويسفحونها فى تصرفاتهم.. بل وتصطدم باللجنة الوزارية التى جاءت للتفتيش.. تحاول ان تتكلم عن الانسان الاشتراكى الحقيقى، الانسان الحر المنتج والمبدع الذى لايخاف ولاينافق.. تحاول ان تكشف الخلل والتجاوزات، ولكنها تحاصر من قبل الجميع الذين يعتبرونها عنصرا مشاغبا وغير مؤمن بالاشتراكية..

وتصل المأساة الى قمتها فى أن خطيبها وصديقها الذى يعرف تماما ان تنكا عندها كل الحق فيما تقوله يتنكر لها عند أول صيحة انذار من الديك.. فيهرب منها ويتخلص من علاقته بها، بعد أن قرر رئيس مجلس الادارة والمسئول الحزبى فصلها، بل ويسعى لتوطيد علاقته بفتاة اخرى مقربة «للغاية» من رئيس مجلس الادارة..

وفى المشهد الاخير الرائع تحاول تنكا ان تتماسك والا تفقد ادميتها رغم كل المعاول التى انهالت عليها لتنهشها وتهشمها، وتلتقى بخطيبها فى محاولة يائسة لاسترداد ذاتها بعد أن فقدته وفقدت عملها ووصمت بانها مشاغبة.

– قل لى.. دعك من كل ماحدث.. قد أكون مخطئة.. قد أكون قد تصرفت بغباء.. هل تحبنى.. هل مازلت تحبنى..

لا أتصور أن الدماء فى القلب يمكن ان تتحول هكذا وببساطة الى ماء بارد..

لقد كان لديك قلب.. المهم ان نبقى ادميين.. قادرين على الحب فالانسان هو الغاية والوسيلة هكذا تقول الاشتراكية الحقة اليس كذلك..!!

وينتهى المشهد بأن يضرب الخطيب المذعور تنكا على رأسها بزجاجة البيرة التى كان يشربها.. وتسقط وهى تتخبط فى دمائها وهى تتأوه..

«رباه.. اين الحقيقة..»

المسرحية جديدة.. جريئة.، تتناغم فيها الفكرة مع الشخصيات مع الحبكة الفنية لتقدم عملا رائعا..

ولكن الجديد حقا ان المسرحية اثارت نقدا واسعا خصبا فى الأوساط الادبية والفنية. لم يهاجم أحد فولكربراون، مثلما توقع الكثيرون، ولم يصفه احد بأنه كاتب منشق مثلما جرى فى سنوات سابقة، بالرغم من أن بعض الصحف واجهزة الاعلام الغربية هللت للمسرحية..

ولم يقل احد ان براون يحاول التعريض بالنظام وبالاشتراكية رغم النقد اللاذع الذى حفلت به المسرحية.

ولقد واكب عرض مسرحية «تنكا» عرضا اخر لمسرحية لكاتب سوفيتى تحت عنوان «حصان أزرق فى مروج خضراء»... عرضت المسرحية فى مسرح «جوركى» فى برلين واستمر عرضها لفترة طويلة، وهى الاخرى تتناول بالنقد اللاذع بعض نماذج المسئولين فى المجتمع الاشتراكى والبعيدين تماما عن الروح الحقيقية للاشتراكية..

وتقوم فكرة المسرحية على أن لينين مؤسس أول دولة اشتراكية خرج من قبره وقام بالزيارة لاحدى المؤسسات بالاتحاد السوفيتى واصطدم بعدد من المسئولين الذين يرددون اسمه وكلماته فى كل مناسبة ولكنهم فى الواقع يسفحون افكاره وتطبيقاته. وقد اثارت المسرحية هى الاخرى مناقشة غنية وخصبة وغير مسبوقة ليس فقط بين النقاد والمثقفين بل وبين قطاعات واسعة من الجماهير التى اقبلت على المسرحيتين بشكل واسع..

واحسست باليقين ان هناك ثمة رياح منعشة جديدة تهب على المجتمعات الاشتراكية وقد تكون تجربة بولندا ومايجرى فيها قد القت بعض الضوء على بعض من الخلل الذى يجرى فى التنظيمات الحزبية الحاكمة..

وقد تكون الانجازات المادية التى تحققت قد كسبت المجتمعات الاشتراكية مزيدا من الثقة بالنفس، فانطلقت الطاقات المبدعة دون قيود..

وايا كان السبب، فلقد كنت سعيدا بهذه النسمات الجديدة والمنعشة التى تحمل معها مرة أخرى فكرة ان الاشتراكية تعنى فى الأول والاخر تأكيد انسانية الانسان واطلاق طاقاته الابداعية بلا حدود أو قيود اقتصادية أو غير اقتصادية. على ان هذه السعادة والفرحة التى رحت أغرق فيها فى مناقشات ممتعة مع عدد من المثقفين والاصدقاء الالمان سواء فى اتحاد الكتاب أم فى اتحاد الصحفيين ام فى الجامعات سرعان ماأجهضها ماكان يجرى فى بيروت..

كانت القوات الاسرائيلية قد قامت فى يونيو الماضى باجتياح جنوب لبنان..

وكان من الواضح من الحشد العسكرى الهائل ومن قيام ايريل شارون وزير الدفاع بقيادة الغزو انه ليس مجرد تكرار للعربدة التى كانت تقوم بها اسرائيل طوال السنوات الماضية فى احتلال بعض الاجزاء من الجنوب اللبنانى ثم الانسحاب بعد فترة تطول أو تقصر..

وكان اندفاع قوات الغزو الى بيروت ومحاصرتها بما فيها من القوات الفلسطينية وقيادة منظمة التحرير يمثل نقله كيفيه فى الاهداف الاسرائيلية فى لبنان ويؤكد ان المخططون الاسرائيليون قد قرروا الاستفادة الى الحد الاقصى من التمزق والتشتت الذى يعيش فيه العالم العربى..

بتوجيه ضربة ساحقة باخراج منظمة التحرير الفلسطينية من لبنان..

٧٥ يوما بيروت محاصرة من قوات الغزو الاسرائيلى، والقوات الفلسطينية ومعها القوى الوطنية اللبنانية تدخل فى معركة شرسة يسقط فيها كل يوم الاف القتلى والجرحى والعالم العربى يصرخ فى عجز والانظمة تشجب بلا فاعلية.. والامم المتحدة تأخذ التوصيات والقرارات ولكن الفيتو الامريكى ومعايير وسلطات المحافل الدولية تقف بها عند حدود الادانة المعنوية للغزو.. وشارون يقود بنفسه المعارك والحصار مع اصرار على دخول بيروت عنوة.. واسقاط اول عاصمة عربية فى ايدى القوات الاسرائيلية..

كنت مثل الملايين من أبناء عالمنا العربى التعيس اتابع مايجرى يوما بيوم وساعة بساعة المقاومة البطولية الفذه للفلسطينيين واللبنانيين، والعجز المطلق فى العالم العربى ولا أملك الا القلم احمله صرخاتى والامى وعجزى..

واخيرا سقطت بيروت ودخلت القوات الاسرائيلية أول عاصمة عربية وخرجت منظمة التحرير الفلسطينية وياسر عرفات بعد اتفاقية مشرفة وغير مسبوقة لعب فيها الاتحاد السوفيتى وفرنسا ومصر دورا خاصا تسمح لقوات التحرير الفلسطينية بالانسحاب من بيروت بكامل اسلحتهم ومعداتهم.. وهو الامر الذى يحدث لأول مرة.. وكتبت يومها مقالا نشر فى السفير البيروتية والراية القطرية والوطن الكويتية تحت عنوان «حريق بيروت والنار التى لم تنطفئ» «قلت فيه أن الحريق الذى اشتعل فى معارك بيروت الخالدة لم ينتهى ولن ينتهى، واذا كانت النار قد خمدت الى حين بعد أن استشهد ما استشهد، وبقى المقاتلون الاخرون وقد تصلبوا فى اتون المعركة وتحولوا الى معادن نادرة فى عالمنا العربى، فإن نار أخرى أشد تهب الآن على هذا العالم التعيس. ولست أريد أن أشارك فى جوقه «الندابيين» اللاطمين الخدود والمهيلين التراب على انفسهم وعلى الاخرين..

أو مع جماعات المزايدين الذين زايدوا ومازالوا فى سوق الكلمات الضخمة الفخمة الرنانة والتى ليس لها أى رصيد من الفعل والاثر الحقيقى.

ولكن ومع كل ماجرى ويجرى، ومن خلال احدث واخطر دراما شهدها العالم العربى المعاصر، وبمنهج تعاطى الواقع وتفهمه والتعامل معه بغية تغييره، وبعيدا عن التعلق بأوهام واكاذيب لاتملك الحقيقة المطلقة..

وبحثا عن الامل الحقيقى من واقع الرماد الذى يملأ افواهنا فإنه يمكن رصد بعض المؤشرات التى ستلعب دورا هاما فى صياغة وضع وظروف العالم العربى لمرحلة تاريخية هامة قادمة هى مرحلة مابعد حريق بيروت..

واشرت فى المقال الى أربع مؤشرات هامة لمرحلة المستقبل.

أول هذه المؤشرات هو بروز الدور النضالى لمنظمة التحرير الفلسيطينية وتأكيد دورها السياسى والعسكرى على النطاق العربى والعالمى بعد صمود بطولى لأكثر من ٧٦ يوما فى مواجهة الاله العسكرية الاسرائيلية والمدعومة والمترسنة امريكا.. اى أن القضية الفلسطينية اصبحت وبشكل مطلق فى ايدى الفلسطظينيين انفسهم وثانى هذه المؤشرات، انه فى كل الاوضاع الراهنة فى الساحة العربية ومع عدم وجود «هانوى» عربية يمكن ان تكون فى الوقت الحالى قاعدة لانطلاق النضال الفلسطينى... فإن منظمة التحرير الفلسطينية ومن خلال تجاربها المريرة والعظيمة قد استوعبت الدرس جيدا، وسيدفعها هذا بالتأكيد الى الطريق الشاق والاكثر صعوبة ولكنه الوحيد المضمون النجاح وذلك بتركيز الجهد والعمل داخل الأراضى الفلسطينية المحتلة نفسها.

ثمة مؤشر تالت يرتبط بسقوط الاقنعة، كل الاقنعة وانكشاف الواقع العربى البالغ المرارة فلم يعد مثلما هو واضح فرق بين زيد وعمرو.. بين من قالوا بالصمود والتصدى وبين من لاذوا بشعار «اللهم انا لسنا بقادرين».

لقد تساوى الجميع فى الخيبة وقلة الحيلة

كما أن من يرفعون شعار «الثورة والاشتراكية.. لم يقدموا اكثر من اصحاب الثروة والرأسمالية».

وهذا يعنى ان الانظمة الموجودة على الساحة قد تعرت كلها حتى من ورقة التوت التى كانت تتستر بها..

ورياح الحرية والديمقراطية على الطريق لإقتلاع الجذور العفنة..

ولذلك فان النار التى اشتعلت فى بيروت ستكون اخر النيران المدمرة التى اشعلتها مرحلة النفط والبترودولار، لأن هذه المرحلة ستدخل، بل هى قد بدأت بالفعل تدخل فى مرحلة الهبوط والعد التنازلى، بعد ازدهار قاتل استمر لاكثر من عشر اعوام..

واذا كانت كارثة سنة ١٩٤٨ قد فجرت الوعى القومى العربى، فإن ملحمة بيروت سنة ١٩٨٢ ستفجر لا محالة الوعى الانسانى العربى.. حرية الانسان فى أن يكون انسانا أولا وقبل كل شئ..

حريته فى التعبير والتنظيم والمعارضة والاحتجاج والمشاركة الفعالة فى اتخاذ القرار..

ولم يعد مسموحا ولن يكون مقبولا لأى تنظيم أو حزب فى العالم العربى لان يدافع أو يبرر قهر الانسان العربى تحت أى مسميات.

هذه بعض المعطيات التى اعتقد ان ملحمة بيروت قد فجرتها وسيكون لها مابعدها اما من ينظرون الى ماحدث على أنه ازمة أو هوجة انتهت وان الامور ستمضى بوتيرتها السابقة، فلعلهم اكثر الناس وهما وبعدا عن الواقع أو بمعنى اصح عن المستقبل القريب فى عالمنا العربى القادم والاتى مع الغد.. وبالضرورة

وضعت القلم.. ثم أخذت اعيد قراءة ماكتبته بهدوء..

ولأدرى لماذا اجتاحنى شعور جارف بالذنب بعد الانتهاء من هذه المقالة.. لقد احسست اننى واحدا من هؤلاء المدانون الهاربون من المعركة والباحثون عن جزر السلام والاحلام الصغيرة والخاصة..

ووجدتنى اتساءل متهما نفسى.. بأى حق اطلق تلك الاراء والاحكام وانا على بعد الاف الاميال من الوطن.. لقد أصبحت مثل عواجيز الفرح أو ندابات المآتم..

يفرغ شحنة عاطفية من القلب دون مشاركة حقيقية فيما يجرى ليريح الضمير المعذب... لابد من العودة.. شعور اصبحت ممتلأ به يطاردنى، يعذبنى

ولقد سقطت كل الاعذار.. فلماذا التردد...

كان ثمة قضية ولابد وأن تحسم..

وان سالت عنى فأنا بخير، لا أتعب
ذهنى بتوالى الخطوب والاكدار،
ولا أتألم من طول الغربة ودفع الشدة،
فترانى فكرى هو رفيقى وقلمى هو نديمى،
ولكل شدة .. مده

عبد الله النديم رسالة الى صديق

يونيو سنة ١٩٨٣
محمد عبده...
طه حسين...
اثنان من أحب المفكرين الى قلبى وعقلى، اعتبرهما واعتقد ان لدى كل الحق فى ذلك، القطبين الذين لعبا الدور الاكبر فى صياغة العقل المصرى الحديث فى بداية القرن العشرين..

أولهما ابحر فى الدين بروح العالم المجدد ودعا الى اجتهاد يعتمد على الدين والعقل معا حتى نستطيع ان نواجه بما تطرحه الحياة من تحديات وخلق مدرسة قوية الاثر واضحة المعالم تصدت بمنهج علمى واقعى يقوم على أساس دينى متفتح للاصلاح الدينى والاجتماعى والسياسى، كما أنه لم يكن فى منهجه للاصلاح مجرد مؤلف أو منظر بل كان يحاول دائما أن يربط الكلمة بالفعل ويغوص فى الواقع بغية تغييره.. تحت شعار اذا كانت هناك مصلحة للخلق فثمه شرع الله..

وثانيهما قاد ثورة ثقافية حقيقية طوال تاريخه «لنأخذ من التراث مافات منا، ولنستعد للحاضر وللمستقبل ماتخلفنا فيه من علم وتقدم»، رافعا لواء العقل والعلم طامحا الى بناء مجتمع متحضر عادل ومثقف وقادر على الابتكار والابداع. كلاهما ذهبا الى اوربا فى غربة بحثا عن العلم والمعرفة..

وكلاهما واجه فى اندفاعاته الفكرية الاولى اثناء الدراسة فى الازهر الشريف المشاكل والعقبات وكلاهما اختار الطريق الصعب.. وسبح ضد التيار ولقى الاهوال وعاناها واثبتا فى نفس الوقت ان ذوى الفكر المتفتح والمتسامح هم الذين يصمدون ويقاتلون وينتصرون دفاعا عن ارائهم..

محمد عبده.. واجه الشيخ عليش الذى كان مشهورا بعصبيته وضيق افقه ورمية الناس بالكفر لمجرد الاختلاف معه فى الرأى حتى أنه كان مصرا على حرمان محمد عبده من شهادة العالمية لأنه فى نظره غير جدير بها بل ربما رماه بالالحاد والزندقة ولكن الشيخ حسن الطويل النموذج المقابل والمشرف لمدرسة الازهر الحقيقية بما عرف عنه من حكمة وسعة افق وتفتح على المجتمع والناس انقذ محمد عبده فى الامتحان العسير واضاف بذلك الى التراث الاسلامى جوهره حقيقة مازالت تشع حتى الآن بنور حضارى.

وطه حسين وقف الى جانبه الشيخ المرصفى لينقذه من حكم ظالم صادر من الشيخ المهدى الذى لم يعرف من العلم والايمان سوى متون محفوظة من خرج على لفظ فيها فهو مارق أبق وملعون الى يوم الدين والذى حاول ان يحرم طه من الشهادة تحت دعوى انه «اعمى البصر والبصيرة»...

ولكن طه حسين حصل على شهادته قائلا ومؤكدا «ان طول اللسان لايمحو حقا، ولايثبت باطلا»..

والغريب انني وجدت نفسى فى المانيا اواجه امثال الشيخ عليش والشيخ المهدى.. وأثناء دراستى للدكتوراه. وكان ذلك هو السبب الحقيقى وراء عدم اتخاذ قرار سريع بالعودة.. أو اخر القدرة على تنفيذ قرار كنت قد أصبحت ممتلئا به فكريا وعاطفيا وجسديا وكلها تشير الى طريق واحد.. القاهرة..

بل اننى فى واقع الامر ومنذ الزيارة الاخيرة للقاهرة.. بدأت كل أفكارى وتصوراتى تتركز على استئناف مسيرة العمل والحياة مرة أخرى على ضفاف النيل الغالى.. وأخذت استكشف الامكانيات العملية لهذه العودة..

مدارس الاولاد، العمل فى الجريدة، بل وبدأت مقالاتى تعود للظهور مرة أخرى فى الجمهورية..

لم أكن فى حاجة الى الكثير من الحسابات، فأنا فى كل الأحوال أعيش على الكفاف فى أوربا، وكان من الواضح اننى رفضت كل محاولات الترويض المباشرة وغير المباشرة التى تعرضت لها خلال تلك السنوات الماضية.. ولقد كان اكثر مايزعجنى ويملأنى بالهم والاسى فى تلك السنوات الصعبة وأنا أرى بعضا من المصريين والعرب الذين اغتربوا عن بلادهم فترات طويلة امتدت الى أكثر من عشرين سنة وهم يهيمون فى المجتمع الالمانى وقد فقدوا جذورهم الاصلية وبهتت هويتهم كما انهم لم يستطيعوا ان يكونوا المانا أو أوروبيين رغم زواجهم بالمانيات ووجود ابناء وبنات لايعرفون لغة الاباء الاصلية. كانوا بالنسبة لى مثل الاشباح الهاملتية المعذبة تملأنى بالخوف والرعب من أن الاقى نفس المصير. لقد كانت اسباب ودوافع الغربة واضحة لى تماما، فأنا لم أسمح لنفسى كل تلك السنوات بأن أعيش فى وهم كاذب

باننى اناضل فى الخارج أو أنى أقوم بمهمة مقدسة..

كما أنى لم آت الى هنا بحثا عن مال أو عن شهرة أو طمعا فى جزر الاحلام الخاصة. لقد تحسنت عين ياسر الصغير واصبحت بعيدة عن الخطر هكذا أكد الاطباء وخضت تجربة خصبة غنيه، رغم مافيها من مرارة ومعاناة فى بلاد الافرنج كان حصادها الحقيقى ثروة ثقافية ومتاع فكرى وتأصيل للجذور.

وعادت القاهرة تموج مرة أخرى بالحركة السياسية والفكرية والاجتماعية ولم يعد من الممكن لاسماك النيل ان تعيش بعيدا عن مياهه ولاشجار التوت والنخيل ان تبحث عن مرفأ على سواحل الراين والبلطيق.

وذات ليلة دعتنى الكاتبة والفنانه الالمانية كريستينا جروتر لمنزلها مع مجموعة من الكتاب والفنانين الالمان بمناسبة صدور كتاب جديد لها ولا أعرف ليلتها ماذا جرى لى ونحن نلتف حول حمام السباحة فى حديقة المنزل الريفى التى تملكه.. فقد انتابنى حالة من الوجد واخذت ليلتها احكى لهم فى صوفيه غريبة عن مصر والقاهرة حتى ان مضيفتنا قطعت الحديث قائلة فى مرح

اننى لم ادعوكم هنا ليقوم فتاح بالقاء قصائد شعر فى بلده، فهناك كتابى الجديد وانا انتظر رأيكم ... وقبل أن أغادر منزل الصديقة الالمانية التى كان يقع فى احد ضواحى برلين انتحت بى جانبا وهى تقول

- يبدو أنك قررت العودة الى بلدك..؟

قلت ضاحكا

- أمر طبيعى.. هل كان لديك شك فى ذلك..

قالت فى جدية

- هل زالت كل المخاطر بالنسبة لك ؟

قلت على الفور

- كريستينا.. لم يكن هناك مخاطر، فأنا جئت الى هنا كمراسل صحفى ولست لاجئا، هل سمعتى منى طوال السنوات الماضية شيئا غير ذلك

قالت

- اعن... هل درست الموضوع جيدا من ناحية الكتابة، ان هذا هو اهم شئ بالنسبة للكاتب... لقد عاش همنجواى بعيدا عن بلده وابدع كل روائعه فى الغربة وكذلك إليا اهرنبرج وبوكاشيو وغيرهم، فالعالم كله وطن للكاتب والفنان، كما أنى لاحظت ان لديك طاقات وقدرات للتعايش مع المجتمعات الاوربية واستيعابها وهذه ميزة ليست متكررة...

قلت وأنا أعبث بأوراق نخلة صغيرة تربيها داخل المنزل

- التعايش وحتى التفتح على المجتمعات الاوربية أمر جيد ورائع واعترف اننى قد استفدت كثيرا من هذا التعايش بل كنت مشوقا له، ولكنى لست قابلا للذوبان

قالت عاتبة وهى تضربنى على يدى

- الذوبان...!! ومن قال ذلك... دائما تحاول السخرية من كلماتى...

قلت لها وأنا أمسك بجريدة النخلة الصغيرة

- كريستينا.. لاتنسى.. اننى نخلة

- لا أفهمك

- أعنى أننى مثل هذه النخلة.. احتاج الى الشمس والجو الدافئ لتنطلق الجذور الى الأعماق ولتعلوا النخلة فى السماء.. ولكنها هنا تبقى دائما داخل البيوت، صغيرة ومحاصرة ولا تعلوا أبدا..

أننى لست شجرة صنوبر أو بلوط تستطيع أن تنمو وتكبر وسط الثلوج

***

كان الذى أربك تصرفاتى وأجرى الخلل فى حساباتى فى العودة هى رسالة الدكتوراه.. فمنذ الشهور الأولى لقدومى الى برلين منذ ست سنوات كانت الفكرة واضحة تماما فى ذهنى للاستفادة من هذه الفرصة للقيام بمزيد من الدرس والتحصيل، ومنذ اللقاء الذى جرى بينى وبين البروفسور لوثر راتمان مدير جامعة ليبزج والاستاذ الدكتور أرمين بارنر تم الاتفاق على موضوع الرسالة..

وقدمت المشروع ووافق عليه مجلس الجامعة

كان موضوع الرسالة الذى اقترحته هو «الاجراءات الاقتصادية والاجتماعية التى اتخذت فى مصر منذ سنة ١٩٥٢ حتى سنة ١٩٧٠ وانعكاسها على البنيان الطبقى»

الامر الذى يعنى دراسة المرحلة الناصرية من كل جوانبها وبكل ايجابياتها وسلبياتها. ولقد دفعنى الى ذلك فى واقع الامر ذلك السؤال الكبير الذى كان يطرحه الجميع وبالذات الباحثون الاجانب عن التغيرات السياسية الحادة التى جرت فى توجيهات السياسة الرسمية المصرية فى فترة قصيرة بعد موت الرئيس الراحل جمال عبد الناصر وتولى الرئيس انور السادات السلطة.. من أقصى اليسار الى أقصى اليمين، وفى فترة زمنية قصيرة وبدون وقوع انقلاب عسكرى أو تغيير جذرى فى السلطة.. كانت الغالبة العظمى للتفسيرات تركز على مظاهر هذا التغيير فى جوانبه السياسية والاقتصادية دون أن تبذل محاولة حقيقية لتقديم تفسير طبقى للتطور الاجتماعى نفسه..

لم يكن الامر مقنعا للكثيرين للتركيز على الخلاف بين شخصية عبد الناصر وشخصية السادات فالمسار التاريخى لأى مجتمع لايمكن ان يكون مرتبطا بشخصية فرد أو مجموعة أفراد... كما أن استمرارية السلطة ممثلة فى رجال ثورة يوليو وفى شكل ونظام الحكم بعد تولى الرئيس السادات السلطة والذى كان هو نفسه نائبا للرئيس فى الستينات مع استبعاد

مجموعة صغيرة لم يكن يسند الدعاوى القائلة بأن هناك انقلابا شاملا قد حدث فى هذا الصدد.

كذلك فإن بقاء شكل وأسلوب الحكم فى الأساس مثلما كان حتى بالكثير من شخوصه وضع الكثير فى حيرة حقيقية.

كان الامر يحتاج الى أكثر من تفسيرات سياسية سريعة..

وهذا هو بالتحديد القضية التى اخترتها فى محاولة لدراستها

قدمت تصورا للاستاذ الدكتور بيريز الذى تولى الاشراف المباشر على الرسالة نظرا لانشغال البروفسور راثمان مدير الجامعة..

وركزت فى هذا التصور على أربع قضايا رئيسية.

- المنابع والجذور الحقيقية للأفكار الاصلاحية التى جاءت بها قيادة ثورة يوليو فى مجتمع ماقبل الثورة.

- الاجراءات التى اتخذت، وخاصة فى مجال الاصلاح الزراعى، باعتباره كان بمثابة اعلان الهوية لثورة يوليو.. طبيعة هذه الاجراءات ومداها.

- اسلوب الحكم وجهاز الدولة ودوره فى ادارة الصراع الاجتماعى وتنفيذ الاجراءات الاقتصادية والاجتماعية

- الافتقاد الى حركة جماهيرية منظمة والى ايديولوجية متكاملة واعتماد الاشكال البرجمانية والتجريبية مع افتقاد للديمقراطية السياسية.

- التغيرات الحقيقية التى جرت على الخريطة الطبقية نتيجة هذه الاجراءات والاصلاحات وبروز دور أغنياء الفلاحين والتكنوقراط الذين قدموا ارضية طبقية جاهزة ولاجراء التغيرات فى السبعينات فى اتجاه اخر..

كانت هذه هى المنطلقات الرئيسية للبحث التى وافق وتحمس لها الاستاذ الدكتور ارمن بيرز المشرف على الرسالة..

كان الدكتور بيرز بحق نموذج نقى للاستاذ الباحث المتجرد من كل غرض الا البحث عن الحقيقة مع إهتمام وتعاطف شديد حول موضوع الرسالة باعتباره واحدا من المهتمين بدراسات الشرق الاوسط ومصر بشكل خاص ولذلك كنت اضع ملاحظاته دائما فى اعتبارى.

ولم يحاول الرجل ان يغير من أفكارى أو منهجى فى البحث رغم اختلافنا الواضح على بعض التفاصيل والقضايا، فلقد كان يؤكد دائما ان المهم فى أى بحث ان تكون الافكار الواردة فيه مخدومة بشكل وثائقى ومدعومة بالمنطق الذى يسندها.

وطوال ثلاث سنوات عكفت فيها على دراسة الموضوع مع تجميع كل الوثائق والمراجع المتاحة فى مصر وفى المانيا..

التقى فيها بالاستاذ المشرف مرة كل أسبوع، وأحيانا كل اسبوعين اعرض عليه ماوصلت

اليه ويدور بيننا نقاش احيانا ماكان يشترك فيه بعض اساتذة قسم دراسات الشرق الاوسط فى الجامعة..

واخيرا اصبحت الرسالة جاهزة وقدمتها للاستاذ المشرف الذى قدمها بدوره الى مجلس الجامعة..

وانتظرت تحديد موعد للمناقشة..

وطال الانتظار شهرين اربعة، سنة، سنة ونصف وأنا بين الحين والاخر اتصل بالدكتور بيرز استفسر واستعجل، والرجل العالم يطمئنى بأن كل شئ على مايرام وانها فقط ازدحام جدول الاساتذة والخطط الخاصة لمناقشة رسائل الدكتوراه والماجستير وفقا لترتيبها..

وحينما كنت ابدى له قلقى احيانا من أن الافكار التى اوردتها فى الرسالة قد لاتكون على وفاق مع الافكار السائدة فى قسم دراسات الشرق الاوسط فى الجامعة كان يرد فى حسم العالم الواثق..

– لقد انتهينا من هذه القضية وناقشناها مرارا، فالمهم ان تكون متمكنا من أفكارك وتقدمها مسنودة مدعومة بالوثائق، وقد قمت بهذه المهمة خير قيام..

وذات يوم طلب منى الدكتور برنر ان اقابله فى مكتبه فى الجامعة فى ليبزج ثم أخذ يشرح لى وهو يبدى اعتذاره ان هناك ضرورة قبل مناقشة الرسالة لأن ادخل امتحانا فى مادة «الماركسية اللينينية» باعتبارها احد الشروط الضرورية لنيل الدكتوراه.. وان جميع الطلبة الاجانب والالمان يدخلون هذا الامتحان.. وانه قد حاول ان يعفينى من هذا الامتحان على اعتبار اننى مفكرا اشتراكى له كتبه ودراساته وله تجربته النضالية ولكن مجلس الجامعة اصر على الامتحان..

قلت له ضاحكا وانا أقدر نبله الحريص، اننى على استعداد طالما ذلك هو الاجراء المتبع، وانى لا أرى فى ذلك أى غضاضة.

وقد كنت أعرف أن كل المبعوثين الى الدول الاشتراكية لدراسة الماجستير والدكتوراه عليهم ان يدرسوا الماركسية اللينينية ويمتحنوا فيها وفقا لتقاليد هذه الجامعات حتى هؤلاء الذين يدرسون فى تخصصات علمية كالهندسة والطب والزراعة. وكنت اعرف ايضا ان بعض المبعوثين الى بعض الجامعات فى الدول الاشتراكية فى الاتحاد السوفيتى والمانيا قد طلبوا اعفاءهم من هذه الدراسة، واثيرت مشكلة حسمتها الحكومة المصرية بالموافقة على أن يقوم المبعوثون الى الدول الاشتراكية باحترام القواعد والاسس التى تقوم عليها الدراسة فى الجامعات فى تلك الدول. وقد كنت أعرف كذلك ان المسئولون فى الجامعات فى الدول الاشتراكية يضعون فى اعتبارهم ظروف المبعوثين الاجانب، وفى كل الاحوال كان كل المبعوثين المصريين فى الجامعات الالمانية يحصلون على تقديرات جيد جدا وممتاز فى مادة الماركسية

اللينينية حتى ولو كان بعضهم ممن يعارض الماركسية أو حتى يعاديها.. فلقد كان يحدد للطالب كتابا معينا يقرأه ثم يناقشه لجنة من ثلاثة اساتذة فى فترة لاتتجاوز نصف ساعة أو ساعة..

وحينما سألنى دكتور برنر عن الكتاب الذى ارغب الامتحان فيه قلت له ضاحكا اعتقد اننى تلميذ مجد قرأ تقريبا كل الادبيات الاشتراكية من ماركس وانجلز ولينين حتى يومنا هذا، وأيضا كل ماكتب عنها مدحا أو قدحا وأنا اترك للجنة الامتحان اختيار الموضوع..

وفى يوم اللقاء أو الامتحان، وجدت نفسى مع اللجنة التى شكلت من ثلاث اساتذة كان على رأسهم البروفسور «   » أستاذ مادة الماركسية فى الجامعة..

وبدأ الحوار أو الامتحان، أو المحاكمة.. وعلى مدى ثلاث ساعات واجهت فيها ماواجهت وتذكرت خلالها محمد عبده وطه حسين وهما يجلسان نفس الجلسة امام الشيخ عليش والشيخ المهدى..

كان من الواضح اننى اواجه اساتذة ممتازين درسوا وحفظوا جيدا كل متون الماركسية والحواشى التى تشرح المتون والتقارير التى تشرح الحواشى..

ولكن من أين لهم ان يتفهموا اجابات طالب عرف الاشتراكية فى الاساس من خلال عيون المجهدين والمتعبين ونادى وعانى من اجل اشاعة ابتسامة امل حقيقية على هذه الوجوه المتعبه لكى يصبح الانسان انسانا حقيقيا يبدع ويفكر دون أن تكبله ضغوط وهموم اقتصادية وغير اقتصادية ودون اى حسابات الا حسابات الحقيقة. سألنى الاستاذ رئيس لجنة الامتحان عن مفهومى عن الديمقراطية وشرحت له وجهة نظرى فى الديمقراطية فى اسهاب وكان مما قلته ان الديمقراطية كل متكامل لايتجزأ ولا يمكن تقسيمها الى ديمقراطية اجتماعية وديمقراطية سياسية..

وقلت كذلك ان ضمانات العدالة الاجتماعية من مسكن ومأكل ورعاية صحية وتعليم وعمل واجر متواز مع الجهد المبذول يمكن ان تفقد مغزاها الحقيقى اذا لم تكن مرتبطة بحرية المواطن فى التعبير عن رأيه وفى اختيار التنظيم الذى يرتبط به وفى المشاركة الحقيقية والفعالة فى صياغة القرارات الهامة المتعلقة بمستقبلة ومستقبل بلده..

كما أن كفالة حرية التعبير والتنظيم دون ضمانات اجتماعية واقتصادية تتحول الى مظهر شكلى خادع..

وكان من الواضح اننى ارتكبت هرطقة لاتغتفر .. فقال مقاطعا استطراداتى

:- ولكن هذا هو المفهوم الليبرالى للديمقراطية ..

وعدت اشرح نفسى مستندا احيانا الى بعض مقولات لماركس وانجلز ولينين ومعتمدا على ان جوهر الفكر الاشتراكى هو تحرير الانسان من الاستغلال وشارحا التطورات والظروف

المختلفة التى تجعل هناك فروقا واضحة بين ماكان صالحا فى اواخر القرن التاسع عشر وماكان مفيدا فى اوائل القرن العشرين وما يجب أن تتطور اليه الامور فى اواخر القرن العشرين.. إن جوهر الفكر الاشتراكى نفسه يقوم على اساس ان كل شئ يتغير وكل شئ يتحول وانه ليس هناك مطلقات او مقدسات، فالاشتراكية تدعوا دائما الى التجديدات الثلاثة فى أى تحليل أو توصيف..

المكان المحدد، والظرف المحدد، والزمن المحدد وانه ليس هناك وصفات جاهزة تفسر كل شئ فى كل زمان ومكان وضربت امثله كثيرة بالتطبيقات التى قام بها لينين بعد الثورة الاشتراكية فى روسيا وكيف انه تجاوز عن بعض ما قاله ماركس لانجاح الثورة.

بل ان قيام اول ثورة اشتراكية فى روسيا جاء على عكس توقعات ماركس التى كان ينتظرها فى انجلترا وفرنسا أو احد الدول المتقدمة راسماليا.

- ماذا تقول.. لقد كان لينين تلميذا مخلصا لماركس.

- كان تلميذا مخلصا للاشتراكية فى خطوطها العريضة كما بشربها ماركس ولكنه لم يلتزم بكل ما قاله ماركس ولقد هاجمه كثير من المفكرين الماركسيين الجامدين والحرفيين منهم كارل كاوتسكى الذى قال عنه «انه مهرج» لم يستوعب الماركسية جيداً وخرج على كل كلمة قالها ماركس».

كانت الهوه بيننا واسعه والشقة تبعد، وكان يبدو ذلك واضحا على وجه البروفسير والاستاذ الاخر، وان كنت قد احسست دون يقين ان الاستاذ الثالث لم يكن على نفس الموجه، بل كان يتطلع الى احيانا ويومئ برأسه، وكأنما يشد من ازرى فى المعركة الحاميه التى دارت بين اساتذه درسوا الماركسيه بكل دقه وحفظوا كل كتبها وموسوعاتها حتى اصبحوا جديرين بالتعبير الذى اطلقه ماركس على امثال هؤلاء بأنهم مثل ذلك المارد الذى صوره هوميروس فى الاوديسا والذى كان يضع البشر فى صندوق احكم مقاساته فمن زادت اطرافه على الصندوق بترها ومن قل جسمه عن مساحة الصندوق قام بشدة حتى يكون على المقاس، وبين طالب من دول العالم الثالث قررت الظروف التى تعيشها بلده والمشاكل والتحديات الهائلة التى يواجهها شعبه ان يختار الاشتراكية طريقا للفكر والعمل.. الواقع الحى المتحرك هو الاساس الذى يدفعه ثم يأتى بعد ذلك الاطار النظرى العام،

لم أكن ابحث عن معركة، كما أنى كنت مدركا تماما أنى لست فى ندوة أو محاضرة على أن اسهب فى استعراض أفكارى وأرائى بالعكس كنت أحاول دائما ان اقصر خطوطى واكتفى بأقل قدر ممكن من التعبيرات التى تعكس رأيى..

ولكن البروفسير رئيس لجنة الامتحان لم يكن يعطينى الفرصة، على الاقل للتركيز على مايمكن الاتفاق عليه، كان من الواضح انه اكتشف مارقا أو مرتدا من وجهة نظره فراح يفتل الحبال ويجهز الخية للاجهاز على زنديق من وجهة النظر الماركسية..

وخرجت اسئلته طلقات موجهة..

مفهومك عن الطبقات.. الفلاحون طبقة أم فئة.. حتمية انهيار العالم الرأسمالى.. التطور الرأسمالى سماته مميزاته.. مارأيك فيما يسمى باليوروكومنزم (الشيوعية الاوربية)..

ثلاث ساعات، اجهدت فيها عقلى ونفسى وصراعاتى، وانا اضبط ردودى على قدر الأسئلة دون استطراد والأسئلة تتوالى وانتابنى احساس انى فى قاعة محكمة متهم فى قضية لا أعرفها..

وعندما سألنى البروفيسور فى سؤال اشبه بالصاروخ الموجه عن الاضافات الخلاقة لبوريس بوناماريوف المفكر السوفييتى المعاصر فى كتابه حول حركات التحرر قلت، وكان قد فاض بى، وقررت ان انهى المحاكمة.

– اننى اختلف مع الكثير مما قاله بونا ماريوف حول حركات التحرر،

وكانت هذه الكلمات كافية لانهاء المحكمة واصدار الحكم..

وتركت القاعة، واتجهت فورا الى محطة السكة الحديد لاستقل القطار من ليبزج الى برلين تاركا عربتى فى ساحة الانتظار امام الجامعة فلم أكن لأستطيع ان أمضى بها أكثر من ٢٥٠ كيلومتر..

بل أنى ولأكثر من أسبوع حاولت ان انسى ماجرى، وكنت قد اتيت بالجزء الثانى من أيام «طه حسين» اعيد قراءة ماكتبه عن لجنة الامتحان والشيخ المهدى أيام الجامعة وعن مذكرات محمد عبده وقصته مع الشيخ عليش ولاعيد ايضا قراءة مسرحية «جاليلو.. جاليلى» للعظيم برتولد بريخت «والمحاكمة» لفرانز كافكا.

الشيخ المهدى.. الشيخ عليش.. الاساقفة الرسوليون للبابا فى محاكم التفتيش، المحقق الجامد فى قلعة كافكا العتيقة.. رأيتهم جميعا يتجسدون فى شخصية واحدة.. الوجوه الجامدة والعقول المغلقة والقلوب التى لاتعرف الحب بل وربما تكره الحياة.. هؤلاء الذين لا يعرفون كيف يبتكرون ولاكيف يبدعون.. يكرهون أى جديد ويحاولون اغتياله.. هم كلهم نمط تاريخى واحد سواء كانوا شيوخا دراويش أو قساوسة ومبعوثون للبابا فى محاكم التفتيش أو قضاه شحبت الحياة النابضة عن وجوههم، أو ماركسيون متحجرون حددوا فهمهم للاشتراكية عند مجموعة من النصوص العتيقة«اوالتعاليم المقدسه» «والتوجيهات الساميه» لمن يمسكون بالسلطه ..

بالفعل تسيت الامركله اوهكذا حاولت وغرقت فى الاستعدادات والترتيبات الخاصه بعودتى انا واولادى الى القاهره وبدون الدكتوراه ..

وجاءنى تليفون من ليبزج .. وكان المتحدث دكتور بيرنر

– اين انت .. لم اسمع عنك منذ الامتحان الاخير

– مازلت فى برلين الى حين .. وغالبا فى القاهره بعد شهرين على الاكثر ..

- ومناقشة الرسالة ..
- أى رسالة.. هل مازالت تذكر..!!
وضحك دكتور بيرنر ضحكته التلقائية البسيطة المعبرة
- اعرف ان امتحان الماركسية كان عسيرا.. ولقد سمعت بذلك ولكن مناقشة الرسالة مازال واردا.. وعلى كل سأحضر مع البروفيسور راتمان الى برلين بعد غد فلدينا عمل هناك.. دعنا نلتقى على فنجان قهوة فى مقهى الأوبرا الساعة الثانية عشر..

ولم أعترض بالطبع ليس من أجل الرسالة بل لأنى بالفعل احمل تقديرا عاليا واحتراما صادقا للبروفيسور لوثر راتمان مدير جامعة ليتنبرج ذلك الرجل الذى يمتلك عقل عالم حقيقى وقلب انسان صادق.

حتى إننى قلت يوما انه اذا اردنا ان نقيم تمثالا لأبى الهول المعاصر فأننا لن نجد أفضل من لوثر راتمان، على اعتبار أن أبى الهول القديم كان يجسد فكرة القوة والحكمة ممثلة فى جسد الأسد، وعقل الانسان، ولكن راتمان يجسد العقل القوى المتفتح والانسانية المندفقة

والتقينا فى مقهى الاوبرا الذى يطل على ميدان بيبل بلاتز ويشرف على مبان جامعة هامبولت العتيقة..

وفتحت قلبى للرجل الذى احببته وقدرته، وقلت له كل افكارى بل وهواجسى فيما يتعلق بالرسالة التى تأخرت مناقشتها اكثر من عامين والامتحان أو المحاكمة التى جرت ثم قرارى بالعودة النهائية الى القاهرة.

استمع الى البروفيسور فى صمت واستيعاب، ومن الحين للآخر كان ينظر الى الدكتور بيرنر الذى كان يبدى تعاطفا وتفاهما لما أقوله بملامح وجهه دون ان يقول كلمة..

واخيرا قال البروفيسور، وبطريقته الجادة للغاية والمشبعة فى نفس الوقت بروح المرح والتفاؤل

- اسمع يافتاح.. بالنسبة لعودتك الى مصر فهذا عين الحكمة والعقل وأنت تعرف رأيى جيدا فأننى لا أحبذ على الاطلاق ان يأتى دارسون وطلبه علم من العالم الثالث الى اوربا ليقيموا أو يعملوا فيها، فبلادهم فى امس الحاجة لهم، بل انى اعتبر ذلك هروبا مشينا لمثقفى العالم الثالث.وشكلا خطيرا من اشكال سرقة العقول التى تمارسها الدول المتقدمة بالنسبة للدول النامية..

أما بالنسبة لأى أخطاء قد تكون قد حدثت هنا أو هناك، فهذا أمر وارد وطبيعى ولاتحمله أكثر مما يحتمل. والمفكر الحقيقى هو الذى يتناول الامر الواقع بعيدا عن الحساسيات أما بالنسبة للرسالة نفسها فقد قرأتها وبغض النظر عن الخلاف أو الاتفاق فيما ورد بها حول المرحلة الناصرية، الا أن أحدا لايمكن ان ينكر عليك الجرأة والاقتحام الفكرى وطرح قضايا

وزوايا جديدة بجدارة الباحث واستحقاق العالم المدقق. قد يكون قد حدث تأخير بعض الشئ لأسباب قد يكون بعضها بعيدا تماما عما ذهبت اليه..

وعلى أى حال فقد عرفت ان مجلس الكلية والجامعة قد وافق على المناقشة وحدد الموعد خلال الاسبوعين القادمين.

وتدخل الدكتور بيرتر

- نعم يوم الخميس ٢٠ يونيو فى قاعة الملحق الجامعى الساعة التاسعة صباحا وتتكون لجنة المناقشة من البروفيسور فويخت استاذ الاقتصاد السياسى بقسم دراسات الشرق الاوسط وبروفيسور جرينج استاذ الدراسات الشرقية فى جامعة هامبولت ومنى..

وضحك بروفيسور راتمان وهو ينهض مودعا قائلا :

- هكذا ترى انك لن تعود الى القاهره قبل مناقشة الدكتوراه

وفى يوم المناقشه احتشدت القاعه بعدد كبير من المصريين والالمان ...

كان هناك السفير المصرى صلاح شعراوى والمستشار الثقافى والاقتصادى ، كما كان هناك عدد من الاساتذه العرب والمصريين العاملين فى الجامعات الالمانيه ، اضافة الى مجموعه من الاساتذه والباحثين الالمان المهتمين بقضايا الشرق الاوسط ومصر بشكل خاص .. وكان هناك ابنى عمرو التلميذ فى الفصل العاشر فى المدارس الالمانيه ، والصديقه الالمانيه انجيليكا التى قدمت لى معونه لاتنسى سواء فى توفير المراجع ام مراجعتها وتنقيح اللغه او كتابتها على الاله

وبدأ الاساتذه الثلاثه كل يقدم تقييمه وتقريره النقدى ..

البروفيسور فويخت ابدى بعض التحفظات على بعض ماوصلت اليه الرساله ، ولكنه اشاد بالمجهود الكبير الذى بذل وبالكم الهائل من المعلومات التى تؤكد ان الباحث له خبره عمليه ونظريه عميقه بالقضيه المطروحه .. مصر فى عهد عبد الناصر ..

البروفيسور جرينج، قال ان الرساله لم تغنى مفاهيمنا ازاء التطورات الاجتماعيه والاقتصاديه فى مصر فى مرحلة عبد الناصر فقط بل وتعتبر اسهاما كبيرا فى الدراسات الاشتراكيه حول قضايا التطور فى الدول الناميه بشكل عام ..

والدكتور بيرنر .. قال.. ان الدراسه قدمت تفسيرا علميا للتطورات والتغييرات المفاجئه التى حدثت فى المجتمع المصرى بعد موت عبد الناصر

ثم فتح الباب للحاضرين، كما ماهى تقاليد الجامعات الالمانيه ، للمشاركه فى القاء الاسئله والاستفسارات ..

واستمرت المناقشه او الدفاع كما يسميه الالمان حوالى ثلاث ساعات..

وعندما اعلنت لجنة المناقشة منح الطالب شهادة الدكتوراه فى فلسفة الدراسات الاجتماعية، جرى ابنى عمرو ليكون أول من هنأنى واحتضننى بعنف.

- مبروك يا بابا.. قصدى يادكتور.. هنرجع مصر امتى

- فورا...

عطشـــان
عطش يلاحقنى فى الليالى الجائعة
عطش مجنون
عطش غابة يدمرها الجفاف
عطش اليك يازهرتى
قاس وحلـو

بابلو نيرودا

يناير سنة ١٩٨٤

قالوا لنا ونحن صغار... اذا اردت تعلم العوم فأقفز فى الترعة المجاورة.. وإياك والخوف من الغرق

واعتقد ان ذلك كان ومازال الدرس الغريزى الاول الذى تعلمته واستوعبته بل وأصبح منهجا للحياة..

المهم ان تأخذ القرار وتكون ممتلئا به مقتنعا بأسبابه مدركا لابعاده عارفا بطبيعة المياه التى تريد أن تسبح فيها:.

وبالرغم من كل ذلك فقد اكتشفت ان المجتمع الذى عدت اليه فى القاهرة يختلف الى حد كبير عن المجتمع الذى تركته منذ سبع سنوات. لا اعنى بذلك تلك التغيرات التى اعادت تشكيل السطح بعنف واحيانا فى قسوة سواء تلك الكبارى العلوية أو الابراج الزجاجية العملاقة التى اضاعت لمسة الانسجام النسبى الذى كان يلملم القاهرة كلها حتى احياءها الشعبية.

ولاأعنى ذلك الازدحام الممزوج بالضجة المكثفة والذى اصبح العلامة المميزة فى كل الشوارع تقريبا حتى انك تحس كما لو أن هناك وعلى الدوام مظاهرة صاخبة تتحرك.. كما أنى لا أعنى كم المخلفات الملقاه فى الشوارع مضافا أليه مسحوق التراب الذى يقضى على زهوة الاشياء والبشر، ولا فوضى المرور مع ازدياد كم العربات والتعامل البدائى مع الاله كما لو كانت حمارا او حصانا..

كذلك اشغالات الطريق الذى جعل اكثر من ثلث شوارع القاهرة فى ذلك الوقت مفتوحا اما لاعمال مترو القاهرة أو لإقامة كبارى علوية أو اعادة بناء شبكات المياه والصرف والمجارى والتليفونات..

كما أن القفزة الكبيرة والغير مسبوقة فى الاسعار فى بضع سنوات قليلة اضافة الى التناقض الصارخ بين أشكال الاستهلاك النزق الذى تراه ببساطة فى محلات السوبر ماركت فى بعض الاحياء والفقر الاسن الذى تلمسه فى أحياء أخرى..

كل ذلك كان مفهوما لدى ومبررا حيث كنت مستوعبا لطبيعة ومراحل الانتقال الصعبة التى اجرتها مرحلة الانفتاح بلا رابط وسيادة النمط الذى افرزته مرحلة البترودولار فى تأكيد قيم الفهلوة والكسب السريع والشطارة ..

كما كنت على يقين بأن هذه المرحلة آخذة فى الانقراض بالضرورة مع كل افرازاتها وموبقاتها.. ولكن الذى ازعجنى حقا هو اختفاء الضحكة بل وأحيانا البسمة وانزواء تلك اللمعة الموحية فى العيون التى عرف بها المصريون قديما وحديثا..

الامر الذى اعتبرته مناقضا على طول الخط لكل التراث المصرى الأصيل فى حب الحياة والبهجة والاصرار على التشبث بالأمل حتى فى احلك الظروف..

ربما كان السبب فى ذلك هى وطأة المشاكل الاقتصادية التى تراكمت بعد انحسار موجة الأمل الكاذب التى اشاعها البعض فى مرحلة سابقة..

وربما تعود الى التقلبات العنيفة التى شهدتها السياسة المصرية من خلال فترة وجيزة كانت اشبه بالساونا التى افقدت الاتجاه..

وربما ايضا لظهور بعض تيارات العنف وكراهية الحياة متمثلة فى بعض ممن فقدوا الثقة فى الحاضر وعجزوا عن الحلم بالمستقبل فراحوا يستعيدون الماضى ويعيشون فيه بعقولهم ووجدانهم ويحاولون فرض منهجهم اللا معقول على المجتمع كله وراحوا يبشرون بالجلباب الابيض القصير وبالدقن السوداء الكثيفة وبالنقاب المخيف معلنين حربا حقيقية على كل ماهو جميل وانسانى فى الحياة..

وخرجت ذات ليلة مع أولادى لنرى القاهرة من فوق كوبرى اكتوبر، فلقد كنت احاول تجنيبهما أى صدمة قد تصيب عقلهما الصغير بأى خلل وخاصة وان كلاهما أمضى اكثر من نصف عمره حتى الان فى مجتمع اوربى.. سنوات ما بعد سن التمييز.

وارتحت فى أعماقى وأنا أرى ياسر وعمرو وقد اخذتهما نشوة المنظر الخلاب ليلا حين تختفى كل الموبقات وتنعكس الاضواء على مياه النيل وتتكامل لوحة رائعة حيث يلتقى فرعى النيل عند الجزيرة الخضراء وتقفز مياه النافورة الملونة فى عمق النيل ويعيدا الانسجام والتواصل مع القاهرة.

وفجأة رأيت الاثنان يكفان عن حالة الاسترخاء والاستمتاع وعيناهما تتعلقان فى دهشة بل وبخوف بشبحين يمران بجوارنا..

شبح يمشى كأنه خيمة سوداء لايبين منه سوى فتحتان صغيرتان تماما مثل عفريت الحوارى

مثلما تصورناه صفارا وشبح اخر يلبس جلبابا ابيضا قصيرا وطاقية تغطى رأسه الحليق تماما وتضيع ملامح الوجه القاسى المتجهم فى ذقن سوداء كثيفة ومتشعبة..

كان الاولاد يناقشون فيما بينهم.. عمرو يقطع بانهم ليسوا مصريين بينما ياسر يعبر عن تصورات مخيفة ويتكلم عن المافيا وعصابات الليل فى لغة غريبة مطعمة بالكثير من الالمانية التى كان يجيدها بشكل اكثر حيث أنه ذهب الى المانيا وعمره لم يتجاوز السنوات الخمس.

تركت الاولاد يسقطون مخاوفهم وتحاليلهم التلقائية لهذه الظاهرة.. بينما كنت غارقا فى التاريخ المعاصر استرجع رفاعة الطهطاوى ومحمد عبده وقاسم امين وطه حسين اساتذة عصر التنوير فى مصر المعاصرة وأؤكد لنفسى وربما لاطمئنها ان الذى رأيته الآن مجرد بثور طارئة على وجه مصر المشرق المضيئ المتفتح دائما للحضارة والتقدم. ورأيت نفسى أتابع مع اولادى الشبحين بنفس الرهبة والخوف وكأنى ارى كابوسا من الماضى السحيق واسرعت اخطو بالولدين بعيدا.

وحينما كنت التقى ببعض الاصدقاء لازف اليهم خبر عودتى وبشكل نهائى من الغربة كان البعض ينظر الى فى دهشة غريبة بل ان البعض كان يتجاوز هذه النظرة الغريبة ليقول فى لامبالاة ازعجتنى.

- ولماذا تعجلت العودة.. هل اشتقت الى المعاناة..

وحينما كنت احكى لاحمد طه وهو الاستثناء الوحيد من الاصدقاء الذى رحب بالعودة وشجعنى عليها، عن احتياجى الى شقة واننى بلا مدخرات قال ضاحكا.

- طول عمرك متفائل.. المهم الا تستنفذ هذا الرصيد فى شهور قليلة.. وربنا يسهل..

وبعد شهرين جا ءنى اخطار الشحن من ميناء الاسكندرية لاستلام حاجياتى التى شحنتها من برلين..

وذهبت الى الجمرك مع أحد الاصدقا ء العاملين فى الجريدة لاستلام الصندوق الخشبى الكبير الذى كان يزن أكثر من طن ونصف..

وقمنا بالاجراءات المطلوبة وقدمت الاوراق والمستندات.. وسألنى الكشاف فى استنكار وهو يفحص الاوراق التى قدمتها..

- كل هذا الصندوق الكبير.. كتب.. ياأستاذ أرجوك ريحنا وريح نفسك واكتب لنا اقرارا بالمحتويات الحقيقية وسنتساهل معك فى الرسوم الجمركية.. المهم ان تكون الادوات الكهربائية فى اطار الاستهلاك الفردى.

قلت مؤكدا..

- رسوم على ماذا.. انها لاتحوى بالاضافة الى الكتب سوى مكتبى القديم ومكتبتى..

وقام الرجل غاضبا مستنكرا اصرارى على الانكار فتناول بلطة خاصة اعطاها لبعض العمال طالبا ان يفتحوا الصندوق الضخم من جوانبه المختلفة..

ومع كل الواح تتحطم على ضربات البلطة، كانت تتساقط الكتب من كل اتجاه..

وظل الرجل يعمل هو ومن معه أكثر من نصف ساعة يستكشف اعماق الصندوق الخشبى الكبير.. وهو فيما يبدو يرفض الاقتناع، الى ان اسقط فى يده والقى بالبلطة بعيدا عن أكوام الكتب المتساقطة حول الصندوق وهو يقول فى حزن ورثاء حقيقيين..

– كتب.. سبع سنين فى المانيا.. والبيه شاحن كونتار كبير كله كتب.. مش غريبة بالذمة..

وتأملت وجهه البسيط وهو يموج بمشاعر الاشفاق الذى يصل الى حافة الازدراء.. ولعل مشاعر الاشفاق والازدراء كانت ستضاعف لو عرف اننى وبعد سبع سنين من الغربة عدت وليس لدى أى رصيد فى البنك أو فى الجيب، وان على البحث عن شقة..

ثم عاد الرجل يتأملنى وهو يهرش بمؤخرة رأسه ويمسك بكتاب فى يده وكأنما يستجثنى لأقول شيئا يفسر له هذا اللغز الذى يبدو وأنه عاجز عن فهمه ثم انطلق يقول.

– بحق.. بحق.. هو دة كل اللى رجعت بيه بعد سبع سنين فى المانيا.. مافيش شحنة تانية فى السكة..

قلت ضاحكا فى محاولة لاشاعة البهجة على وجهة المتجهم.

– وهما دول شوية، دا أكثر من تلات الاف كتاب.. دى ثروة كبيرة..

انفجر الرجل ساخرا ثائرا.

– ياأستاذ.. ياأستاذ.. فوق، انت باين عليك عايش فى عالم تانى.. أنت جاى فى بلد الحيتان فيها اتوحشت والفلوس بقت كل شيئ.. جاى تقوللى كتب..!!

قلت وأنا مصر على اشاعة روح البهجة والمرح

– ماهو كل كتاب من دول يساوى مليون جنية.. عد بقى..

قال الرجل يائسا.

– ابقى قابلنى.. خليهم ينفعوك..

ولكن التفاؤل كان يغنى فى قلبى، ولم يكن هناك من يستطيع ان يسكته..

ففى مصر كل المشاكل ستحل، فلقد مضى عهد الغربة والخروج..

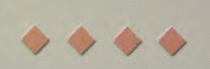
دعنا نأمل.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٢٠٠٠/١٤٣٠٤

I.S.B.N 977 - 01 - 6920 - X





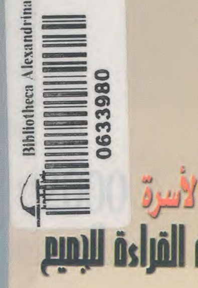
هذا هو العام السابع من عمر «مكتبة الأسرة» .. ومنذ سنوات طوال لم يلتف الناس حول مشروع ثقافى كبير كما التفوا حول هذا المشروع الثقافى الضخم حتى أصبح مشروعهم الخاص، وطالبوا باستمراره طوال العام. واستجبنا لهذا المطلب الجماهيرى العزيز إيمانًا منا بأهمية الكتاب؛ وبالكلمة الجادة العميقة التى يحتويها؛ فى إعادة صياغة وتشكيل وجدان الأمة واستعادة دورها الحضارى العظيم عبر السنين.

لقد استطاعت «مكتبة الأسرة» .. أن تعيد الروح إلى الكتاب مصدرًا هامًا وخالدًا للثقافة فى زمن الإبهارات التكنولوچية المعاصرة.. وها نحن نحتفل ببدء العام السابع من عُمر هذه المكتبة التى أصدرت (١٧٠٠) عنوانًا فى أكثر من «٣٠ مليون نسخة» تحتضنها الأسرة المصرية فى عيونها وعقولها زادًا وتراثًا لايبلى من أجل حياة أفضل لهذه الأمة.. ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة فى كل بيت.

سوزان مبارك







٢٠٠
قرش